



Princeton University Library



32101 057496968

Princeton University Library

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or re-
new by this date.

التفسير
احسان
لكتاب الله المنير

الجزء الرابع

بعلم: محمد الكرمي

* (سورة الأنفال) *

* مدنية و آيها خمس و سبعون آية *
 * (بسم الله الرحمن الرحيم ، يسألونك عن الأنفال
 قل الأنفال لله و الرسول فاتقوا الله و اصلحوا
 ذات بينكم و اطيعوا الله و رسوله ان كنتم
 مؤمنين) *

الأنفال جمع نفل وهو فى اصل اللغة الزيادة عن الحق اللازم
 الأداء و أطلقت الأنفال فى الشرع و خصوصا عند الخاصة على كل
 ما يؤخذ من دار الحرب بغير قتال و كل ارض انجلى عنها اهلها كذلك
 و قطائع الملوك و صفاياهم اذا لم تكن مغصوبة معلومة الغصيبة والآجام
 و بطن الأودية و رؤس الجبال و الأرض الموات و غير ذلك مما هو مذكور
 فى كتب الفقه بتفصيل فهذه الأشياء لله بالأصالة و لمن ينصبه لأدارة
 البشرية من رسول و امام يعدلان بها و بعوائدها مجارى المجتمع
 حسبما تستدعيه المصالح القائمة فى اوقاتها .

ان تقسيم الغنائم مشروعة ام غير مشروعة بين المغتنمين كان من
 الامور المتداولة بين الناس و لذلك لم تكن محطة للسؤال فلما كانت
 وقعة بدر وهى اول وقعة اسلامية و حصل فيها انتصار للمسلمين على
 المشركين و توفرت فيها المغانم وقع اختلاف بين المسلمين فى بعض
 ما حصل لهم فى هذه الحروب اذا فالمسؤل عنه هو ما زاد عن القدر
 المتيقن قسمته بين الغزاة .

و الآية لم تتعرض لهويات الزوائد و انها ماهى و ماهو ملاكها

لكن السنّة الاسلاميّة شخّصت ذلك على اختلاف وقع بين الفقهاء و انما اغضت الآيّة عن تفصيله اتكالا على تعليم الله لنبيّه ماهى وظيفته فى هذا المجال ككثر النقاط الفقهيّة التى أحيل تفصيلها اليه (ص) كأحكام الصلاة وغيرها فان الكتاب انما تعرض لمجملاتها ولم يتحدّث عن تفاصيلها لأنّ فى اشباعها البحث طولا يخرج بالقرآن عن كونه مجموعة تتعرض لكل شىء بوجازة ليتمكن قارئه ان يستملّه بسرعة وان يحيط بمضامينه اجمالا ولوانه بسط معارفه الكونيّة و التشريعية بسطا يقوم بجميع جنبات الموضوع لا حتاج حجه حدّ الاقل الى مائة مجلد وفى ذلك خروج عن حدود ما أريد به و ما يجب ان يراد .

فاتقوا الله ايّها المسلمون ولا تتنازعوا على حطام لا وزن له واحيلوا ذلك الى الله و الرسول اللذين هما انزه من يتصور فى النزاهة و الطهارة و الصفاء و اصلحوا ذات بينكم ممّا حصل لكم من التنازع حول الأنفال و انها لكم او لغيركم و اطيعوا الله و رسوله فيما يأمران به و ينهيان عنه ان كنتم مؤمنين بالله أوّلا و برسوله ثانيا .

RECAP
(Arabic)

BP130

• 4

• K376

1981

JUZ' 4



* (ائمة المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم و اذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا و على ربهم يتولكون : الذين يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون : اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم و مغفرة و رزق كريم) *

سبق في الآية السالفة أن قال ان كنتم مؤمنين وفي هذه الآيات فصل صفات المؤمنين فقال من علامة المؤمن بالله ايمانا صادقا قائما على معرفة بذاته وصفاته جهد مقدور المعرفة انه اذا ذكر الله عنده خشع قلبه هيبه له و اذا تليت عليهم آياته السماوية زادتهم بصيرة به وبرسله فان معارف الانسان كلما تقدمت تضخم ايمانه و جرت بهم الى الطمأنينة به اكثر حتى دعيتهم الى ان يتكلموا عليه لاعلى معرفتهم و قابليتهم و لياقتهم و لباقتهم و من صفات المؤمن اقامته للصلاة شكرا للمنعم على ما انعم و انفاقهم في سبيله تدليلا على وفائهم له فان الأنفاق في سبيله بمنزلة فعل الأحسان امام المحسن فان استجمع العبد هذه الصفات الحميدة كان هو المؤمن حقا يعنى ان اسمه يقع على مسامواقعا لا بالأدعاء المجرد : له درجات يعنى مقامات مرتفعة عند ربه و مغفرة لما يمكن ان يبدر منه احيانا بدون توجه منه و رزق كريم اى محترم فان الرزق منه طفيف قد لا يعتد به و شريف يأخذ بالعين .

و ختاماً فقد ذكرت الآية للمؤمن علامات (وان المراد بالمؤمن في لسان اهل المعرفة غير المراد به في السنة العوام وهو الذى يلىوك كلمة الله مقتصرا على اللفظ فقط فكذب لسان اهل المعرفة بما عليه غيرهم بأن من يلىوك كلمة الله و يدخل في غمار المؤمنين يقال له مسلم

بمعنى انه متظاهر بالاسلام لا انه مؤمن به (فان الايمان كما اشعرنا له علامات :

(١) انه اذا ذكر ليه الله وهو رمز كل الفضائل هابه كما يهاب العوام اهل السيطرة و القدرة لقيمته و ان فرض انه لا يرجوه و لا يخشاه ما عبدتك خوفا من نارك و لاطمعا فى جنّتك و لكن وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك فاذا هاب المؤمن الله هيبة ايمانية مشى على سننه و حدّ الأقلّ منها امامة الأذى عن طريق عباده .

(٢) و انه اذا تليت عليه آياته و عظاته او امره و نواهيه و سّعت ايمانه و اكدّته لانه يفهم من القضايا الحقيقية معنى ليس فى ذائقة غيره اولئك الذين يصدقون حيث لا دواعى الى الكذب و اما اذا كان هناك داع له ولو منزورا لم يعر الصدق لحظة عين و اما المؤمن فانه يصدق على كل حال لانه لا يحبّ ان يكذب عليه فمن لازمه حينئذ ان لا يكذب على غيره .

(٣) ومنها التوكل على الله بمعنى انه يقدم على القضايا من مقدّماتها الصحيحة دون غيرها لما علمته التجارب من ان الغيب له حكومة قهّارة لا تنجح معها الأسباب ولا اتخاذا .

(٤) اقامة الصلاة و انما اكدّها الله على المؤمنين به بحيث جعلها فى اطراف الليل و النهار خمس مرّات وفى الركعتين الأوليين منها لم يكتف الاّ بسورة الفاتحة لانّ الصلّى يقول فى خلال ساعات ليله و نهاره عشر مرّات اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين و الصراط المستقيم هو طريق الفضائل و اهل الفضيلة هم الذين انعم عليهم و اهل الرذيلة هم المغضوب عليهم فالصلّى العارف بلفظ صلاته الملتفت الى مؤداها دائما متوجه

الى الفعل الحق بجانب لفعل الباطل ان كان مؤمنا .

(٥) الانفاق مما رزقه الله و من للتبعيض يعنى من بعض ما اعطاك بحيث لا يضر بحالك و لا بمالك و يستفيد به الغير يرفع مؤنته او يقلل به من ويلات الحياة عليه و الانسان الذى ينحاز بماله عن كل من سواه ليس بمؤمن و لا بأنسان اصلا بل حكمه حكم الكلب الذى يطرد الكلاب كلها عن مطعوم يسعه و يسع مئات من امثاله : ثم عقب سبحانه هذه العلامات بأن من تلبس بها كان هو المؤمن حقا يعنى كان اسمه على مسماه و الا كان لفظا عاريا لا قيمة له اصلا .

و بالنتيجة تعطى الآية ان المؤمن الواقعى هو الانسان الواقعى فان كل آدمى تربيع مفهوم الانسان واقعافى كيانه كان مؤمنا بالايمان الذى سردته الآية اذا فالايان ليس فيه مؤنة اكثر من ان يكون الآدمى معه انسانا و من ذلك يعلم ان هؤلاء الذين يقومون و يقعدون و ورد السننتهم حقوق الانسان لابل حماية الحيوان من اعظم كذب العالم و انهم هم الذين يخلقون للانسان فى كل حين ما يبيده و يهلكه فضلا عن تلاعبهم بحيثياته و كراماته و مادياته ايضا و هذا منهم بطبيعة الحال وفق لمعتقدهم انهم حيوانات واما تلك التظاهرات فمحاولات فاشلة .

* (كما اخرجك ربك من بيتك بالحق و ان فريقا من المؤمنين لكارهون : يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون : و اذا يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم و تودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله ان يحق الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين : ليحق الحق و يبطل الباطل ولو كره المجرمون) *

الكاف التشبيهيّة فى كما اخرجك ترتبط بما سلف من مجادلتهم فى الأنفال انها لمن هى بتقدير ان اصحابك يا نبيّ الاسلام تجادلوا فى الانفال حتى حصلت بينهم مشادة كما تجادلوا فى خروجك الى بدر و معنى اخرجك ربك امرك بالخروج من بيتك الذى هو كناية عن المدينة و كان خروجك من المدينة الى بدر حقا اى ثابتا واقعيّا من ربك لا بسائق الميل و الرغبة و ان فريقا من المؤمنين بك كانوا كارهين لهذا الخروج حفظا على السلامة و ابقاء على الراحة و كراهة لأى تموج يكون و الحفاظ على السلامة و الابقاء على الراحة و كراهة تموج الوضع امور عقلائية اذا لم يدفعها عن مقامها ما هو اقوى منها و الذى هو اقوى فى هذا المجال الانتصار للحق فى ظلال مقررات الشرع و الأطاحة بالباطل الذى كان عليه المشركون من هنات لا تعدّ و لا تحصى حتى استردلت الحياة بسببها فكانت واقعة بدر فاتحة خير لدّها : يجادلوك يا نبيّ الاسلام قومك فى امر يروونه منك بسائق رغبة فردية وهو مناوشتك لقريش اولى المال و السمعة و الجاه و الشرف العنصرىّ وهم لو راجعوا ايمانهم

بك لصدّهم عن هذه العقيدة لأنّهم لم يؤمنوا بك حتى ثبت عندهم انك مرسل من الله وان كل خطوة تخطوها هي بنظام منه ووحى صادر عنه فكيف مع هذه العقيدة يجادلونك فى الخروج الى ما تريد من وجّه :
و تبين الحقّ هو ما ذكرناه من عقيدتهم برسالتك وعن هذا البيان آمنوا بك فكيف يتلکون عليك اليوم لقد كان فريق من هؤلاء كارهاً للمناجزة قريش و انساق معك الى هذه الجهة و لكنه كالمسوق الى الموت الذى يراه بانتظاره .

و كان ابو سفيان اقبل بعير قريش من الشام و فيها من المال الشئ الكثير وهى رؤس اموال عديدة لأناس كثيرين جداً حتى قلّ من قريش مكة من لا يكون له فيها سهم فأمر النبىّ بالخروج اليها ليمسكها دون اهلها و يتقوى بها فى سبيل دعوته كما يضعّف بسببها شوكة اولئك المناوئين له ولدينه فان الدماء و الاموال انما تكون لها حرمتها اذا كانت بنفع المجتمع لا بضرره و من هنا أبيض دم المتهجم كقاطع الطريق و ابيض المال الراصد لكّ الحقّ و اعانة الباطل فخرج صلى الله عليه و آله فى ثلاثمائة و بضعة عشر انسانا لا يريدون الاّ ابا سفيان و العير التى معه فبلغ ابا سفيان مسير رسول الله اليه فأرسل قاصدا الى مكة يخبر قريشا بذلك فتجهزوا و خرجوا بلا توقف و نزلوا بأزاء بدر وهى بئر نسبت لحافرها بدر الجهنى رجل من جهينة و هذه المقدمة رصيد لقوله تعالى - واذ - اى و اذكروا حين يعدكم الله على لسان نبيه احدى الطائفتين يعنى يعدكم ان احدى الطائفتين لكم امّا الظفر بالعير و امّا الانتصار على قريش و الذى تودّونه انتم هو العير لما فيها من مال كثير بلا اجهاد يصيبكم بسببه لعلمكم انكم اقوى من حمايتها السائرين معها وهو معنى غير ذات الشوكة فان ذات الشوكة هي الحرب لما فيها من

سلاح حادّ تشاك به الأرواح لكن الله يريد الأخرى وهو قطع دابر الكافرين الراصد ين لتعقيم دينه فى عباده وانتشاره فى بلاده وهو معنى احقاق الحقّ وكلماته هى آياته ونظمه ودساتيره اللّامة لشؤون الخلق : يفعل الله ذلك ليحقّ الحقّ اى يثبته فى عرصه العيان ولا يدعه مفهوما غير محقّق ويبطل الباطل اى يزيله مفهوما بأقامة الحجّة ومصادقاً بأعمال النفوذ والقوّة ولو كره المجرمون ذلك لان المجرم بطبيعة الحال لا يحبّ الحقّ ويصادق الباطل فكيف يرضى بأحقاق الحقّ وابطال الباطل .

* (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم
 بألف من الملائكة مردفين : وما جعله الله
 الا بشرى و لتطمئن به قلوبكم و ما النصر الا من
 عند الله ان الله عزيز حكيم : اذ يغشاكم
 النعاس أمنة منه و ينزل عليكم من السماء ماء
 ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان و يربط
 على قلوبكم و يثبت به الأقدام : اذ يوحى ربك
 الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا
 سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق
 الأعناق و اضربوا منهم كل بنان : ذلك بأنهم
 شاقوا الله و رسوله و من يشاق الله و رسوله
 فان الله شديد العقاب : ذلكم فذوقوه و ان
 للكافرين عذاب النار) *

يريد تعالى انكم لما تقابلتم مع قريش فرأيتموهم أضعافكم من حيث
 العدد و فوقكم من حيث العدد فقد ثبت من طريق التاريخ الصحيح ان
 قريشا فى عدتهم كانوا الف مقاتل او يناهزون الألف و ان اداة حربهم
 كاملة و خرجوا عن استعداد و تهيؤ و قدرة و ان المسلمين كانوا يزيدون
 عن الثلاثمائة بشىء قليل ثلاثة عشر او ما هو فى افقه و ان سلاحهم من
 الحديد كان محدودا جدا و ان ما معهم مجموعة اباعر يتراوحون عليها
 ركوبا و حمل اثقال و ان ارض المصاف كانت عندهم ذات رمل تسبخ فيها
 الأقدام فهى متعبة للغاية بل محرجة لهذه الامور لما وجدتم انفسكم
 دون القوم طلبتم الغوث من الله فاستجاب لدعائكم على لسان النبى

بأنى أمدكم بألف من الملائكة مردفين لمثلهم او لأكثر منهم و هـذا الأمداد لاشك انه معنوي لان الله لو اراد الأيقاع بقريش لأوقع بهم فى منازلهم كما حكى ذلك عن اقوام نوح و هود و صالح و لوط و شعيب فى كتابه هذا و لكنه اراد من المكلفين الجهاد فى سبيله ليكون ثواب الانتصار و ما يحصل عنه من ثمرات مكتسبا لهم وقد يشير الى ذلك نفس قوله هنا و ما جعله الله اى ما جعل الأمدادكم بالملائكة الآ بشارة و تفائلا بالنجاح و لتطمئن به اى بهذا الأمداد المبشر به قلوبكم و ما النصر الا من عند الله يعطيه لمن يشئ فى معركة العقيدة الصادقة ان الله منيع فى نفسه و كل من يتخطى خطواته يكون منيعا مثله لأن الايمان الثابت بالشئ اهم ناصر للمؤمن به حكيم فى افعاله و اقواله و ان تعمى وجهه المصلحة فى كثير منها .

و اذكروا من نعمه فى هذا الموقف عليكم انه لم يترككم الى قلقكم من عدوكم فان المضطرب لا ينام فغشاكم النعاس اى جعله بمنزله الغشاء و الغطاء لكم أمنا لقلوبكم فان النوم يريح القلب و انزل عليكم من السماء ماء لتلتبّد به الرمال و تجمد فلا تسيخ فيها اقدامكم و ليظهركم به حيث تستعملونه فى حاجاتكم العادية و الشرعية لان قريشا سبقت الى الماء او لأنه لا كفاف به لانه ماء بئر واحدة و ليذهب عنكم رجز الشيطان وهو تعذيبه الروحى لكم بالوساوس قلة الماء من ناحية و ميثان الرمل من ناحية اخرى و ليربط على قلوبكم بهذه البشارات فلا تضطرب و يثبت بما ينزل من السماء الذى اشار اليه اقدامكم على الأرض بتلبدها بالماء الذى جمدها فلا تعود تسيخ بكم : و اذكروا من نعمه تعالى حين يوحى ربك الى الملائكة : بأبانه من الرسول لكم : انى ياملائكتى معكم فثبتوا الذين آمنوا فى ميدان مناورتهم مع المشركين و تشبيبتكم يكون عن

قول النبيّ لهم لأنه (ص) هو نقطة الربط بين المعبود وعباده : سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب بصمودكم أمامهم ذلك الصمود الذي هزّ جوانب العدوّ حتى آمن انكم انما قابلتموه بالأيمان لا بالأبدان فزحفوا إليها المجاهدون في سبيل دعوة الله ودينه الى الأمام واضربوا منهم رؤسهم القائمة فوق اعناقهم حتى تريحوا الوجود من باطلهم فان قطع الرأس بالضرب قطع لشأفه العدوّ بخلاف ضربه في مكان آخر من جسده فلا يميته فيبقى للمستقبل عامل فساد كما كان فأن قلت كيف ثنى بقوله واضربوا منهم كل بنان و البنان هو طرف اليد و الرجل ولا موت معه في الغالب قلنا مفاد ذلك انكم في ضرباتكم لهم اذا لم تنتهياً لكم رؤسهم فاضربوا اطرافهم حتى يتعطلوا عن حمل السلاح و المشى و من بعد تعطيلهم أجهزوا عليهم : انما يحضكم الله ان تفعلوا ذلك الفعل لأن هؤلاء قوم شاقوا الله ورسوله اى نصبوا انفسهم في شق مقابل يصحروا بالمعاندة و اللجاجة دونما شيء سوى الجهل الفاضح و الأنانيّة العمياء و من يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب له ذلكم الانكسار الفاضح و الأندحار الواضح فذوقوه يا قريش في الدنيا و ان للكافرين غدا عذاب النار : وتاريخ وقعة بدر شرحناه مبسوطا في كتابنا نتائج الفكر في شرح الباب الحادى عشر فليراجع ثمّة .

* (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا
 فلا تولوهم الأدبار : و من يولهم يومئذ دبره
 الآ متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء
 بغضب من الله و مأواه جهنم وبئس المصير :
 فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم و مارميت اذ رميت
 و لكن الله رمى و ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا
 ان الله سميع عليم) *

الآيتان السابقتان من هذه الآيات الثلاثة تعطيان نظاما حربيا
 عاما وهو انه يحرم على المؤمن اذا تزاحف فريقه مع فريق الكفرة ان ينهزم
 امامه الا ان لا تكون له طاقة به لقلته و تكاثر الكفرة عليه تكاثرا واضحا فإنه
 حينذاك لو فرّيعذره كل احد نعم لا يجوز له أن يعطيهم دبره الا اذا
 تحرف لقتال بمعنى انه زور في نفسه حرفة لتسلطه على طرفه بأن يهرب
 امامه حتى يتبعه خصمه الى مكان يكون فيه اقدر على خصمه فيعطف
 حينذاك عليه او تحيز الى فئة بأن كان منفردا او مع جماعة ليس بهم
 الأعتصام من خصومهم الا بأن يلتجئوا الى جماعتهم الأكثرين فينضموا
 اليهم فاذا كان المجاهد في عدد و عدة يؤمل معها النصر وثبتت او
 اعطاهم دبره ليتحرف القتال او لينحاز الى فئة فذاك هو المطلوب و الا
 فقد باء بغضب من الله اى رجع في هزيمته الى غضب الله لا الى رحمته
 و مأواه غدا جهنم و بئس المصير : ثم ابان سبحانه للمسلمين حاضرى
 بدر الذين احرزوا المعركة بأنهم لولا تحريض الله لهم على القتال
 و سوق البشائر لهم على الانتصار لما انتصروا واصولا الأنسياق مع
 الايمان بداعيه قوة اخرى وراء شهامة الانسان فى نفسه فقتال المؤمن

ليس كقتال الانسان العارى من الايمان لتوفر الدوافع فى الأول دون الثانى : واما قوله ومارميت اذ رميت فيشير الى أنّ معركة بدر لما نشبت اخذ رسول الله كفاً من حصباء ورمى به وجوه القوم وقال شاهت الوجوه و تعقبته الحملات من المسلمين فانهزم المشركون فالله يقول لنبيّهان كفاً الحصباء من وجهة عادية لا اثر له و لكنك قد فتته فى وجوه القوم اتكالا على روحانيتك السماوية فأثر الرعب فهذا الأثر لله لا لك باعتبارك فردا من الناس : واما قوله و ليبلى فانه معطوف على شىء محذوف تقديره ولكن الله قتلهم لينصر الايمان و المؤمنين : ولكن الله رضى تأييداً للمسلمين و ليختبرهم فى حرب العقيدة لينيلهم الجزاء الحسن ان الله سميع لا استغاثتكم ايها المؤمنون عليم بمنويات قلوبكم .

و خلاصة المقال ان الايمان بالشىء معناه الأطمئنان بهوالاطمئنان معناه سكون النفس عنده بحيث لا يتخالجها قلق و اضطراب ولا تذبذب بين السلب و الأيجاب و الكفر بالشىء نقيضه و معناه عدم العقيدة به و اطمئنان النفس بعدم واقعيتها بحيث لا يتخالجها قلق فى عدم صحته اذا فتقابلهما تقابل سلب الشىء و ايجابه وما اشد المنافاة بين السلب و الأيجاب للشىء الواحد فما اعرق العداة العقائدى بين المؤمن و الكافر وما ابعد الشقة بين قلوبهما و التنافر الواقعى بينهما و مهمما حصل فى البين تجامل و تصافح و على هذا الاساس شدّد سبحانه فى العظة و النصيحة للمؤمن بأن من لازمه دائماً ان يكون يقظا فى حفظ عقيدته التى تحملها بأرغام الدليل ولم يتحملها تعبداً فان التعبّد لا قيمة له الا بمقدار ما للقشر من قيمة و لذلك ترى الذين يدّينون بالشىء تعبداً ضعفاء فى دينهم يعبث بهم كلّ احد بخلاف الذى تحمّل دينه عن عقيدة بالدليل و خضوع نفس بالبرهان الذى سيق له فانه رصين فيه

لا يزول ولا يحول عنه وان لا ينساق مع المجاملة انسياقا جذريا فان
المجاملة شبيهة بالبيات الذى يتخذه العدو لعدوه فى مقام الغدر به
والختل له وانه اذا بدا من طرفه ما يريد به نقض عقيدته كلاً او بعضا
واجهه مواجهة صادقة فتارة بالسلاح الحاد مع امكانه و اخرى بالمرابطة
للعقيدة عملا مع عدم تيسر التسلح و انه فى كلا الموقفين اذا هون بموقفه
من دينه و ايمانه ترتبت عليه لوازم ماحقة .

(الأول) انه كاذب فيما يدعيه من عقيدة لصادق فان الايمان

لا يزور وقد كان مفروض البحث هو الايمان .

(الثانى) انه حتى لو كان يحمل عقيدة صادقة ولكنه وهن فى

الدفاع عنها وانغلب فانه لا يعيش الا معذبا فى روحه مريضا فى جسمه
مكدر الخاطر .

(الثالث) انه مع انسياقه لمناوئه لا يعيش الا ذليلا لانه محكوم

مغلوب لاحكام غالب .

(الرابع) ان مغلوبيته تؤدى به تدريجا الى فناءه و هذا ما

شاهدته اجيال البشرية على طول خطها ومانشاهده بالفعل من
انشطار الضعفاء بين الروس الشيوعيين و الأمريكان الرأسماليين فانه
مالان واحد منهم بوحدة من هاتين القوتين الا وادى به زمانه الى
طحن كلاله و استنزاف قواه و ابادته فى الأخير شعبا و دولة و ثروات
طبيعية و كسبية و هذا ما حذر الله عباده به وليس بعد المحقق و
السحق من غضب ساحق ماحق كما ليس بعد احراق و ذيلة الحياة
من نار يخاف منها .

فعلى هذا يكون معنى الآية يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين

كفروا ملاقاته مصادمة لا ملاقاتة عادية للاصطدام . هذا هو الزحف فلا

تنخذلوا امامهم و تستسلموا لهم فتصيروا بعد عقيدتكم بالله
و برسله و كتباً ماركسيين مثلاً او دارونيين و من يولّهم يومئذ دبره
و ينخذل امامهم الا متحرفاً لقتال اى مجاملة تعود عليه بالأخير الى
انتصاره عليه او منتهزاً للفرصة عاملاً بالتقية حتى يتسنّى الوقت المساعد
فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنّم و ساءت مصيراً .

* (ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين : ان
تستفتحوا فقد جائكم الفتح وان تنتهوا فهو
خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم
شيئاً ولو كثرت وان الله مع المؤمنين : يا ايها
الذين آمنوا اطيعوا الله و رسوله ولا تولّوا عنه
وانتم تسمعون : ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا
وهم لا يسمعون) *

ذلكم اشارة الى نصره الله للمؤمنين و يقابله قوله وان الله موهن
كيد الكافرين اى دسائسهم و تجمّعهم عليكم ان تستفتحوا خطاب
للمشركين فقد قيل ان ابا جهل قال اللهم ربنا ديننا القديم و دين
محمّد الحديث فأى الدينين كان احب اليك و ارضى عندك فانصر اهله
اليوم : فقد جائكم الفتح اى تحققت النصره لما هو عند الله احبّ و ارضى
و ان تنتهوا يا جماعة المشركين عن محادّة المؤمنين و مناوئتهم فهو خير
لكم لان فيه سلامتكم وان تعودوا الى الحرب نعد اليها ولا تذهب
خواتركم الى ان ما معكم من عدّة و عديد يغنى عنكم شيئاً ومهما كثر
ووفر واعلموا ان الله فى جميع الحالات مع المؤمنين ما ثبتوا على ايمانهم
و مشوا على طبق ما يتقاضاه منهم و يعبر عن هذا الشرط قوله يا ايها

الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله بمعنى ان ايمانكم منوط بذلك و متى
انحرفتم عن اطاعة الله و الرسول فلا ضمان لانتصاركم و لاتتولوا عن نبيكم
الطالب لسعادتكم و انتم تسمعون نداءه فى التبشير و التحذير كما
لا ينفعكم ان تكونوا مؤمنين باللسان غير مطبّقين له على العمل فان
الألفاظ انما تصدق اذا عبّرت عن المقاصد و هذا هو ما يريد افادته
بقوله قالوا سمعنا وهم لا يسمعون .

* (ان شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الذين

لا يعقلون : و لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم

و لو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) *

و فى هذه الآية تفسير و شرح لحال من قال سمعت وهو فى الواقع
لم يسمع و الدواب فى عرف اهل اللسان هى البهائم و لاتطلق على
الناس الا من كان بحكم البهيمة فى ان له سامعة و لا يستعملها فى
صلاح نفسه و باصرة لا يستخدمها فيما يرببها الى غير ذلك من بقية
القوى التى اودعت فى الانسان لتقوم برشاده و تضمن سعادته الواقعية
و لو علم الله فى هؤلاء الدوابّ خيرا لأسمعهم مواعظه و زواجه و بشارته
و سائر آياته مستمرة غير منقطعة و لكنه يرى منهم الأعراض على كل حال
اقبل عليهم ام انصرف عنهم .

* (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله و للرسول اذا دعاكم لما يحييكم و اعلموا ان الله يحول بين المرء و قلبه و انه اليه تحشرون : و اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة و اعلموا ان الله شديد العقاب) *

تفيد الآية ان المكلف اذا آمن بداعية مصلح مرشد يسبق فعله قوله و اتعاضه عظته و جب عليه لزاما ان يستجيب له اذا دعاه الى شىء فانّ تلكاه عنه امارة انصرافه عن ايمانه به او ضعف عقيدته فيه و كلاهما ينافيان ثبات الايمان على الأخص فيما يكون مضمون الدعوة موجب حياة فضلى للمدعو كما هو شارة دعوة السماء على لسان الرسل و بخاصة نبيّ الأسلام فان تعاليمه حياة الفرد و المجتمع و متى تمرد عليها الأنسان تموجت به الأوضاع تموجا مؤسفا كما رأته ادوار البشرية فى اطوارها العارمة ثم اعلموا يا جماعة المكلفين ان الله فى عون عباده ما دام العبد قائما بوظائف العبودية حقيقة لا تصنعا : و اما اذا وجد فى عبده تجافيا واقعيا عنه او رآه لا اباليا يفعل السيئة بصد رمنشرح كما يفعل الحسنة احيانا كذلك فانه يضرب حجابا بين المعارف المنجية و بين قلبه و متى كان الأنسان بهذا الوصف عاد حيوانا ضاريا لا يؤمن ضرره مع كل احد حتى الصديق : كما يجب عليكم ان تعلموا ان معادكم على الله و مالكم اليه فهناك يكون الملتقى فالبرّ يتصل بعمله و الفاجر يبوء بأثمه و هكذا يجب عليكم أن تخافوا الفتن و هى التموجات التى يحدتها الأنتهازيون ليهيمنوا من طريقها على امانيتهم و معنى خوفكم منها عدم اشتراككم مع اهلها و اذا امكنكم مبارزتها و جب اما اذا اشتركتم فيها

بتسويلات اهلها او قعدتم جانباً عن مبارزتها و تأييدها اصابتم نتائج تلك الفتن و لا تعود تختص بمحدثيها لان الوضع الذي تخيم عليه الفتنة تحتوى على جميع ابعاده هذا كله فى الدنيا و اعلموا ان الله شديد العقاب فى الآخرة لكل مسؤل بوظيفة لم يقم بواجبها وقد ورد فى عدة آثار ان النبى (ص) قال لعمار يا عمار انه سيكون بعدى هنات حتى يختلف السيف فيما بينهم و حتى يقتل بعضهم بعضاً و حتى يبرأ بعضهم من بعض فاذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلح عن يمينى يعنى على بن ابي طالب عليه السلام فان سلك الناس كلهم واديا و سلك على واديا فاسلك وادى على و خلّ الناس يا عمار ان علياً لا يردك عن هدى و لا يدلك على ردى يا عمار طاعة على طاعتى و طاعتى طاعة الله .

و بالآخرة تفيد الآية فى خلاصتها ان الانسان يجب عليه ان ينظر فى امره نظراً جذرياً جوهرياً لا سطحياً قشرياً و الاّ فشل فى الحياة مثلاً يغتر الانسان برؤية الفتاة الجميلة فيندفع بكل قواه لأحرازها من دون ان يمعن النظر فى اطرافها و فى الأعم الاغلب فى امثال هذه الموارد لا تكاد تنطفأ جمرّة الشهوة الاّ و تعقب هذا الانسان بلايا من جرائها و يكون مهما حاول الاستقالة منها غير مستفيد لأنها افرخت عنده او لأن قومها اشدّ اقوياء عليه او لأنها هى بنفسها تثير عليه الفتن و القلاقل فترى عمره الطويل يتقلص و ينهار بسرعة و يأخذه من الندم ما لا يفيد به بل يحرق و ذيلة حياته و كذلك يغتر بدعاة التمدن و اوصافهم المعسولة الهائجة به فيتابعهم و يناصرهم و اذا انغمس فيه كما انغمس اهل هذا الزمان هنالك يعرف انه يسلب كل شىء حتى فتات الخبز و جرعة الماء فان الحياة الكيماوية حياه جوفاء لا قرار لها من الواقع و انما يحاول اهلها الهيمنة على امتلاك الناس بصورة اخس من العبيد مثلاً قطع

سلك الكهرباء عن بلد عظيم كاف في امانتهم لأنهم اناطوا به كل شيء حتى جرعه الماء وفتات الخبز .

أما اذا تبطن الامور فلم يحمله الجمال ذلك المحمل و تورع فربما هنا هناة طوال عمره هو و جميع من يتصل به و كذلك اذا ملك نفسه فلم يندفع وراء مغريات التمدن الزائف فانه لا يهلك بطبيعة الحال ولا يستعبد ذلك الاستعباد المرير : و المنظور بحيلولة الله بين المرء و قلبه هو صرف نظره عنه و ايكاله الى جهله و مورد الجهل مورد سوء : واما ان الفتنة لا تصيب الظالم وحده فذلك طبيعي للأوضاع العامة التي تجرئ على محيط فأنها لا تستثنى مكانا ولا انسانا ولا اى شيء له ارتسباط بذلك المحيط المفروض فكل احد يجب ان يخاف على نفسه ولا يقول قائل انا ابتعد بأخلاقي عن جوارى فأسلم و انعم بل يجب عليه ان يشكل جبهه مناوئة فاذا استطاع المقاومة فذاك و الا هلك ولو عن غير جرم و تقصير كما رأى كل احد تحقيق هذه الأوعاد .

* (و اذكروا اذ انتم قليل مستضعفون فى الأرض
تخافون ان يتخطفكم الناس فأواكم و ايدكم
بنصره و رزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) *

و فى هذه الآية ذكرى مهمة للمؤمنين من عدة جهات تعرفهم بأن
مسلك الحق اذا استطرقة الانسان بشهامة و كرامة فاز بسلوكه فيه فوزا
عظيما فيعود عزيزا منيعا بعد أن كان متواضع القدر بين الناس مجقوا
معتدى عليه و تكثر افراده و اتباعه بعد أن كان منقطا لا يرغب فيه
الاتباع و الأصحاب و قويا نافذ الكلمة بعد أن كان ضعيفا مستضعفا
و مقتدر مال و عنوان بعد أن فاقد هما و هكذا كان المؤمنون أول
ايمانهم بالنبىّ قليلين مستضعفين فى الأرض يخافون ان يتخطفهم
العابر و المستطرق فلما لازموا جانب الله آواهم فى دار الهجرة بعد
تشردهم من مكة و من سائر القرى للأعنات بهم من الناس و ايدهم بنصره
فملكوا اولئك الغواة الطغاة حتى اذلوهم و ازالوهم عن عروش تمردهم
و ترمتهم و نالوا من الرزق الطيب ما اسعدهم فى الحياة سعادة ما كانوا
يتخاطرونها فى بال و الذى يلمس من صاحبه هذه المعونات يلزمه من
الشكر ما لا يقوم اللسان ببعض واجبه .

ثم ان هذه الآية جاءت بمنزلة نتيجة للآية السالفة التى كان
صدرها يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول اذا دعاكم ليحييكم
بمفاد ان مادعونكم اليه من الاستجابة لله و للرسول و انها متى حصلت
منكم ضمنتم لكم البقاء و الحياة الطيبة التى تهواها النفوس اثره فيكم
ما رأيتموه بأعينكم عند ما كنتم مشركين و بعد ما اسلمتم اما عند ما كنتم
مشركين فقد كنتم فى اسوأ حال .

(١) اذلاءً مجهولين فاقدين للقيمة صغاراً وحتى في اعيان

انفسكم .

(١) مبلبلين في اوضاعكم يتخطفكم كل عابر ومستطرق وينفذ فيكم

رغباته كل من يقوى عليكم .

(٣) فقراء مساكين لا تملكون شيئاً من مؤنات المعيشة .

(٤) جهلاءً فاقدين لكل معرفة .

و كل واحد من هذه العناصر المذكورة كاف في محقكم و سحقكم و دواعى ذلك انكم كنتم لا تعرفون الله ولا الرسول فضلا عن الاستجابة لهما اما بعد أن عرف منكم الله و الرسول من عرفه و تابعهما في خطاهما فقد رأيتم كيف :

(١) عززتم و عرفتم و صار لكم صوت و صيت و تعالت قيمكم و كبرتم في

اعين الناس فضلا عن اعين انفسكم .

(٢) و كيف تنظمت اوضاعكم و خافكم البعيد عنكم فضلا عن القريب

لكم .

(٣) و كيف اثريتم و شيدتم القصور و خزنتم الأموال و صارت لكم

دولة عالمية .

(٤) و كيف اصبحت علماء و مصدر افاضات تضرب اليكم آباط الأبل

للأخذ منكم و التلمذ عليكم و كل عنصر من هذه العناصر كاف في تزيينكم

و تقدمكم .

و اذا كنتم قد وازنتم بين ماضيكم و حاضرکم فأمسكوا بكلا يد يكم على ما اوجب سعادتكم وهو طاعة الله و الرسول ولا تخونوهما فيما يأمرانكم به و ينهيانكم عنه كما لا يجوز لكم ان يخون بعضكم بعضا لكن لما تحققت منكم الخيانة لله و الرسول من جانب و لبعضكم البعض من جانب آخر

تراجعتم الى الورا ء و عدتم كما كنتم اذ لاء مجهولين مبلبلين يتخطفكم كل احد فقراء الى غيركم مساكين امامهم جهلاء من المعرفة النافعة ومن العلم الناجع كما يرى ذلك كل احد منكم فى عصركم هذا .

* (يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله و الرسول

و تخونوا اماناتكم و انتم تعلمون : و اعلموا انما

اموالكم و اولادكم فتنة و ان الله عنده اجر عظيم) *

خيانة الله و الرسول بما يسانخ مقامهما عند المكلفين هو التسامح فى اداء وظائفهما الملقاة على عواتقهم و اما خيانة الامانة عندما تنسب للبشر بعضهم مع بعض فتتصور فى اكل الودعى مال من استودعه و افشاء سره الذى ائتمنه عليه و التعدى على ناموسه فى الخفاء و نظير ذلك ، و انتم تعملون ، جملة حالية مفادها انكم تدركون خيانتكم عندما تخونون فلا عذر لكم فيما تعملون ، و اعلموا ان جميع ارتباطات الدنيا من مال و اولاد محك و مختبر فاعرفوا موقفكم فى هذه الأختبارات و اعلموا ان الله عنده للمطيع اجر عظيم يتمتع به و تدوم متعته له بدوام الله و اما مال الدنيا فهو على تقدير بقاءه بيد مالكة ليس له منه الا بمقدار ما يشبع جوفه و يسترعورته لا اكثر و الزائد عليه اما يكون مدخرا للوارث و اما مأكولا لغيره فى حال حياته بلا ان يتعب فى جمعه او يكدح فى حفظه ، و قيل فى مورد نزول الآية ان رسول الله حاصر يهود بنى قريظة احدى و عشرين ليلة فسألوه الصلح على ما صالح عليه اخوانهم من بنى النضير على ان يسيروا الى اخوانهم فى اذرع و اريحاء من ارض الشام فأبى رسول الله ان يعطيهم ذلك حتى ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا

عندهم فبعثه رسول الله اليهم فأتاهم فقالوا ما ترى يا ابا لبابة أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار ابو لبابة بيده الى حلقه يعنى أنه الذبح فلا تفعلوا فأتاه جبرئيل فأخبره بذلك قال ابو لبابة فواللّما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنّى قد خنت الله ورسوله فنزلت الآية فيه فشدّ نفسه الى سارية من سواري المسجد وقال لا اذوق طعاما ولا شرابا حتى اموت او يتوب الله علىّ فبقى وقتا اثر عليه الجوع والعطش فيه حتى خرّ مغشيا عليه فحصلت له التوبة .

* (يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم و الله ذو الفضل العظيم) *

طبعا لا تحصل تقوى الله لأحد الاّ وقد تميّز بعقله فهذا العقل الذى حصلت للمكلف التقوى بسببه يكون هاديا مرشدا له فارقا بين الحسنه و السيئه فلا يطلب ان طلب غير الحسنه فلا يسيء و التقوى المتعقبه للذنوب تكون مكفرة له و موجبة لغفرانه و الله الذى يهب هذه الجوهره النفسية وهى العقل ذو فضل عظيم على من وهبها له فضلا .

* (واذ يمكركم الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك
 او يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير
 الماكرين) *

يقال اثبته اذا صيره غير ممتنع اما بقيد يوثق به او بسجن مغلق
 عليه او بجراحة تقعد به و الآية نزلت في قصة الدارحين تمالأقريش على
 قتل نبي الاسلام او تقييده و حبسه او اخراجه من مكة فأوحى الله ذلك
 له و أبات عليا عليه السلام مكانه و خرج رسول الله آخذا طريقه الى
 المدينة بخفاء و مكر الله هو مقابلتهم بما يعقم مكرهم و تدبيرهم و المكر
 لا يكون الا من العاجز عن ابداء قوته و التشهير بها فهو وصف لا يصح
 سوجه لله تعالى الأعلى نحو من التنزيل تقريبا لأفهام المطلب كما ذكرناه
 : وقد استوعبنا قصة الدار في كتابنا نتائج الفكر فليراجع :

* (و اذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لـ
 نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الآ اساطير
 الأولين : و اذ قالوا اللهم ان كان هذا هو
 الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء
 و ائتنا بعذاب اليم : و ما كان الله ليعذبهم
 و انت فيهم و ما كان الله معذبهم و هم
 يستغفرون : و ما لهم الآ يعذبهم الله و هم
 يصدون عن المسجد الحرام و ما كانوا اوليائه
 ان اوليائه الآ المتقون و لكن اكثرهم لا يعلمون

العناد و اللجاجة من اهمّ الدلائل و اقوى عوامل التخريب و
 الأفساد و هما اللذان شوّشا الوضع على نبيّ الأسلام و أطلا محنته
 و عطّلا دعوته عن الانتشار زمنا معتدّا به و كان عتاة قريش منطوين على
 هذه الأرواح المظلمة و قد قصّ الله عنهم الشئ الكثير و هذا من جملته
 و اذا تتلى على مشركى مكة الذين هم العمدة فى الشرك آيات القرآن
 بعنوان انها معجزة محمد بن عبد الله قالوا قد سمعنا ولكن ليس ما
 سمعناه معجزا لو نشاء لقلنا مثله لكنهم لم يقولوا ذلك حتى بعد تحدّى
 القرآن لهم مرّات و مرّات و اللّاج دائما يقول مثل هذه المقالة و يتهم
 الشئ الثمين السمين بأنه منتحل و انه لا شئ و انه اسطورة لا وزن له
 و اذكر يانبيّ الا سلام للناس ما كان يقوله هو لاء الجهلة اذ قالوا اللهم
 ان كان هذا القرآن المؤيد لمحمد هو الحقّ الثابت و الصدق السدى
 ما فيه شوب و لاشبهة فاجعل علامته ان تمطر علينا حجارة من السماء او
 تأتينا بعذاب اليم حتى نصدق به و هذا السؤال لا يقوله الآ الجهال

بمعناه فان العاقل لا يطلب من ربه عذابا ليستدل به على صدق من يدعى نبوة او امامة ثم ابان الله لنبيه انه انما لم يستجب دعائهم بما طلبوا لأن الله حكم على نفسه احتراماً لمقامك ان لا يعذب جيلك و انت حتى قائم فيه ولا يعذبهم وهم يتذرعون بالأستغفار، ثم قال سبحانه لولا ذلك العهد الذى اخذه على نفسه لكان القوم مستحقين للتعذيب بصدّهم عن المسجد الحرام الذى هو محلّ عبادة لا مكان كسب و انتفاع فقد كانوا يؤذون فيه المصلين المتقين المؤمنين بالله دون الأصنام و ما كانوا اولياء المسجد لأن الذى يلى امر المسجد يجب ان يكون مؤمناً بالله وحده و لكن اكثرهم لا يعلمون ان الجمع بين الشرك و ادعاء ولاية المسجد جمع بين متناقضين .

* (و ما كان صلاتهم عند البيت الا مكاءً و تصديّة

فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) *

الصلاة فى اصل اللغة الدعاء و فى عرف الشرع الهيئة المخصوصة بأفعالها و اذكارها المنصوصة و المشركون فى بيت الله ما كانوا يعرفون واحدة من الصورتين فلا الدعاء اللائق بمقام المعبود كانوا يقومون به و لا هذه الصلاة المشروعة يعرفونها بل كانت صلاتهم عند البيت من اقبح صلاة تتصور صغير بالأفواه و هو المكاء و صفق بالأيدى و هو التصديّة و يضيفون الى ذلك التعرّى فكانوا يطوفون بالبيت عراة و هو لاء يقال لهم يوم القيامة ذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكفرون بآيات الله و نظمه .

* (انّ الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون : و الذين كفروا الى جهنّم يحشرون : ليميز الله الخبيث من الطيّب و يجعل بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنّم اولئك هم الخاسرون) *

ان العقائد القائمة فى النفس و الرغبات المهيمنة عليها تدعو صاحبها الى ان يبذل فى سبيل تحقيقها مساعيه بكافة انحاءها فمن قدم يمشى به ويد يبطش بها و درهم يبذله مكافحا منافحا ومن مصاديق ذلك كفرة قريش فى الطليعة من كفرة الجزيرة فأنهم لم يألوا جهدا فى مبارزة السبى و مناجزته فقد شهروا فى صدّهم عن سبيل الله كل سلاح كان يمكنهم استعماله فالتهريج عليه لسانا و دعاية من ناحية و اعمال السيف من ناحية ثانية و بذل المال فى تعقيمه و عدم تأثيره فى مرحلة نهائية و اليهم تشير الآيات المذكورة حيث تقول ان الذين كفروا برسالة السماء ينفقون اموالهم العزيزة عليهم لأرضاء ميولهم بالصدّ عن سبيل الله لأنّ نفوسهم لا ترغب هذا السبيل فتتهوى ان لا يسلك نعم انهم سينفقونها و يكون انفاقها حسرة عليهم لأنهم لم يستمتعوا بهذا الانفاق و انما ارضوا به تنزيات انفسهم و ما يتقاضاه منهم حسد هم لا اكثر وليت ان ذلك تمّ لهم اثمارة بل سينقلبون خاسرين لموقفهم و سيغلب ايمان محمد شركهم و بالعاقبة يحشرون الى جهنّم و انما يفعل الله بهم ذلك ليميز الخبيث من الطيّب و يجعل الخبيث بعضه فوق بعض فيركمه و يصيره كتلة واحدة فيسدّ به فراغ جهنّم و اولئك هم الخاسرون الذين

خسروا كل شيء في الدنيا والآخرة .

* (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين : وقتلوهم

حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله فان

انتهوا فان الله بما يعملون بصير : وان تولوا

فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى و نعم النصير) *

لم يؤيس الله سبحانه الكافرين من رحمته مادام ميدان الأيمان مفتوحا امامهم فوظف نبيه ان يقول لهم ان جذيم ايدكم مما انتم عليه من الكفر و انتهيتم عن مبارزتم للأيمان بل انحسرتم مع طبقات اهله فان الله يغفر لكم ما قد سلف من سيئاتكم بحضرته و اما اذا عدتم للحرب و عاودتم المشاقة لله و الرسول فقد مضت سنتنا مع الأولين من آباءكم و غيرهم من الكافرين حيث انتهى الدور عليهم فغلبوا و ماتوا كافرين فخسروا صفقة دنياهم و أخراهم وهو خسران واضح ، و قاتلوهم ايها المؤمنون حتى تنظفوا الجو منهم فلا يكونوا ملجئا لمذبذب و مكثالمنتهز و مباءة لمتحيز فان بقاء طرف ولو قليل من الكفر مما يهدد بالخطر فقاتلوهم حتى لا تكون فتنة يفتتن بها الانسان لانه يرى في مقابل الايمان كفرا و في مقابل المؤمنين مشركين هذا يدعوه و ذاك يستميله و حتى يصفو الجو كله لله فلا ملحد به و لامشرك فان انتهوا عن الصد لسبيل الله و دخلوا في غمار المؤمنين فان الله بما كانوا يعملون بصير وهو اعرف بما يسلكه معهم في ماضيهم من العفو عنهم مرة او مؤاخذتهم عن بعض دون بعض و ان تولوا معرضين عن دعوتك لهم الى الأنضمام مع المؤمنين و اصرّوا على شركهم و معاندتهم و مناهضتهم فاعلموا ايها

المؤمنون ان الله هو الذى يتولاكم بالنصرة و الأعزاز وهو نعم المولى
و نعم النصير .

و اما موقف الانسان فى هذا الزمان المتضارب فهو موقف فيه
من الحرجة ما لم يعرفه فيما مضى من الزمان فان الادوار التى لا بسها
لا تعدو ان تقسم الى قسمين :

(١) دور الوحشية فى المادة و المعنى حيث كان الانسان لا يعرف
عقله من ناحية فكانت الفضائل و القيم الروحية و مبادئ الانسانية خافته
فى اوعيتها الغيبية لا يعرف عنها الانسان لا قليلا ولا كثيرا فما كان
يعرف يومذاك سنّ القوانين و طرح النظم و البحث عن العلوم وتدوينها
فكان من ناحية ثمرات العقول افقر الفقراء يعيش كما تعيش البهيمة فلا
فرق بينه و بين دابته الا بمقدار ما تثمره البنية الطبيعية له ولها كما لم
يكن له طريق الى استثمار المادة الا بمقدار ما تلجأه الضرورة لأدامة
حياته كمطاردة الصيود و استنبات ما يمكنه استنباته و استنباط ما يقدر
على استنباطه من ماء و حفر او بناء ما يكتنه عن عوادي الحرّ والبرد وسائر
المزاحمات الطبيعية ، هذا دور للانسان ، وهو دور لا تنكر تعاسته
بالنسبة الى هذا الموجود و ان كان لا يدرك فى حينه هذه التعاسة
و جهله هذا من اعظم النعم كما ان جهل سكنة الاهوار و الصحارى من
اعظم النعم عليهم و ان عاشوا فى زمن الذرة و الفضاء ولو علموا
بمجرورياتهم مما يتمتع به غيرهم مما لهم فيه سهم كالثروات الطبيعية
المشتركة لجنوا جنونا حادا .

(٢) دور التمدن العظيم الذى ابدعت فيه العقول الصناعية كل
شئ حتى اسرفت فى الابداع و قادت الى التفاهة فى كثير من الأشياء
التى ليست بحاجة الانسان اصلا اذ لا ربط لها بمأكله و مشربه و مكّنه

وحلّه ومرتجله و تعليمه و تعلّمه و هذا الدور يعتبره اهله من اعظم النعم على العالم و انه فى اعلا مراتب الاعجاز حيث استولى الانسان على الطبيعة و استخدمها لصالحه بما لا يستطيع أن يأتي على نعمها استعمالا لخرافتها و كثرتها .

لكنه و يالأسف يراه البصير العارف الناقد أتعس الدورين على هذا الانسان البائس فان متع هذا الزمان العلمية و العملية يحتاج الاستمتاع بها للعموم الى عدالة شاملة و نظم صحيحة و توزيع موزون و انسانية طالعها بفضائلها بمقدار ما تهيأ للانسان من مادة متسعة و مع كما التأسف كل ذلك مفقود و العدالة الاجتماعية و اخواتها التى اوأنا اليها من انسانية و وجدان اطاح بها تنكّر الانسان لعقله المثالى زاعما انه حيوان لا اكثر و ان كلّ ما قيل فى حقّه من لزوم الايمان له و قيام الوجدان به وهم لا اصل له و هذا المعنى افقده كل خير يتنعم به فمن جرّاه صار خائنا يستنقص ما سواه و من سواه ولا يحسب لغير نفسه حسابا ولا شكّ انّ توزيع النعم على الناس يحتاج الى ايمان و وجدان و الآجاء الأستبداد و الاستبداد له اثره البليغ فى المستبد و من يستبدّ به فترى الطرفين فى تعب و جهد لمحاولة كل منهما الأطاحة بقبيله و هذا ماتراه الأعين بكل احداقها ولا تستطيع له حلا و ما حلّه الآ بنزع هذه العقيدة الساقطة من ادمغة اهل هذا العصر و احلال عقيدة الايمان و الوجدان مكانها و ذلك لا يكون الآ بمبارزة هذه العقائد الحيوانية الضارية التى اكلت الناس و سرت الى افساد الجميع حتى اصبح كل احد خائفا من هيضة الزمان به و بذراريه و بلده و مملكته بل و عامّة الكون ومع الأسف اننا نرى الناس يركضون امام هوءلاء الانتهازيين مؤذنين لخطاياهم محرومين منهم زاعمين انهم اذا لم

يركضوا امامهم يسقطون عن القيمة الى الأبد فهم يرون الزيف امام
هؤلاء^٤ من اللباقة و اقتناص الوقت .

* (واعلموا انما غنمتم من شىء^٤ فأن لله خمسته وللرسول

و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن

السبيل ان كنتم آمنتم بالله و ما انزلنا على

عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان و الله

على كل شىء قدير) *

الغنيمة فى متفاهم العرف هى ما كانت نتيجة لانتصار الغالب على
المغلوب و سيطرته على مامعه من مال و حيوان و أسلاب لكن الشرع
خصها بالحرب المشروعة و يرى اهل البيت عليهم السلام ان الغنيمة
اوسع من ذلك وهى كل مال دخل على الإنسان من طريق الكسب
المشروع كغنائم دار الحرب و ما استفيد بالغوص و المعدن و الكنز
و ما زاد من الأرباح على مؤنة السنة للكاسب اما قسمة الخمس عند هم
فستة اقسام سهم لله و سهم للرسول و سهم لذى القربى و هذا السهم
الثلاثة للنبيّ فى حال حياته و للأمام الشرعى من بعد وفاته و يقال لها
فى عرف المتشعبة بعد موت النبيّ (ص) سهم الامام و السهم الأخرى
لليتامى و المساكين و ابن السبيل من بنى هاشم و ذلك لمن انتسب له
من طريق الأب و المسكين و ابن السبيل يلزمهما من عنوانهما الفقر لان
المسكين لا يطلق على من يملك قوت سنته كما لا يطلق ابن السبيل على
مسافر و اجد للزاد و الراحلة و النفقة فيبقى فى الميدان عنوان اليتيم
الذى هو فاقد الأب قبل بلوغه و مثل هذا يجوز ان يكون مؤسرا بما ترك
له ابوه من مال فهل يعطى من الخمس وهو مؤسر او يشترط فيها الأعراس

كلام للفقهاء فى هذا المجال فهذه الوظيفة المذكورة فى الآيه محتمة على المؤمنين بالله و المؤمن بما انزل الله على عبده نبيّ الاسلام يوم الفرقان وهو يوم بدر الذى فرق بين الموحد و الملحد و المسلم و المشرك ذلك اليوم الذى التقى فيه جمعا المسلمين و المشركين و الله على كل شىء من اعزاز و اذلال و غيرهما من كل مقدور قد ير لا يعجزه شىء .

* (اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى

و الركب اسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى

الميعاد و لكن ليقضى الله امرا كان مفعولا

ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيّ عن

بينة و ان الله لسميع عليم : اذ يريكمهم الله فى

منامك قليلا ولو اراكمهم كثيرا لفشلتم و لتنازعتم

فى الأمر و لكنّ الله سلّم انه عليم بذات الصدور

: و اذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلا

و يقللكم فى اعينهم ليقضى الله امرا كان مفعولا

و الى الله ترجع الأمور) *

العدوة بضمّ العين جرف الوادى و شفيره و الدنيا مؤنث الأدنى

و الأدنى هو القريب و القصوى مؤنث الأقصى و الأقصى هو البعيد و قرب

العدوة انما هو بالقياس الى جهة المدينة و على هذا المقياس بعدها

و الأسفل هو الأحطّ مكانا و المواعدة هى التبانى على وقت خاص فى

مكان خاص و البينة الحجة و الفشل هو الأخذال عن نيل المقصود .

و الآيات تشرح الموقعية الحربية لبدر و الصورة التى طلعت بها ،

و مفادها اذكروا حين انتم يا جماعة المسلمين فى جرف الوادى الأقرب

الى مد يديتكم و مشركوا مكة قد قابلوكم على العدو القصى من الوادى وركب ابى سفيان اسفل منكم قد ساحل به البحر و كان التقاء بعضكم لبعض فى المحاربة لا عن مواعدة جرت بينكم بل انتم جئتم لعير ابى سفيان وهم جاؤا لحمايته فكان من ذلك أن التقيتم ولو انكم كنتم على ميعاد لاختلفتم اى لما حصل منكم تواف على الموعد و لكان التخلف منكم لعلمكم بأنهم اكثر منكم عددا و اقوى عدّة و لكن تهيأت لكم الحرب عفوا ليتحقق ما اريد فى علمنا تحقيقه وهو انتصاركم عليهم و انخذ الهم عنكم و ليعيش من عاش من الطرفين عن بيّنة قائمة وهى البراهين على حقّية الاسلام و بطلان الشرك و يهلك من هلك من الطرفين عن بيّنة ايضا و انّ الله لسميع ما تقولون من حق و باطل عليهم بمنوياتكم من حق و باطل ايضا .

ثم توجه سبحانه الى النبىّ (ص) فقال و اذكر حين يريك ربّك مشركى قريش فى النوم قليلا يعنى اخذتك اغفائة فأريت القوم بخارطة صغيرة جسّمت الواقع الكبير بصورة مصغرة حتى تهون عليك ولو انه تعالى اراك القوم بصورتهم المبسوطة من كثرة العدد و قوّة العدة لحصل فيكم انخذال عن مواجهتهم و لتنازعتم فى الخروج اليهم فبعض يرضى به و بعض يتلأأ عنه و لكن الله سلّمكم انتم ايّها المسلمون انه عليم بذات صدوركم بأنكم تريدون دگهم و تخافون مواجهتهم .

ثم توجه تعالى الى المسلمين فقال و اذكروا حين يريك القوم عند ما التقيتم للقتال قليلا يعنى زوى بصاركم عن أن تعانين مطمّناتهم و ما معهم من افراد و سلاح و كراع حتى تستهدفوا مقابلتهم كما وقد قللكم فى اعينهم بأن لم يحسبوا لكم حسابا حتى اقدموا عليكم من دون ان ينشطوا امورهم اكثر ممّا كانوا عليه فعل كل ذلك ليوجب فى الخارج امرا اراد تثبيته .

وهو نصرتم عليهم و انكسارهم بين يدكم و الى الله ترجع الامور كلها
هينها و صعبها .

* (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا و
اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون : و اطيعوا
الله و رسوله ولا تنازعوا فتفشلوا و تذهب
ريحكم و اصبروا ان الله مع الصابرين : ولا تكونوا
كالذين خرجوا من ديارهم بطرا و رياء الناس
و يصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط

طبعا المراد بالفئة التي يقابلها المؤمنون هي الفئة التي يجوز
قتالها للمؤمن ولا تكون زمن النبوة الا واحدة من اثنتين اما فئة كافرة واما
فئة منافقة و على كلتا صورتين يجب ثبات المؤمن امامها حتى يكون
الايان هو الغالب على الكفر كما يجب عليه ان يذكر ربه بطلب النصر
و تثبيت الأقدام لعله يفلح في معركته و يجب على المجاهد تحت لواء
الله و رسوله ان يمشى على ضوء قيادتهما حتى لا يخسر المعركة وان لا
يتنازع المؤمنون بعضهم مع بعض شؤون القتال بعد وجود النبي (ص) بين
اظهرهم فانهم اذا جفوا نبينهم و تنازعوا فيما بينهم فشلوا قطعوا و هبت
ريحهم وهو كناية عن عزتهم و دولتهم و اصبروا يا جماعة المؤمنين على
الشدائد فان الله و النصر و الظفر مع الصابرين ، انتم ايها المؤمنون
لا كسائر الناس فان رائدكم الايمان و سائقكم خلوص النية و هد فكم اشاعة
العد لفي البلاد فلا تكونوا مثل كفار قريش حينما خرجوا من مكة بعد ان احرزوا
عيرهم و نجابها ابوسفيان هد فهم التشهير بصوتهم و انهم يبارزون كل احد ولا
يبالون به و لذلك خرجوا و انضموا لأخوابيهم و القيان تغنيهم ساخرين

من الله و من كل من آمن به غافلين عن ان الله محيط بجميع ما يعملون
و سيلقون نتيجة استهتارهم .

* (و اذ زين لهم الشيطان اعمالهم و قال لا غالب

لكم اليوم من الناس و انى جار لكم فلما تراءت

الفئتان نكص على عقبه و قال انى برىء منكم

انى ارى ما لاترون انى اخاف الله و الله شديد

العقاب) *

هذه الآية من تتّمات الآيات التى تعرضت لوقعة بدر و مفادها
و اذكر للناس يا محمّد حين زين الشيطان لمشركى مكة اعمالهم ، يجوز
ان يراد بالشيطان الشيطان المعهود و انه تبدى لهم كما ورد فى
الأثر فى صورة سراقه بن مالك الكنانى و كان من معاريف كنانة و قال لا
غالب لكم اليوم لما تملكون من عدد و عدّة و صيت ذائع و انا و قبيلتى
ردء لكم فلما تراءت الفئتان المشركون و المسلمون و رأى الشيطان
الملائكة جاءت مقوية لجانب الاسلام و نبيه تراجع الى الورا عن مشركى
مكة و قال لهم انا الآن اتبرأ منكم فأنى ارى من الوضع ما لاترون انى اخاف
الله خوف ضعيف من قوى لا خوف تقوى و نزاهة و الله شديد العقاب
متى اراد المؤاخذة ، كما يجوز ان يراد بالشيطان تسويلات النفس
و هيضاتها بمعنى ان قريشا لما عاينت الى انفسها و ما يحتفّ بها من
مساعدة الوقت عزّ ظاهر و صيت ذائع و قدرة مالية و كثرة فى الأفرار
و السلاح و من جانب مقابل تعرف ان طرفها وهو نبيّ الاسلام ضعيف
و ان اتبعه افراد فهم ضعفاء مثله و لا سابقة له بحرب غلب على اذنانها
انها لا تغلب اليوم من ناحيتكم و ان من تعرف من العشائر المناوئـة

لطريقة محمد رء لها فلما التقى الخصمان فرادى و جماعة خابت تلك
الظنون و وجدوا أنهم فى مقابل اعداء اشداء لا كما توهموا فنكصت
امانيهم على اعقابها و تبرت من تسويلاتهم لأنها ترى من المسلمين
عملا لا تراه عيون المشكرين من قلة عدد هم و ضعف عدتهم و خوف الله
هنا كما اسلفناه فى الاحتمال السابق ضعف فى قبال قوة و انما نسب
الخوف من الله لا من المسلمين لانه تعالى مصدر دعوتهم و مناط
زعامتهم و ان القوى متى تسلط على خصمه شدد عليه عقابه .

* (اذ يقول المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض
غر هؤلاء دينهم و من يتوكل على الله فان الله
عزيز حكيم : ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا
الملائكة يضربون وجوههم و ادبارهم و ذوقوا
عذاب الحريق : ذلك بما قدمت ايدىكم و ان
الله ليس بظلام للعبيد) *

و هذه الآيات من تنمة سوابقها و مفادها و اذكر للمؤمنين يا محمد
اذ يقول المنافقون الذين يحتكون بالاسلام و المسلمين احتكاك تظاهر
و تدليس و قوله و الذين فى قلوبهم مرض يجوز ان يكون بيانا للمنافقين
كما يجوز ان يكون تعبيرا عن حالة اخرى اخف من الأولى فيعتبر المنافق
من كان فى باطنه كافرا قحا و الذى فى قلبه مرض هو الشاك يقول
هوؤلاء عندما شاهدوا المسلمين القليلين فى عدد هم الضعفاء فى
عدتهم الفاقدين لمؤنة حربهم يخرجون الى قريش اولى الحول و القوة
و الصوت غر هوؤلاء المساكين فى خروجهم الى الموت الأحمر دينهم و
تشجيعاته الكاذبة ولا يعلم هوؤلاء المنافقون و من فى قلوبهم مرض ان

التوكل على الله له اثره الفعال فان الله المتوكل عليه عزيز منيع لا تقاويه
قوة حكيم في افعاله كلها و في اقواله ، ولو ترى يا محمد ان يتوفى
الذين كفروا الملائكة فحينما يقومون بنزع ارواحهم يضربون و جوههم
و ادبارهم اى من خلفهم و امامهم استخفافا بهم و يقولون لهم ذوقوا
عذاب الحريق المعد لكم و انما تجزون هذا الجزاء المر بسبب ما قدمته
ايدىكم فى الدنيا الى نشأتكم فى الآخرة و ان الله لم يتعد عليكم فى
ذلك بل هو ما يوجبه العدل .

* (كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كفروا بآيات

الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوى شديد

العقاب : ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمته

انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان

الله سميع عليم : كدأب آل فرعون و الذين من

قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم

و أغرقنا آل فرعون و كل كانوا ظالمين) *

الدأب العادة و الدين و التشبيه مفاده ان عناد مشركى مكة

فى الكفر و اصرارهم على التكذيب بآيات الله كدأب آل فرعون و من سبق

آل فرعون فى ذلك و آل فرعون هم قومه المنزلون منه منزلة الأهل فى

القرب منه و الأتباع له و كما اخذ الله آل فرعون و من قبلهم بسبب

ذنوبهم كذلك فعل بمشركى مكة فى وقعة بدر و غيرها ان الله قوى

لا يتحداه احد الا و هلك شديد العقاب لمستحقه لا يصانع و لا يجامل

، ذلك ، رابط للمعلول وهو عقابه و اعمال قوته بعلمته وهى ان هو لا

الأقوام و من اتخذ طريقتهم و سلك مسلكهم غيروا ما بأنفسهم مختارين

فغير الله نعمته عليهم بعكسها وهى النعمة والأطاحة والأهلاك وقد يحسب الانسان ان كلامه فى الدس والتخريب لا يسمعه الله لزمعه انه ليس بحاضر معه كما حركاته عن رمز وخفاء لا يحيط بها علما لأيقاعها تحت ستار من المداجاة ولكنه مخطأ بزعمه لانه تعالى يسمع كل مسموع ولو كان همسا من طريق علمه به و يعلم ما تتبطنه سويدا القلب لانه محيط بكل ما خلق و من جملة ما خلق دقات القلوب .

وقوله تعالى فى الآية الثالثة من هذه الآيات كدأب آل فرعون يريد به شرح الآية الأولى و توضيحها و ابانة ان التكذيب بالآيات قسم من اقسام الكفر و نوع من انواعه و ان الأخذ بالذنب ليس منحصر بالآخرة بل قد يكون فى الدنيا كأغراق آل فرعون فى البحر لما كذبوا بآيات الله ، و كل من آل فرعون و الذين من قبلهم و مشركى مكة كانوا ظالمين لأنفسهم لا يريدون بها الخير ولو ارادوه لا تبعوا رسل الله الذين لا يتفاضون منهم الا الأستقامة التى تضمن لهم السعادة لا للرسول لأنهم سعداء فى انفسهم ولا لله لانه فى اعلا مرتبة من الكمال .

* (انّ شرّ الدّوابّ عند الله الذين كفروا فهم
لا يؤمنون : الذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون
عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون) *

ما زال الله يكرّر اطلاق الدوابّ على الكفرة و يتحاشى إطلاق ذلك
على المؤمن و سرّه ان الكافر لما اعطى موحيات عقله من يده صار هو
و الدابة على حدّ واحد فان مائز الانسان عن دابته عقله فاذا ذهب
هذا الميز سقط عنوان الانسان عنه ، وقوله فهم لا يؤمنون و صف يفيد
استمرارهم على الكفر و اليأس من ايمانهم ، و قوله الذين عاهدت من
صلة الآية الأولى و بمنزلة وصف ثانوى للذين كفروا و مفعول عاهدت
محذوف تقدير عاهدتهم و من للتبعيض بمفاد ان الذين عاهدتهم من
الذين كفروا ثم ينقضون عهدك عند كل فرصة تسنح لهم فى كل مرة من
مرّات المعاهدة و لا يخافون ذمّ الخيانة و الغدر و لاعواقبهما هم شرّ
الدوابّ عند الله لان الصفات التى يتحلون بها صفات بهائم لاصفات
عقلاء و من مصاديق ذلك يهود بنى قريظة فأنهم كانوا قد عاهدوا
النبي (ص) على ان لا يريدوه بسوء و لا يمالئوا عليه ثم مالئوا عليه احزاب
قريش فى واقعة الخندق الى غير ذلك .

* (فأما تثقفنهم في الحرب فشردّ بهم من خلفهم
 لعلهم يذكرون : وأما تخافنّ من قوم خيانته
 فانبذ اليهم على سواء انّ الله لا يحب الخائنين) *

يقال ثقفه بمرمحه اذا ادركه و نظمه به و ضمير المفعول في تثقفنهم
 يرجع الى الناقضى العهود من يهود، وغيرهم و مفاد الآيتين انك يا
 نبيّ الاسلام اذا تمكنت من هؤلاء الخونة الغدره فأوقع بهم ايقاعا يكون
 عبرة لمن بعدهم ممن اتخذ او يتخذ طريقتهم حتى لا يمتنوا انفسهم
 بهذه الأمانى الفاسدة و حتى يتذكروا ما حلّ بمن سبقهم ممن عاهد
 فغدر بعهدده و اذا كنت يا نبيّ الاسلام قد اعطيت من نفسك موثقا
 وعهدا لكتابتى او لغيره واحسست في نفسك منهم الغدر فلا تناجزهم
 القتال الآ بعد ان تبلغهم انهم لا عهد لهم و بعد اعلامهم بذلك
 يجوز قتالهم حتى لا تكون خائنا لعهدك فأن الله لا يحب الخائنين
 وعلى هذا فمعنى شردّ بهم اعمل عملا في السابق يشرد بسببه اللاحق
 عن مجاراته في ذلك العمل و معنى فانبذ اليهم على سواء قدّم لهم
 الأخطار على عدل تعامله معهم لانك اذا ناجزتهم القتال على غرّوق كانت
 لك سابقة عهد تكون قد ظلمتهم .

* (ولا يحسبنّ الذين كفروا سبقوا أنّهم لا يعجزون
 : واعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة و من رباط
 الخيل ترهبون به عدوّ الله و عدوّكم و آخريّن
 من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم و ما تنفقوا
 من شىء فى سبيل الله يوفّ اليكم و انتم لا
 تظلمون : و ان جنحوا للسلم فاجنح لها
 و توكّل على الله انه هو السميع العليم) *

الحسبان هو الظنّ و الأعداد هو التهيأة و ربط الخيل اقتناؤها
 لوقت الحاجة و الأرباب هو الأخذ بالعين هيبة و الجنوح هو الميل
 و السلم ضد الحرب، ترتبط هذه الآيات بالكفار يقول الله لا يظننّ
 الذين كفروا ولم تنلهم يد المؤمنين بعد أنّهم سبقوا الله اى فاتوه
 و سلموا فان هؤلاء الظانين هذا الظن ان سلموا اليوم فانهم غير
 معجزين لله فى غد ، ثم توجه سبحانه الى المؤمنين حاثا لهم على ما به
 عزهم و بقاؤهم فندبهم الى الأعداد للكافرين ما استطاعوا من قوّة و من
 رباط الخيل فان اعداد ذلك يرهب الكفار اعداء الله و اعدائكم ويرهب
 آخريّن من غيرهم بهم اولئك المنافقون الذين ينسجمون فى الظاهر مع
 المسلمين فيصان بصلاتهم و يتظاهرون بالصوم و نحو ذلك و لكنهم فى
 الباطن اعداء فادوا و جدوا فيكم العزيمة و النشاط خافوكم من
 اعماق قلوبهم و كل شىء تنفقونه فى هذا السبيل فأنه يوفى اليكم
 القيامة و قد تنالون عوضه فى الدنيا و لا تظلمون شيئا من اتعابكم
 الجسمية او نفقاتكم المادية ، و يارسول الله ان جنح الكفار لمسالمتك
 فسالمهم و هذا ثابت لأهل الكتاب و اما المشركون فقتالهم واجب على

كل حال و توكل على ربك فى اعمالك كلها انه يسمع كلامك و يعلم بمرامك
 و فى الخلاصة حياة اية امة تفرض لا بدّ فيها ان تقوم على ثلاث
 دعائم (١) ايمان بمبدأ صحيح (٢) تشعشع علمى مثمر (٣) قوّة داعمة
 ساهرة دامغة لمن يريد ها بسوء ، و متى طاحت دعامة من هاته الدعائم
 الثلاث اختلّ توازنها بالأدلة التالية :

(١- ايمان بالمبدأ الصحيح) لا يستطيع ان يعيش البشر مفوضا الى حرية
 اهوائه و ميوله فان اهواء الانسان نزعات تنزل به حتى عن كيان الحيوان
 مثلا اناث الخيل و ذكرانها انما تهيج بها شهوة الجنس متى ارادت
 اللقاح فاذا لقحت اعتزّت الأنثى بنفسها و زمّ عنها الفحل بانصراف من
 نفسه اذ لا يجد لجنسيته مجيبا اما الانسان فهو كسابقه فى جنسيته
 و انما يزّمها او يهيجها عاملان اما ورع و تقوى فتزّم او تسيّب و اهمال
 فتتهيج فمن ثمرات الايمان بالمبدأ الصحيح انك ترى الأنثى المؤمنة تزّم
 بنفسها عن دواعى الشهوة حتى يتيسر الموضوع اللائق و الزوج الموافق
 و بمثلها ترى الرجل ايضا اما النازع لنفسه من رغبة الايمان فتراه
 يراكم بعضه بعضا قبل بلوغ الأشدّ و بصورة قاسية مزعجة تثير العجب
 فى كثير من صورها و هذا ما نراه و رأيناه بأعيننا فى عصر حكومة الايمان
 على اهله و عصر انفلاته فى العقيدة كما هى شارة العصر الحاضر الذى
 بلغ اقصى مبالغ الرذالة و السقوط فى الامور الجنسية و هذا المطلوب
 واحد من الوفاء المبادء التى تقتزن بحياة الانسان .

(٢- التشعشع العلمى المثمر) و الجهل رأس المحرومات
 و الخطيئات و ابو كلّ منقصة و ذلك لان الجهل بالمضّر و بالنافع سبب
 للوقوع فى الأوّل و المحرومية من الثانى و ما شأن الانسان الذى يقع
 فى المضارّ و يحرم من المنافع الاّ الدمار و هذا بطور مجمل و اما تفصيله

فان الانسان بين معنوياته و مادّياته يحتاج الى مرشد يرشده حتى لا يهوى ولا يغلب ولا يستعمر او يستثمر واغلب الاستثمارات والاستثمارات ناتج عن الجهل فيمن يدوسهم الاستعمار والاستثمار وذلك لان الجاهل لقصور توجهه يخدع بأحاد يث الشيطان اللبِق و اوعاده المعسولة و حديثه الناعم و سرعان ما يعطى رسنه للمخادع و اذا اخذ المخادع الرسن من يده فمن المستحيل أن يعيده الى يده الا بعد اللتيا و التي هذا من ناحية معنوياته و اما مادّياته فمن المستحيل صلاحها الا بالعلوم التي تفتق بها حواجز الطبيعة و حجبها ليتصل من ذلك بمكنوناتها كما يرى ذلك فى هذه العصور الناهضة بصنعتها القائمة بأنتاجها .

(٣ - القوة الداعمة الساهرة) البشرية و مهما فرض لها الكمال فأنها لا تعدم الا شرار و المتفلتين اولئك الذين يتدعون لمنوياتهم بكل حول يستطيعونه فى اغتصاب حقوق الناس و الاستيلاء على اموالهم و نواميسهم فلا بدّ للمجتمع من اخذ الحائطة التامة لك هـؤلاء و سحقهم و محقهم فكيف و ما ذكرناه من الكمال للجامعة فرض مجرد فأن كملّ البشرية محدودون محدودون فى كل الأدوار فلا بدّ لهؤلاء الكملّ من تحصين و للباقيين من حفظ و ذلك لا يقوم الا بأعداد القوة الكافية و لما لمست الدول خصوصا فى عصرها الحاضر أنّها لا تستطيع ان تحفظ كيانها الا بأعداد القوى سهرت على ذلك حتى ادّى بها اعداد القوى الى الأسراف و حتى اعداها ذلك الجنون الخارج عن حدود المنطوق و حدود المألوف فصارت تخلق المناوشات و المناضلات بين الناس الساكنين الآمنين .

و بعد أن احطناك علما بهذه المقدمات الثلاث فهلم بنا الى

تطبيق ذلك علينا نحن الأمم المسلمة لنقف على دواعى ضعفنا بعد عزتنا وانهيارنا بعد تماسكنا وانحاقنا من الوجود بعد ظهورنا وطلوعنا .
 (أما الايمان الصحيح) فلا مبادء اصح من مبادء الاسلام لأن ما سوى هذه المبادء مجموعة اضاليل ركمتها ايدى السوء فأطلعتها ووصلت بها الى هذه السمة المخزية التى تبرأ منها حتى المنسوبون لها فهاته المسيحية و اليهودية اليوم اسماء خالية عن كل مغزى فأحر بما سواها من بوذية و زردشتية و هندوسية ان تكون لاشىء بل اضر شىء و أما المبادء الارضية فهى مجموعة ميول و اهواء يقصد منها استغلال الناس نوعا ، و يجب ان نرجع بمبادء الاسلام الى ما كان فى صدر الاسلام و ذلك مصون ببركة حفظ القرآن من الزيادة و النقصان و هذه المبادء الصحيحة لما كان اهلها واقعيين معها فازوا و سعدوا و خرجوا من كل عار و دخلوا فى كل عزة و لما انحرفوا عنها واقعا و جاملوها مجاملة تافهة شقوا و ذلوا حتى تطوّر بهم الوضع الى ان و ادعوها تماما و انقلبوا كفرة بكل شىء من المقدسات و مع ذلك لم يعزّوا ولم يسعدوا وان حاولوا بكفرهم بالمبادىء نيل العزّة المفقود و تحصيل الكرامة الذاهية وبالآخر ادركوا انها محاولة فاشلة و لات حين مناص .

(واما التشعشع العلمى المثمر) فقد كان فى العصور الزاهية للأسلام و فى طليعتها صدر الاسلام ذا بريق و لمعان و يكفيك منه ما احتوى القرآن عليه من نتف علمية جليلة فى كافة المجالات المعنوية و المادية و لأصالة هذه العلوم تلمذ الغرب عليها آمادا بعيدة و للآن يستمتع الغربيون بالأصيل منها و لكن هذه الروح العلمية المتشعشة اخذت تتهافت و يحلّ محلّها القشرى كالاهتمام بالأدعية و الطلاسم و سرد المعاجز المخلوقة و الكرامات المكذوبة و ما الى ذلك من اكاذيب

و اضاليل فى اكثرها و انما استغلّها من استغلّها ليتاجر بها و يقتنص عوام الناس هذا من الوجهة المعنوية من العلوم و اما العلوم الرامية الى الصنعة فبعد ما كان فى المسلمين كيمايون و جغرافيون و اطباء و مهندسون من انفسهم اصبحوا لا يعرفون من ذلك اقلّ شىء و اكثر ما تنجزه مطابعهم اما تلك الأضاليل التى اشرنا اليها و اما الأدب و الشعر ولا راحة للعلوم الاصيلة الصناعية فى معارفهم و لهذا اصبحوا اصبحوا عالية على الغير حتى فى الملعة الخشبية التى هى ابسط الأدوات الكمالية، و ان احببت ان تقف على فخخة المسلمين فى سابقهم و صنائعهم فاقراً عن تمدن مسلمى الاندلس فضلا عن البلدان الأخرى الاسلامية .

(و اما القوّة الداعمة الساهرة) فنضرب لك عنها مثالا فى صدر الاسلام ان المسلمين لأجل تعزيز موقفهم و دفع من يريد بهم سوء كانوا يخرجون الى سوح المبارزات بجريد النخل يقابلون بها السيوف الحادة و استيقظوا لأعدائهم فى كل احوالهم و حالاتهم و اعدوا لهم كل قوّة مستطاعة حتى اطاحوا بكيان دول عظيمة كالأكاسرة والقياصرة والهراقلة و امتد سلطانهم من اقصى الشرق الى قلب الغرب وهو ملك عقيم فقهرروا و ما قهرروا و لكنهم لما اخلدوا الى الراحة و استناموا الى الذلة اخذوا ينكصون على الأعقاب و تتضيق دائرة عزهم حتى لم يبق لهم مقدار شبر ارض الا وهو مستعمر اما لدولة رأس مالية او شيوعية و حتى اصبح المسلم لا يملك العصا فى بيته يدافع بها الكلاب عن نفسه فضلا عن البندقية و ما فوقها و بذلك خفتت ناره و انطفأت شمعة حياته و بقى من اسمه ما هو عار على من طلع به او اتسم بعنوانه .

* (و ان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو
الذى آيدك بنصره و بالمؤمنين : و آلف بين
قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما آلفت
بين قلوبهم و لكنّ الله آلف بينهم انه عزيز
حكيم) *

ضمير الجمع فى ان يريدوا يرجع اما للكافرين مباشرة بأن يأتوك
يا نبيّ الاسلام و يشبّطوك عن المنازلة بطلب صلح او عدم مناسبة الوقت
و نظير ذلك من الخدع التى تقعد بهمة الانسان و يحاولون من ذلك
توفير الفرصة عليهم حتى يجمعوا عددهم و يوفروا عدتهم فلا تجبهم
الى ذلك و استكف بالله معينا لك و قد رأيت من نصرته الشىء الكثير
و اكتف بثبات المؤمنين من اصحابك ذلك الله الذى بلطفه آلف بين
قلوبهم و قد كان بعضهم يأكل لحم بعض عدا و تنافسا و حقدًا و حسدا
كما كان بين الأوس و الخزرج و كما كان بين العدنانية و القحطانية
و هذا كلّه ببركة لطف الله زال من بينهم حتى صار الأب المؤمن يقاتل
ابنه الكافر او المنافق و بالعكس و قد كان الفرد من هؤلاء يثور لأقل
بادرة تصدر من قبيله على ابعد انسان له فى اللحمة فلولا قوّة الايمان
و لطف صنيع الله بالقوم لو انفقت ما فى الارض جميعا على ان تؤلف بين
الأوسى و الخزرجى ما آلفت بين قلوبهم و هكذا بين العدنانيين
و القحطانيين و لكنّ الله بلطفه و بليغ توجيهه آلف بينهم انه تعالى
عزيز لا يتفوق عليه احد و لا يمتنع منه احد حكيم فى تصرفاته كلّها .

* (يا ايها النبىّ حسبك الله و من اتبعك من المؤمنين : يا ايها النبىّ حرّض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين و ان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون : الآن خفف الله عنكم و علم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مأتين و ان يكن منكم الف يغلبوا الفين بأذن الله و الله مع الصّابرين) *

كما اكدّ سبحانه فى الآيات السابقة على نبىّه ان يستكفى بتحسين ربّه له و بنصرة المؤمنين اياه كررّ ذلك بلحن آخر فقال يا ايها النبىّ لا تكن متشتت البال مغموم النفس فالله الذى ارسلك يكفيك كل مهمّ و هكذا العالقون بك من المؤمنين يساندونك مساندة الشقيق لشقيقه جهد ما يستطيعون يا ايها النبىّ حرّض المؤمنين على قتال الكفرة فأنكم مع ايمانكم الثابت المستحکم ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا عشرة امثالهم ممّن لا يزنون الايمان بشيء فان المؤمن يدعوه الى الثبات المرّاملان (العامل الأوّل) ايمانه بمبدأ قد اخذ منه بمجامع قلبه (العامل الثانى) انه يرى له مستقبلا افضل و اكمل و اجمل لو قتل شهيدا دون مبدئه و الانسان الكافر لا يملك شيئا من ذلك فمن اجله تعزّ الحياة بعينه عزة لا يعد لها شيء و مهما كان و ان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً على ملاك غلبة العشرين للمأتين و علّل سبحانه مغلوبية الكافر للمؤمن بأن الكافر انسان لا يفقه غير حياته الفعلية على ما فيها من هناة و لذلك يجهد نفسه فى المحافظة عليها هذا وقد كنتم فى

أول ايمانكم بالله وبالرسول على فقدان الناصر و تكاثر المكابر المهاتر اقوى بكثير عند ما كثرتم فلا بسكم الضعاف الايمان اولئك الذين لم يردوا الميدان الا لدواعى مرموزة فذلّوا من جماحكم بمقدار ما انقصوا من حرارة ايمانكم فلم يعد العشرون منكم يغلبون المأتين ولا المائة تغلب الألف بل صار اقصى المتوقع منكم ان يغلب الواحد منكم الاثنى عشر منهم بأذن الله و ذلك اذا رابط موقفه و اعلّموا ان الله و الفلاح مع الصابرين و تتلخص فى الآية ثلاث نكات (الأولى) مضمون قوله حسبك الله و من اتبعك من المؤمنين و معنى ذلك هو ارشاد الله لكافة عباده ان لا يغتر الفرد البشرى بكثرة الدوى يكون حوله او المال يحيط به فان كثرة الدوى فضلا عما تستلزم من متاعب كثيرة فى مجاملتها و مداراتها تضيع على الانسان خلصائه و اوفياء اصحابه فى غمار هوء لاء القوم و على فرض ان يشخصهم و يعرفهم بالضبط لا يستطيع ان يوفيهم حقوقهم و مضافا الى ذلك ان الاغلبية فى هذه الكثرة ربما تكسره بدلا من ان تنصره لأنها لما كانت فاقدة للأخلاص فمن الطبيعى فيها ان تنهزم لأدنى بادرة و اذا انهزمت اخلت حتى بموقف الأصفياء لان فرار الجيش كله انما يكون فى الأغلب من اذنا به و اذا أفلت الموقف من ايدى الخلص ذهبوا ضحية له بخلاف ما لو كانوا لخاصتهم من باده الامر فان الموقف لا يتشعب بهم و ان كانوا قليلين لثباتهم فيه و هكذا يقال فى المال فان حراسة ما فيه بلغة و كفاية منه قليلة المؤنة بالنسبة و حسد الناس لصاحبه اقل و الغاية المتوخاة حاصلة منه اذ الزائد لا يعطى غير المضرة من عامة نواحيها سهر متواصل على حفظه و مقاومة للحسدة المناوئين من جهة و حسرات لا تنقضى من ناحيته اذا تلف او غصب او مات الانسان و خلفه ورائه فالعاقل كل العاقل ذلك الذى لا تهزّه

الكثرات التافهة من الرجال و المال بل يختص من الرجال بالأحرار
 و من المال بما فيه بلغته وهو فى نفسه حلال و الى ذلك الأشارة بقوله
 حسبك الله و من اتبعك من المؤمنين ولم يقل من الناس فقرن المؤمن
 بنفسه هو تعالى (الثانية) ان التعب فى التعليم و التهذيب
 و التربية انما يجوز ان يكون مع المؤمن لامع كل احد ذلك لأن المؤمن
 انما يتعلم للعمل و يتثقف لتصفية النفس و يتعرف على الواقع حتى يتصل
 به بخلاف غير المؤمن فى روحيته فانه انما يتعلم للاقتناص و الاستثمار
 و ايجاد النفاق بين الناس (الثالثة) ان روحية المؤمن لذوبانها فى
 الحقيقة لا تكون الا ثابتة و لذلك يراها الله كما هو الحق انها تغالب
 عشرة اضعافها فتغلبه بخلاف روحية العاديين فأنها ربما ترعب بالدوى
 فضلا عن المقابلة و المجادلة •

* (ما كان لنبيّ ان يكون له اسرى حتى يثخن فى

الأرض تريدون عرض الدنيا و الله يريد الآخرة

و الله عزيز حكيم : لولا كتاب من الله سبق

لمسّمكم فيما اخذتم عذاب عظيم : فكلوا ممّا

غنمتم حلالا طيبا و اتقوا الله انّ الله غفور رحيم) *

يقال اثخن فى الشىء اذا توسّع فى رقعته بالتأثير فكانت آثاره كثيرة فيه و مفاد ذلك من الآية ان الحرى كان فى اسرى بدر هو القتل قطعاً لشأفة عتاة الشرك و استئصالا لهم حتى لا يمتنوا انفسهم بالقيام فى وجه الدعوة الإسلامية و النبىّ كان من نظره ذلك الاّ ان الأغلب من اصحابه احبّ مفاداتهم ليستفيدوا من اموالهم فأنبهم الله على ذلك بقوله ما كان لنبيّ مبارز مناجزان يكون له اسرى يبقون احياء و يفادون حتى يثخن فى الأرض و يتوسّع فيها و يتسع فيها اثره حتى تكون له شوكة يخافها عتاة الجهل ورائدوا الكفر و انتم يا اصحاب محمّد تريدون عرض الدنيا و متعها لكنّ الله يريد الآخرة و احكام امرها لأهلها و الله عزيز يحبّ العزة لكم و عزتكم باحترام الناس لكم و خوفهم منكم و ذلك لا يكون الاّ بالمفاداة حكيم حيثما امر و نهى و لولا كتاب سبق عن الله بأنه لا يعذب احدا حتى يتمّ عليه الحجة و لم يسبقكم بتحريم الأسر و الفداء قبل موقعة بدر لمسّمكم فيما اخذتم من فداء الأسرى و اطلاقهم من بعد ذلك عذاب عظيم ، فكلوا - امر اباحة - ممّا غنمتم حلالا طيباً سائغاً لكم لانه بأسيا فكم حصل و انتسب الى اناس تحلّ دماءهم و اموالهم لعتوهم و طغيانهم امام الحق و اتقوا الله بتجنب معاصيه ان الله غفور لذنوب عباده بشرائط التوبة رحيم بهم يريد لهم الخير وراحة الدنيا و الآخرة .

* (يا ايها النبي قل لمن فى ايدىكم من الأسرى
ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا ممّا
اخذ منكم و يغفر لكم و الله غفور رحيم : و ان
يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن
منهم و الله عليم حكيم) *

مفاد ذلك ان الله كلّف نبيّه بأن يقول لأسرى المشركين تعالوا الى
الخير وهو الاسلام و انّ الله سيعوّضكم عمّا اخذ منكم خيرا منه و يغفرلكم
ما سبق من كفركم و السيئات التى اقترنت به و الله غفور للتائبين من
عباده رحيم بهم لطيف يريد اسعادهم ما أطاعوه على ذلك و أمّا اذا
اصرّوا على البقاء مشركين كما كانوا و اسرّوا فى انفسهم الخيانة لك و
لاصحابك و الوقية بكم عند القدرة على ذلك فقد خانوا الله من قبل
هذه الوقية - وقعة بدر - فأمكنكم منهم و سيمكنكم منهم مادتم ثابتين
على ايمانكم و اطاعتكم الله و الرسول و ماداموا مصرّين على شركهم و الله
عليم بمنوياتهم قبل استعلامها و انما يستعلم ذلك ليكشف امر المستعلم
لنفسه و للناس حكيم فى تشريعاته .

* (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم و انفسهم فى سبيل الله و الذين آووا و نصروا اولئك بعضهم اولياء بعض و الذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا و ان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق و الله بما تعملون بصير) *

ابان الله سبحانه فى هذه الآيه ميزات المهاجرين و الأنصار و الذين آمنوا ولم يهاجروا فقال تعالى ان الذين تدرعوا بالايمان تدرعوا واقعيا للايمان نفسه و ما اعلا هذا المقام و فروا بد ينهم لما ضيقوا عليه و تركوا اقوامهم و منازلهم و سبل معائشهم و جاهدوا احياء لأمر الله ببذل اموالهم فى مقام بذل المال و ارخاع انفسهم فى سبيل الله و الجود بالنفس اقصى غاية الجود و الذين آووا المهاجرين لما هاجروا اليهم فأنزلوهم فى منازلهم و شاطروهم فى اموالهم و رفعوا عنهم وحشة الأضطراب و الأعتراب و نصروا رسول الله و دين الله وهم الانصار اولئك اشارة الى المهاجرين و الانصار بعضهم اولياء بعض بتمام معنى الولاية من النصرة و المحبة و القرب اما الذين آمنوا و بقوا فى اوطانهم و من لازم البقاء فى الوطن حيث تكون الغلبة فيه للمشركين ان المؤمن لا يستطيع ان يتارك المشرك فى معاشراته كما لا يستطيع ان يقوم بأعماله الدينية جهارا ولا يستطيع ايضا ان يدعو الى طريقته علنا فأمثال اولئك فى انفسهم مؤمنون الا ان تلك الولاية القائمة بينكم يامعشر المهاجرين و الانصار ليست بينكم و بينهم للفوارق الجمّة بين الفريقين حتى يهاجروا

كما هاجر اخوانهم اما اذا استنصركم هؤلاء في امر ديني لا شخصي يخصهم في مجارى الحياة فعليكم ان تنصروهم على مناوئهم الا على قوم بينكم و بينهم عهد في ابعاد الحرب لمدة و بشرائط ماداموا ملتزمين بتلك الشرائط ولم يخرقوها و الله بما تعملون انتم الفرقان الثلاثة بصير . و من دلائل اعجاز القرآن تنقيته للالفاظ الموقورة و كبسها بالمعاني الشريفة و اشعاره بما لا يشعر به جيله من عقليات شريفة انسانية صادقة فهذه القطعة من الآية اشعرت بنكات عديدة :

(١) ان نسب الانسان و عنصره و ما به اشتراك الانسان مع الانسان هو الروح العقائدية السالمة فالاشتراك بالتنزل من الصلب الواحد و القرار في الرحم الواحد و الانتساب الى لغة واحدة او مكان واحد في اطار زمن واحد لا قيمة له بالمرّة اذا لم تتقدم على ذلك الوحدة بين الأثنين او الجماعه و الجماعات في نزاهة العقيدة الصادقة الجامعة للأرواح الصافية فما عليه اجيال الجاهليات في قديمها و حديثها من الاعتزاز بالنسب او اللغة او المكان الخاص او الزمن الخاص جهل مفتضح و ان راج بين اغلبية الناس ذلك لان الذي يبسط الميدان امام المجتمع و يرقيه و يقدّمه و يوجب احترامه هو علمه الذي يحرسه من الهنات و يسدّ عليه المنافذ من الموهنات و هذا العلم هو العلم بشرائط الاخلاق و محامد الصفات و هذا هو الدين الصحيح نفسه و كل من لا دين له لا حياة عنده كما ان من تدّرّع بالعقائد الوحشية لا حياة عنده و من بعض نتائج الدين الصحيح بل هو عصارته و العقدة الامة لها .

(٢) الايمان بالمبادئ الصحيحة سواء في ذلك ما يعود لما وراء

الطبيعة او ما يعود لحراسة الطبيعة و صيانة الموجود الطبيعي واحسن

ممثل للمبادء الصحيحة هو الاسلام الصحيح .

(٣) الهجرة من دار الذمائم و الجهالات الى كانون الفضيلة و السعادات استنكارا على الرذيلة و تشييدا لمباني الفضيلة و لازم هذه الهجرة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فان الناهي عن المنكر هاجر للمنكر طارد له .

(٤) الجهاد الحاد في الانتصار للحق و دحر الباطل .

(٥) الجهاد البارد بالمال لتأييد الحقيقة و تحطيم الرذيلة .

(٦) ايواء المؤمنين و الترحيب بهم و شدّ ازهرهم و تقوية جانبهم .

(٧) الانتصار للواقع و دعائه و الأطاحة بمنائيه و ملبسيه على

الناس .

التفسير ج ٤ فى جملة مآ يلزم المهاجر و الانصارى وغيرهما ٥٥

* (و الذين كفروا بعضهم اولياء بعض الاّ تفعلوه

تكن فتنة فى الأرض و فساد كبير : و الذين

آمنوا و هاجروا و جاهدوا فى سبيل اللّٰه

و الذين آووا و نصروا اولئك هم المؤمنون حقاً

لهم مغفرة و رزق كريم : و الذين آمنوا من بعد

و هاجروا و جاهدوا معكم فأولئك منكم و اولوا

الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب اللّٰه ان

اللّٰه بكلّ شىء عليم) *

و فى هذه الآيات ابان سبحانه ميزة الكفرة عن المؤمنين و موقف

المؤمنين من الكافرين و ما هو قياس المؤمنين المهاجرين بعد الرعيـل

الأول من الرعيـل الأول و ان هذه القربى القائمة بين المهاجرين

و الانصار هل توجب الأثر او هى مقصورة على المعنويات التى هى

اسمى مقاما من الماديات - فقال تعالى - اما الكفرة فبسنخية الكفر

القائمة بينهم فانما يود بعضهم بعضا ولا يسرى ودهم الى غيرهم ممن

آمن باللّٰه و بنبىّ الاسلام و تبرأ من الكفر و الكافر فانتم ايها المؤمنون

من مهاجرين و انصار و مؤمنين لم يهاجروا من و ظيفتكم تثببت دينكم

حتى المقدور بالجهد بأموالكم و انفسكم و نصرة بعضكم لبعض فى

الدين و فى غير الدين ايضا اذا كان على حق بأن يعتدى على

المهاجر احد او على الانصارى احد اما المنقطع عنكم من المؤمنين غير

المهاجرين فقد سلف انه لا تلزم نصرته على المهاجرين و الانصار فى

المطالب الشخصية لا نقطاعه عنهم ولانه من و ظيفته ان يهاجر حتى

يحفظ نفسه و حقه بأخوانه المعاشرين له فى دار هجرته فألاّ تفعلوا

ايها المؤمنون هذه الوظائف تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير فان
تساهلكم امام طغيان الكفر و تراخيكم عن حفظ بعضكم لبعض مما يؤدى
بالمشركين الى ان يستغلّوا عليكم الفرص فيستزّلوا ضعاف المؤمنين عن
دينهم و يهيموا على المنقطعين عنكم من المؤمنين لأنهم لم يهاجروا
حتى يخلصوا من مزاحمتهم و يدسّوا الدسائس بينكم ماداموا يجدون
منفذا فيكم .

ثم اراد سبحانه ان يمجد بالمهاجرين الأولين و الأنصار الذين
آوهم بأنهم هم المؤمنون حقا لأنهم آمنوا حيث لا ايمان و الرصيد كما من
لهم و بذلوا فى هذا الطريق اموالهم ولم يستفيدوا مالا و ارضوا فى
هذا السبيل انفسهم فليست هناك غايات شريفة اشرف من هذه الغايات
فلهم مغفرة عما سلف لهم من ذنب و لهم رزق كريم عند ربهم يوم يفدون
عليه بل رزقهم الكريم حصلوه فى دنياهم ايضا من مقامات سامية و اموال
طائلة الآ القلائل الذين عاشوا مظلومين من اخوانهم الذين تجاسروا
عليهم و اما الذين آمنوا من بعد ايمان الصدر الأول و هاجروا الى
المدينة و اشتركوا فيما توفقوا له من جهاد فاولئك منكم و لكن ليسوا
بتلك المنزلة بقهر الطبيعة ، و الانسان قد يكون له صديق حميم يشترك
معه فى ملاكات جمّة من الفضائل الآ انه ليس بقريب نسبى له فمثل هذا
لا يرث صديقه انما الارث بالأنساب و الاسباب المخصوصة من زوجية
و اعتاق و ضمان جريرة و لذلك قال و اولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض
فى كتاب الله فلا يرث الأبعد من الأرحام مع وجود الاقرب فى كافّة
الطبقات بل الاقرب هو الوارث و الأبعد محجوب به و بهذا الظهور بل
الصراحة نمنع الارث بالتعصيب كما عليه ابنا العامة ان الله بكل شىء
من اشياء العالم و مفاهيمه عليم لا يشدّ عن علمه شىء .

وقد قسم الله تعالى في هذه الآيات المكلفين الى ثلاثة اقسام :

(١) قسم اختار الكفر والمراد بالكافر نوعا هو الانسان الذى ينكر المبادئ الحية لأنه يراها حجر عثرة في سبيل تأمين منوياته و مثل هذا الانسان انما يحاول تعكير الحياة على اهلها لأنه لا يملك ضميرا طاهرا فهو دائما وابدا يخلق المشكلات حتى يعيش على اكتافها و بحكم السنخية التامة بين المشبه و المشبه به فى التشبيهات الواقعية ترى المشبه يتجاوب مع المشبه به لأول صوت يكون منه ولأول بادرة تبدر من ناحيته و كما برهنت الازمنة السابقة على تجاوب المشركين اينما كانوا من انحاء الجزيرة فى وجه نبي الاسلام كذلك برهنت هذه الازمنة على نظير من هذا التجاوب بين فرقان الكفرة فى جميع نقاط الكون و ما ذلك الا لمحبة بعضهم لبعض فى عالم الأرواح .

(٢) و قسم اختار الايمان بمجرد ان سمع لدايعته صوتا بملك (انا سمعنا مناديا ينادى للايمان) ولم يقف امام اجابته شخوص المخاوف و التموجات العارمة فى وجهه بل اندفع بكله لنصرة الحقيقة علما منه ان سعادة الحياة البشرية رهنة فى هذا التجاوب الصادق و حيث يجد فى محيط اقامته تخلفا عن الحقيقة و صدا عن اشاعة الفضل و الفضيلة تراه يتحرى المكان المناسب و الانسان المؤمن حتى يلتحق بركبهما و ينسجم فى حزبهما و يكون من نفسه و اصحابه الثقة كوكبة مجاهدة يصدق فى حقها و ان يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا و هكذا يؤوى اليه من بارزه طغيان الظلم و التمرد على الحقيقة و يسكن روعته و يقلل عليه ويلات الزمان كما يؤنس وحشته و ينصره و ينتصر له كما كان يلتقى معه على محور واحد هو الايمان فاولئك هم المؤمنون حقا .

(٣) و قسم آمن لما وجد الايمان ضرب بجرانه و تثبت فى مكانه

وكثر اعوانه وعظم شأنه ومثل هذا الرعيل في درجة متأخرة عن السابق لا يعرف منه سوى انه قشري ولا يستبعد منه انه اذا دارت الدائرة على جماعته انشمر عنهم وشدّ منهم وهذا الفريق هو المعبر عنه بقوله تعالى والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم بمعنى لا تشمروهم عنكم ولا تبعدوهم منكم لكن اولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله يعني ان الأقرب الى الله هو الذي يجب ان يكون اقرب اليكم بحسب التدرج والترتيب هذا واكثر من ينسجم مع الايمان في كل زمان هو من هذا الفريق .

(سورة التوبة)

وتسمى سورة براءة مدنية قيل هي آخر ما نزل على النبي بالمدينة عدد آياتها مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون وسميت بالتوبة بمناسبة ذكر التوبة فيها مكررا وببراءة لتصدّرها بهذه الكلمة ولم يعرف ذكر البسمة في مبتدئها وقيل في ذلك وجوه اقربها الى الاعتبار تصدّرها بالبراءة وتحتم الايقاع بالمشركين حيثما وجدوا والأنداز بالمقاطعة التامة وذلك على اثر تكامل ايمان المؤمنين ورضوخهم لما يريد ربّ العزة حتى كانوا مصداقا لقول من قال :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل
والبسمة تشعر بخلاف ذلك مشياً مع ما عليه الظواهر ومراعاة
للتحسينات الاعتبارية .

* (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من
المشركين : فسيحوا في الأرض اربعة اشهر واعلموا
انكم غير معجزين الله وان الله مخزي الكافرين) *

ثبت بتواتر من نقله الآثار ان سورة براءة لما نزلت دفعها رسول
الله الى ابي بكر ليقرئها على الناس في الموسم ثم اخذها منه ودفعها
الى عليّ عليه السلام وقال ما مضمونه لا يؤدي عنى الا انا او رجل منى
وطبعاً يُسأل لم دفعها الى ابي بكر ولم اخذها منه ودفعها الى عليّ
ولا شك ان الجواب لا بد وان يدور حوالى هذا المحور ان دفعه صـ
الى ابي بكر اولاً كان بدافع اختياره في دفعها الى اى احد اراد من
اصحابه واخذها منه ودفعها الى عليّ عليه السلام كان بتعبّد سماويّ

ولولا ذلك لما كان في الدفع أولاً والاسترجاع أخيراً أقلّ معنى خصوصاً
وابو بكر لم يبد منه أقلّ تصور في وظيفته التي القيت على عاتقه وقد سرد
الشوكاني في تفسيره عدّة روايات بهذا المضمون عن سعد بن ابى وقاص
وأنس وعلى بن ابى طالب قال لما نزلت عشر آيات من براءة على النبى
— ص — دعا ابابكر ليقراها على اهل مكة ثم دعانى فقال لى ادرك ابابكر
فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرءه على اهل مكة فلحقته فأخذت الكتاب
منه ورجع ابوبكر وقال يا رسول الله نزل فيّ شيء قال لا ولكن جبريل
جاءنى فقال لن يؤدى عنك الا انت او رجل منك ولا شك ان منشأ التعبد
هو مراعاة فضيلة الفاضل وان كان طرفه غير خائن لان احترام الفضيلة
يجب ان يتمشى مع كل شيء ولذلك كانت صلاة الجماعة وراء العالم
تعدل اضعافها وراء غيره وان ايقاع المقارنة بين الفاضل وغيره غمط
لحق الفاضل والفضيلة نفسها وهذه الواقعة لكثير من غيرها فيها اعراب
قوى على لزوم استخلاف علىّ هذا الانسان الذى اذاب وجوده لأحياء
الحق واماته الباطل وان الجنوح عنه وعن امثاله خذلان للحياة
الاجتماعية وقد حصل كل ما خوّف الناس منه ، هذا كله ولا بد ان يكون
الداعى لتشهير البراءة من الله ورسوله بالنسبة الى من عوهد من
المشركين فضلا عنّ لم يعاهد حدّ الأقلّ عاملين مهميّين (الأول)
استخفاف المشركين بعهودهم بحيث عاد اخذ العهد مهزلة من
المهازل لأنّ احترام العهد انما يقوم بداع من داعيين اما الضمير
الصريح واما الخوف من مغبة الغدر فاذا عدم الأمران كان الغدر اقرب
الى التحقق من الوفاء (الثانى) تقوى الاسلام بحيث لا يعود لهذ
المعاهدات القشرية اثر معه فان المجاملات انما تصحّ حيث لا سبيل
الى تركها ومع السبيل الى ذلك فالأصحاح بالحقيقة حتم لا مفرّ عنه وضمير

الخطاب فى عاهد تم للمسلمين فانه يجوز لهم ان يعقدوا العهود للكفار بشرائط خاصة مبسوطه فى كتب الفقه وتشعر بذلك كلمة الرسول - ص - المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم ، والمخاطبون بقوله فسيحوا فى الأرض هم المشركون الذين كان لهم عهد والمراد بالسياحه اربعة اشهر هو اعطاء الفرصة وارخاء الوقت حتى يلمّ المشركون المعاهدون اطرافهم ويتميزوا وظائفهم ويعرفوا مصائبهم واعلموا ايها المشركون اننا وان ارخينا لكم فانكم غير معجزى الله بأخذ الحيل وخلق الوسائل وان الله تعالى سوف يخزيكم ويبطل احد وثكم .

* (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فأمن تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم) *

والأذان هو الأعلام ويوم الحج الاكبر يجوز فيه ان يكون يوم عرفه حيث يجتمع الناس فيه بعد الزوال من اليوم التاسع كما يجوز ان يكون يوم النحر حيث تجتمع الناس فيه بمنى والفرق بين الاعلام بهذه البرائة والتشهير بها فى الآيه الأولى ان هذه الى الناس عامّة ليطلع الجميع ان لا أمان لمشرك وتلك ايعاز الى المشركين خاصة والخطاب فى ان تبتم الى الكفار وتوبتهم هى رجوعهم الى دين الفطرة دين الاسلام الذى هو خير لهم من كل نزعة يتصورونها ، وان توليتم ، اى عرضتم عن قبول الاسلام وتوليّه ، فاعلموا انكم ، بأعراضكم عمّا دعيتم له واعتزازكم بانفسكم غير معجزى الله بل هو قادر على اخذكم اينما تكونون ، وانما يرخى لكم ليظهر السوء الذى فى بواطنكم ، وبشر ، البشارة هى الأخبار بما يسرّ

واستعملها الله هنا استهزاء بهم وتهكما عليهم فان العذاب الأليم
يحدّر منه وينذر ولا يبشّر به .

* (الآ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم

شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا اليهم

عهدهم الى مدّتهم انّ الله يحبّ المتقين : فاذا

انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

وجدتموهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد

فأن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فخلّوا

سبيلهم انّ الله غفور رحيم : وان احدٌ من

المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله

ثم ابلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) *

قوله الآ الذين عاهدتم من المشركين بحسب الظاهر انه استثناء

من قوله ان الله برىء من المشركين ورسوله فأنهما ليسا بيريئين منهم

ماداموا لم ينقصوا شيئا من عهودهم ولم يخرموا شرطا من الشروط التي

عليهم ولم يعاونوا عليكم انتم جماعة المسلمين احدا فى سلم ولا حرب

فهؤلاء مع هذا القيد ليس منتهى ذمامهم تمام اربعة اشهر بل اتمّوا

اليهم عهدهم الى تمام مدّتهم التي عقدتموها لهم ان الله

يحب كل من يتقى ربه ويراعى قوله ويحفظ ميثاقه ، فاذا انسلخ الاشهر

الحرم ، اى انكشطت عن الزمان كما ينكشط الجلد عن اللحم فيظهر اللحم

ومعنى ذلك انتهاؤها والأشهر الحرم المعهودة هى رجب الفرد

وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وعلى هذا المبنى فانما حرّم تعالى قتل

المشركين وقتالهم فى هذه الاشهر فقط ووجب المشادة معهم خارجها

، وقد يراد بالاشهر الحرم هنا الاشهر الاربعة المذكورة قريبا بقوله
فسيحوا فى الارض اربعة اشهر، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، فى
حلّ ام فى حرم وذلك لطول الزمان التى مرت عليهم فلم تنجع فيهم،
خذوهم : متى تيسر لكم اخذهم، واحصروهم، فى المضائق المحرّجة حتى
يلقوا بأيد يهم اليكم، واقعدوا لهم، فى، كل مرصد، حتى لا يفلتوا منكم
. المين، فأن تابوا، اى رجعوا الى دين الفطرة طوعا انفسهم او من بعد
هذه المضايقات، وأقاموا الصلاة، التى هى اهمّ ركائز هذا الدين فى
العبادات البدنية، وآتوا الزكاة، التى هى اقوم واقدم من سائر الحقوق
المالية، فخلوا سبيلهم، بعدم التعرض لهم، ان الله غفور، لما تقدم من
ذنوبهم اليه، رحيم، بهم وبعباد ه على الاطلاق، وان احد من المشركين
استجارك، اى طلب منك ما يطالبه الجار على جاره من الحفاظ بمعنى اراد
ذمتك ليتحصن بها ويفيض من بعد ذلك فى التعرف على ما جئت به
لبعد ه عن الدعوة باعرابيته العريقة، فأجره، اى اعطه جوارك، حتى يسمع
كلام الله، ويقف على مغازيه ومراميه فأن اسلم فذاك هو المطلوب وان
بقى على كفره فلا تمسه بسوء وهو عندك بل أبلغه مأمنه اى المكان الذى
يأمن فيه بقومه وسلاحه، ذلك، اى وانما الزمناك بقبول جواره مدة سماعه
لكلام الله، بأنهم، اى بسبب كونهم جهلاء والجاهل يصبر عليه ريثما تقام
الحجة عليه ويلقى بالدليل اليه .

* (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله
 الآ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما
 استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب
 المتقين: كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الآ
 ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم
 فاسقون: اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا
 عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون: لا يرقبون
 فى مؤمن الآ ولا ذمة واولئك هم المعتدون: فأن
 تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأخوانكم فى
 الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) *

كيف التعجبية هنا جىء بها للأستدلال على ابراز المشادة امام
 المشركين الذين لهم عهد فضلا عن غيرهم بأن من لا عهد له منهم قد
 يكون اقل وطأة وذلك لنفاق هؤلاء المعاهد بين بعهودهم واتخاذهم لها
 جهة لواد وتستتر واذا كانوا بهذا الوصف فكيف يكون لهم عهد عند الله
 وعند رسوله الآ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فان عهودهم محترمة
 ما استقاموا لها ان الله يحب كل من يتقى ربه ويحترم قوله، قيل ان
 المراد بالذين عاهدتم عند المسجد الحرام اناس من بنى ضمرة وكنانة
 كان النبي (ص) عاهدهم عند المسجد الحرام وقيل هم بنو جذيمة وقيل
 الاشارة بذلك الى عهد الحديبية وصلحها كيف يكون لعهود هؤلاء
 احترام والحال انهم لو قووا عليكم لما راقبوا فيكم عهدا ولا ذمة وانما
 التجاؤا الى عقد العهود واعطاء الذمم احرازا لأنفسهم يرضونكم
 بالأقوال المعسولة تصدر من افواههم وتأبى قلوبهم الأعتراف بها لأنها

لا واقع لها عندهم واكثر هؤلاء المعاهدين من ناحيتكم فاسقون منحرفون وآيات الله هي عظاته وتعاليمه وحججه التي يسوقها لأحقاق الحقّ وابطال الباطل فقوله تعالى اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا انهم اضاعوا لأجل مصالح شخصية مؤقتة طفيفة الحق الذي به يسعد الجميع فكان من جرّاء تمردّهم على الحقيقة صدّهم عن سبيل الله من ارادها انهم ساء ما كانوا يعملون بأضاعتهم الخير العام على العموم لمنافع لا يعتدّ بها ان هؤلاء السفهاء بأعمالهم من جهة الخبث الذي انطووا عليه في اعماقهم تراهم لا يرقبون في مؤمن عهدا ولا ميثاقا متى ما عارض ذلك اقلّ نفع دنيوى واولئك هم المعتدون على حريم الحقيقة ومع كل هذه الهنات فان تابوا وراجعوا ما ولّوا عنه من الحق والصدق واقاموا الصلاة مواظبين على فعلها وآتوا الزكاة الواجبة عليهم لأهلها فأنّهم يكونون بذلك اخوانا لكم في الدين ونفصل هذه الآيات ونقيم هاتمه الحجج لقوم متهيأين للتعلم مستعدين للتعليم وأمّا المتمرد المنكمش لنفسه فذلك لا تنجع فيه حجة ولا يسير للحقّ على محجة .

* (وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلمهم ينتهون: ألا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا بأخراج الرسول وهم بدؤكم اول مرة أتخشونهم فالله احق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين: قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين: ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم: ام حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجته والله خبير بما تعملون) *

تقدم فيما سبق من الآيات قوله بأن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأخوانكم في الدين فقوله وان نكثوا عطف على ذلك وبيان شقّ مقابل وهو ان المشركين ان اصرّوا على شركهم ووجدوا من الزمان فرصة بنفعهم فنكثوا ايمانهم التي عقدوها معكم واخذوا يصحرون بما في ضمائرهم من الطعن بدّينكم والا ستخفاف بكم فاذا تجلّت منهم هذه المرائي التي غطّوها عن الأنظار لعدم انفراج الوقت لهم فقاتلوا ائمة الكفر الذين تقدموا في خبثهم على غيرهم وقادوا اليكم اذ نابهم عصابات عصابات ان هؤلاء المظلمى البواطن لا ايمان لهم حتى تقف امامكم ولا عهد معهم حتى تحجزكم عنهم فاذا ابرزتم الشدة والصرامة امامهم فليس ببعيد ان ينتهوا عن الطعن فيكم وفي دينكم .

ألا تقاتلون حضّ وحثّ على قتال هؤلاء المردة والوقوف امام

وجوههم اولئك الناكثين لأيمانهم المخرجين للرسول من عقر داره بحوك
الدسائس فى قتله وهم الذين بدؤكم أول مرة فى حرب بدر، أتخشونهم
استنكار من التراخى أمامهم حذرا من قوتهم ويطشهم فى حال ان اخذ
الحذر من بطش الله اولى واقدم لأنه لا بطش كبطشه ولا قوة كقوته ان
كنتم مؤمنين بالله فان المؤمن به يؤمن بتلك الصفات له ولا يتخالجه فيها
شك، قاتلوهم تكرير للتأكيد ولبيان خصائص ذلك وهى انكم اذا قاتلتموهم
عن جدّ وصدق فلا شك انكم تكونون غالبين لهم ويكونون مغلوبين لكم
والمغلوب لا تقدير لعذابه الروحى ويخزون امام الأنظار ويطاح بكرامتهم
أما الغالب فلا وزن لفرحه وعلوّ مقامه وتشديد كيانه واحترامه كما تشتفى
بذلك صدور مؤمنة قبعث على الحرارة ازمانا حتى اتاحت لها هذه
الفرص الثمينة فبردت برحائها واذ هبت غيظ قلوبها، قوله ويتوب كلام
مستأنف مفاده ان من نجا من حدود سفاركم وآمن بعد تلوّ سبق منه
وعتوّ صدر عنه فانه لا يعدم توبة الله عليه فانه تعالى لا يقطع بعباده
فى الأحوال التى تثمر معها التوبة، ام حسبت: ام هنا انقطاعية تفيد
الأضراب بمعنى بل حسبتم ومعنى ذلك ان الله تعالى وان علم بالسرائر
والخفايا الا انه لا يعامل عباده بذلك فالّم يظهر خفاياهم لهم واظهار
الخفايا انما يكون بالتكاليف يوظفون بها كالجهد فى سبيل الله
والنصيحة لله فمن اتخذ لنفسه مدخلا غير الله ورسوله والمؤمنين فهو
ليس بمؤمن قطعا بل يعدّ فى زمرة المنافقين والوليّة معناها المدخل
والمسلك .

* (ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر اولئك حبطت اءمالهم و فى النار هم خالدون : انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين : اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين : الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله اولئك هم الفائزون : يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم : خالدون فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم) *

ما كان للمشركين نفى بمعنى النهى للمؤمنين ان يتقبلوا من المشركين ما لا صلة لهم به لأن فى ذلك نوعا من تحقيق اغراضهم ومنوياتهم الفاسدة اى لا يقبل من المشركين والحال انهم يتظاهرون بالكفر لا يتأبونه ان يشيدوا مساجد الله التى لا تقوم احجارها الا على الأيمان به وكيف يقبل من المشرك فعل الخير وهو جاحد لأساسه وهو الاعتراف بالله سبحانه بل جميع ما يصدر منه من فعل خيرى فانه لا يقع الا محبطا ، انما يعمر مساجد الله ويجوز للمسلمين اتخاذها ويثاب هو وهم عليها من آمن بالله من تخوم قلبه واعتقد باليوم الآخر واقام الصلاة طوال حياته وآتى الزكاة ولم يخف احدا خوفا واقعيا الا ربه الذى بيده ناصته

فعسى اولئك بعد تلبسهم بهذه الصفات الفاضلات ان يكونوا من المهتدين والظاهر في عمارة المساجد هو اقامتها بالبناء ويجوز ان تحمل العمارة على اعمارها بالعبادة كما يجوز حملها على المعنيين بجامع معنى العمارة العام، وعسى كلمة ترجى وسوقها من المقتدرين على تحقيق مفادها بعد احراز رصيدها يدل على ايجاب متعلقها ان لا يعقل الترجى من المقتدر مع احراز الرصيد، والداعى الى التعبير به ابراز المتانة ورغبة ان لا يطوح النجاح بالناجح فيغويه .

كان مشركوا قريش يفتخرون على الأغيار مؤمنين وغير مؤمنين بأنهم يؤمنون سقاية الحاج على كثرته ويقومون باستمرار بعماره المسجد الحرام تثبيتا لكيانه فرد عليهم الله سبحانه بأن عملكم هذا حتى لو كان دافعه الغيرة النوعية لا الأغراض الشخصية لما كان له فى قبال الأيمان بالله والعقيدة بيوم الجزاء والمجاهدة فى سبيل الله اقل اثر وقد ورد فى طرق عديدة ان هذه الآية نزلت فى حق على والعباس وشيبة حين افتخروا عليه بالسقاية والحجابه . ان الله لا يهدى القوم الظالمين بمعنى لا يوفقهم للهداية المثمرة لأعراضهم عنه فكيف يتلطف عليهم بالتوفيق لذلك ، الذين آمنوا بالله عقيدة وهاجروا من ديارهم لأحراز عقائدهم الحقّة وجاهدوا فى سبيل الله تثبيتا لها ببذل اموالهم وانفسهم اولئك اعظم درجة من كل احد سواهم ان لا غاية تتصور وراء ذلك واولئك هم الفائزون حقيقة دنيا وآخرة وفى كل شىء يبشرهم ربهم برحمة منه ورحمة الله لا تحد بمقياس ورضوان وجنات لهم فيها نعيم لا يزول ولا ينقطع مع خلودهم فيها وعدم فنائهم بالموت ان الله لا كسائر المقتدرين الذين مهما اتسعت قدرتهم فأنها محدودة بحدود تقف عندها بل ان جزاء الله على الخير لا حد له .

* (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء ان استحبّوا الكفر على الايمان ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون : قل ان كان آباؤكم وبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) *

تنصّ هذه الآية على اهمّية الايمان عند الله سبحانه وانه اهمّ من الآباء والأخوان والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة الرابحة والمساكن الطيبة والناس لا يرون الحياة الا بهذه الأشياء ولا غرابة فى ان يرى الله ان الأيمان اعظم من الحياة واهمّ فان الحياة بدون الايمان لا اثر لها ان لم نقل انها لا تملك الا سوء الأثر فيا أيها الذين آمنوا اى تميّزوا الأيمان فاعتنقوه لا يجوز لكم مع ايمانكم ان توالوا من استحبّ الكفر على الايمان ولو كان ذلك الكافر من اقرب الناس اليكم كالأب الوالد والاخ الشقيق ومن يتولهم منكم أيها المؤمنون وهم على كفرهم فأولئك هم الظالمون لانفسهم الغامطون لعقائد هم .

قل يا نبىّ الاسلام للمؤمنين بك ان كان آباؤكم الذين ولدوكم وبنائكم الذين تنزلوا من اصلاّبكم وأخوانكم الذين ولدوا من السلالات التى ولدتم منها ونشأوا فى الأرحام التى نشأت فيها وأزواجكم اللاتى هنّ امسّ الناس بكم وعشيرتكم التى هى سلاحكم الذى به تصولون واجنحتكم التى بها تطيرون واموالكم التى جمعتموها فى حرّ وبرد وكّد وجدّ وصرفتم

فى سبيل تحصيلها كل عزيز وتجارة جارية رابحة تخشون كسادها اذا نقلتموها من ديار الكفر الى دار الايمان ومساكن جهنمها على طبق اميالكم قل لهم ان هذه الاشياء التى هى قوام الحياة واعز كل عزيز على الإنسان ان كانت بالنسبة الى عقائدكم احب اليكم منها وهى التى تحبسكم عن مجافاة الكفر والكافر وديارهما وتدعوكم الى الاعتزاز بها وان كان دينكم عزيزا عليكم ايضا فتربصوا - كلمة تهديد من الله لهم - ولازمها جرّ اليد من الوالد الكافر المحب للبقاء على كفره ومن الولد الكافر والأخ الكافر والزوجة الكافرة والعشيرة الكفرة والأموال التى تتلاشى مع الهجرة والتجارة التى تبور عند الانتقال من دار الكفر الى دار الأيمان والمساكن التى تعطل بالهجرة وان المؤمن اذا لم ينزع يده من ذلك لأجل الله والرسول ولم يجاهد فى سبيل عقيدته فسوف يلقى من ربه ما لا يرضاه وانه فاسق والله لا يهدى القوم الفاسقين المصّرّين على فسقهم .

وخلاصة الخطاب فى قوله يا أيها الذين آمنوا متوجه الى من لبس الأيمان حقيقة لا تصنعاً فان المتصنع قد يطلق عليه مسلم باعتبار أنه ليس بحربى لا باعتبار اعتناقه للعقيدة الاسلامية ولا بس الايمان حقيقة معناه انه تصوّره وعرف باطنه وظاهره ووجد المعيار الوحيد للحياة وان الحياة من دونه ميدان شقاء وعناء وبلاء ومثل هذا التصور الذى يقوده للاعتقاد به يطرد عنه كل متجاف عنه غير منتظم فى سلوكه وائياً كان فى عنوانه بين الناس ابا كان ام اخا ام ولدا ام زوجا ام عشيرة فان هذه العناوين اذا سلخت عن معانيها المعنوية الواقعية كانت مادية صرفة فكان معنى الأب هو الذى تكونت من نطفته والابن هو الذى تكون من نطفته والاخ هو الذى ينزل من صلب ابيك وينمو فى رحم امك والزوج

هو خليط الشهوة والعشيرة هي الاسباب المتفرعة عن الأب والأخ والولد والزوج فهؤلاء لا قيمة لهم اذا لم يساندوا عقيدتك المعنوية الصحيحة بل هم اعداؤك ان استحبووا الكفر على الايمان ومن يتول عدوه فقد ظلم نفسه فان العدو ومعناه هو الراصد لأذيتك الذي يريد تحطيم كيانه وهدم وجودك .

فان كان الأب على ما فيه عندك عزيزا والابن على ما تضمّ جوانحه عليك غالبا والأخ على ما يتبطن ذا أثر والزوج وكيف كان محترما والعشيرة بأى شعار طلعت مقدسة والمال ومن اى منبع استحصل مكرما والتجارة بأى متاع مربح ولو كان قدرا ذات اهمية والمساكن واين كانت وبأى شىء بنيت معززة مجللة وكل ذلك على ما فيه كان احب الى الانسان من ربه الذى يريد اسعاده ورسوله الذى يحاول هدايته وارشاده واحب كذلك من الجهاد فى سبيله فليتربص هذا الانسان ولينتظر ما يحيق به من سوء وكذلك كان الأمر فى التجارب فان الانسان عرف عنه من سالف بعيد قوله انصراخا ظالما ام مظلوما ومن نتائج ذلك، تجد الحياة ثقيلة على عواطف الجميع لملازمة الانحراف المنهى عنه المخوف عن عواقبه .

* (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذا
 اعجبتكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئا وضاعت عليكم
 الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين : ثم انزل الله
 سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم
 تروها وعدّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين :
 ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله
 غفور رحيم) *

سبق في الآيات السالفة حثّ الله عباده المؤمنين على الجهاد وان
 يكون الجهاد في سبيله تعالى احب اليهم من آباءهم وابنائهم واخوانهم
 الى غير ذلك مما سلف فقوله هنا لقد نصركم الله في مواطن كثيرة جىء به
 كالتأييد للأمر بالجهاد بان جهاد المؤمن مقرون بالنصر غالبا وهذا هو
 الذى خفف من حدّة الحروب على اصحاب رسول الله ووقعة احد انما
 افلسوا منها اخيرا لا اولا بسبب انتبازهم عن مواقعهم العسكرية
 وانشغالهم بأسلاب القوم ، والمواطن هي الأماكن اى نصركم الله فى
 محال كثيرة تواقفتم انتم والكفار فيها فنصركم الله عليهم كما نصركم الله
 يوم حنين ايضا وحنين واد بين مكة والطائف تواقف فيه رسول الله مع
 هوازن وثقيف وكان المسلمون حينذاك اثنى عشر الفا وكانت اكثر عدّة
 خرج بها المسلمون لحرب عدوّهم منذ حاربوا الكفار ومن هنا قال بعضهم
 لن نغلب اليوم من قلة وعن هذه الكلمة عبر تعالى بقوله اذ اعجبتكم
 كثرتم فلم تغن عنكم شيئا لانكم اتكلتم على كثرة العدد فلم تبرزوا النشاط
 اللازم والعدوّ ابدى ذلك من نفسه فناهضكم مناهضة ضيق الأرض منها
 فى اعينكم فوليتهم مدبرين تاركين رسول الله وحده فى هذه المعركة ثم

لما توالى صرخات الرسول بكم ودعوته آياكم الى العودة وتلاوتمت فيما بينكم وسألتم ربكم النصر انزل الله سكينته وهى سكون النفس والطمأنينة وانشرح الصدر على رسوله وعلى المؤمنين المجاهدين بين يديه وانزل جنودا لم تروها يعنى بذلك الملائكة شدا لعزائمكم وربطاً على قلوبكم ولا شك ان هذا التأييد معنوى لا حسىّ وعذب الذين كفروا بالأند حار والأنكسار ومثل هذا العذاب هو جزاء الكافرين وهو الذى يجب ان يحصل لهم دائما وابدأ حتى تبطل حيلتهم وتشل حركتهم وتتذوب قوتهم، ثم يتوب: ثم هنا و فى نظير هذا المقام ك(أم) المنقطعة تفيده الأستئناف ومعناها ان الله سبحانه يتوب على كل متراجع عن السيئة بعد ارتكابها او مشارفتها ومناسبة الاتيان بهذه الآية هنا ماساقه من فرار الصحابة فى وقعة حنين عن الرسول وتراجعهم بعد ذلك بما محوا به آثار هزيمتهم فالتوبة بالنسبة الى المؤمن كالكرة بعد الفرة، والله غفور لذنوب عباده متى طلبوا منه المغفرة رحيم بهم عاطف عليهم لأنهم خلقته وصنعتة .

وقد تقدم فى الآية السالفة موقعية الجهاد فى نظر الله سبحانه وان الله لا يرضى ايمانا من مدّعيه ان كان آباؤه او ابناؤه او اخوانه او ازواجه او عشيرته او ماله الذى استحصله او تجارة رابحة او مساكن مرضية له احبّ اليه من الجهاد فى سبيله وتدليلا على هذه المناسبة ذكر التفاوت الواسع بين الأيمان الصحيح والأيمان القشرى وانه ماهى ثمرات الايمان الصحيح وماهى مضرّات وانكسارات الايمان القشرى - فمن تلك التفاوتات -

(١) ان النبىّ والذين آمنوا به طيلة مكثه فى المدينة بلغت غزواته

١ وسراياه اكثر من سبعين غزوة وسريّة انتصروا فيها اجمع باستثناء غزوة احد

والسبب الذي نصره في كافة تلك الوقائع هو الأيمان الراسخ في قلوب اهله عن تفهم صحيح يدور حوالى محور احراز الحياة السعيدة بالمقاومة السديدة وقلّ لفاتح في اهمّ فاتحى العالم ان يتوفق لأحراز امثال هذه الانتصارات المتوالية في المدة القصيرة وقد حصل هذا التوفيق للنبيّ (ص) من طريق صحة الأيمان القائم في صدور اصحابه وصحة قيام الأيمان في نفس صاحبه تفتح النصر اولا والسعادة ثانيا وعدم التخريب ثالثا اما اذا كان الأيمان قشرياً كان هو والنفاق على منزلة واحدة في الآثار السيئة التي منها الانكسار المحتمّ فان المنافق لا رصيد له يدور حواليه سوى التلون كل آن بشكل ومنها الغش الذي تذهب في سبيله نفس واموال حيث لا طائل ومنها التذرع بالتخريب والأفساد لاجل احراز انانية النفس وهذا المعنى هو الذي ضيع المسلمين في فجوات اجيالهم الأخيرة حتى اصبحوا مهزلة الهازل ومن هذا النمط يعرف السرّ في انكسار المسلمين في غزوة احد فأن النبيّ (ص) طرح لهم خارطة هذه الحرب واقفهم على عوراتها التي منها يؤخذ المجاهد فألسى حدود تمشية خارطة انتصروا لكن لما خالفوا النبيّ في المحافظة على ثغرة الشعب انسياقا مع تسويلات النفس الخاطئة خسروا كلّ شىء لانهم ابانوا في ساعات مخالفتهم انهم ليسوا بمؤمنين واقعيين فان المؤمن الواقعى لا يتهم نبيّه ويصدّق ميل نفسه .

(٢) ومن تلك التفاوتات ما ذكره سبحانه عن غزوة حنين بدءاً وختاماً فان الاغترار بالكثرة من دواعى الخطأ والايمان القشرى فان الكثرات الجوفاء لا اثر لها وانما الأثر للصمود والرسوخ فالمسلمون في غزوة حنين لما وجدوا رقم عددهم كثيرا (١٢ الفاً) قالوا نحن فتحنا بدرًا بثلاثمائة انسان وها نحن نزيد على ذلك قريبا من ثلاثين ضعفا غافلين

عن ان الذي نصرهم فى بدر لم يكن حديث الثلاثاء وانما هو المقاومة
 عن واقع ولد لك رأوا انفسهم فى لحظات وهم (٢ الف) انسان كيف خسروا
 انفسهم ، وعلى هذا الحساب يلزمنا أن نطبق حاضرا وماضينا .
 * (يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا
 يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم
 عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله
 عليم حكيم : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم
 الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدنون
 دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا
 الجزية عن يد وهم صاغرون) *

النجس مصدر بمعنى القذارة فى اللغة وفى اصطلاح الشريعة ما
 قابل الطاهر وفى جواز دخول المشرك المسجد الحرام او المساجد
 كلها من دون تلويث كلام طائل فى الفقه وظاهر الآية منعهم من المسجد
 الحرام بعد سنة تسع التى نودى فيها ببراءة الله والرسول من المشركين
 ، قوله وان خفتم عيلة فيه جهة استدراك لما جال فى اذهان المسلمين
 الذين كانوا يستفيدون بالمعاملة مع المشركين فى المواسم كل سنة فاذا
 منع المشرك من مقاربة المسجد الحرام بطلت هذه المعاملات بالطبع
 فقال سبحانه وان خفتم عيلة اى ضائقه من طريق امتناع المشركين من
 دخول مكة فى الموسم وقد كنتم تستفيدون من معاملاتهم استفادات
 ذات بال فسوف يغنيكم الله من فضله بأن يسبب لكم منابع رزق وجهات
 استفادة غير الجهات التى كانت لكم فى الموسم من طريق المشركين
 . كما . . . شاء . . . ف . . . كلام الله لمحض تعليمنا نحن المكلفين بأن نقولها عند ما

نخبر بشيءٍ والا فهو قد اخبرهم بقوله فسوف يغنيكم الله من فضله ولا يخبر سبحانه الا عن واقع محتم لا معلق مضافا الى انه تعالى يعلم بمشيئة نفسه، قاتلوا تأكيد للأمر بالقتال الذى سبق الأمر به وان كانت هذه الآية مخصوصة بكفرة اهل الكتاب من اليهود والنصارى لقوله فيها من الذين اوتوا الكتاب، فان قلت، ان الآية تنطق بقتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر واهل الكتاب يؤمنون بهما، قلنا، اراد سبحانه بالايمان به وباليوم الآخر الايمان الصحيح بذلك واهل الكتاب لدى التحقيق شبيهة مشركين فى عقائدهم بخالق العالم، ولا يحرمون ما حرم الله مع وقوفهم على تحريمه فى كتبهم لكن مصالحهم الشخصية تدعوهم الى تعمية الحق بالباطل، ولا يدعون دين الحق، وهو الاسلام، حتى يعطوا الجزية، غاية للقتال اى انكم استمروا فى مقاتلتهم حتى يخضعوا لكم بأعطائكم الجزية عن يد مطيعة مباشرة للعطاء بنفسها ليكون ذلك أدل على الخضوع والاستسلام، وهم صاغرون، اى تلوح عليهم امارات الذل والهوان فى كل احوالهم معكم ومنها حالة دفع الجزية الى من يتسلمها منهم بأن يكون الدافع قائما والآخذ قاعدا والجزية مأخوذة من المجازاة فان المال الذى يبذله الكتابى كالثمن بالنسبة الى السكوت عن مقاتلته والسكون عن ازعاجه، و فى محتويات هاتين الآيتين بحوث فقهية مدونة فى مبسوطات كتب الفقه لا مجال هنا لنقل القليل منها .

وهذه الآيات تشعرنا بجلاء كيف يصنع الإنسان فى حوز الاستقلال لنفسه وحفظ كرامته وحيثيته وحاكمية نفسه على نفسه وهو ما يطلبه كل فرد وكل قبيلة وكل مملكة فقال تعالى ان للنفس حنينا الى المادة واسعا و الى توسعة العلاقات وذلك يستدعى نسيان القيم العقائدية لان العقائد تحول بين النفس وبين كثير من مشتبهاتها فالأغرار وهم الاكثرية

فى البشر انما تجافوا عن عقائد هم لمصادقة شهواتهم لها ولهذا قلّ
المؤمن الصحيح فى جوامع البشرية لكن البرهان قام على غلط هذا
الفريق بأنهم اتلفوا ما حاولوا وانقصوا ما ارادوا تنميته وزيادته فان المادة
تتقاضى من الأنسان الذلة والخنوع وبيع الحيثية والأستقلال والكرامة
وفقد هذه الصلاحيات القيّمة فاقد لكل شىء والقيمة انما هى للحيثيات
واهلها والاستقلال ومالكة وذلك انما يكون بمناهضة العدو وان استدعت
مناهضته بادهاء قلة الرزق وتحديد العلائق بطبيعة الحال الا ان ورائها
انتظارا وتشعشعا لا يحدان بمقياس واضرب لنفسك مثلا محاصرة قريش
للنبيّ (ص) فى الشعب وتحريم البيع والشراء منه وعليه ومناكحته والاختلاط
به لكنه لما صبر وظفر جبر كلّ ما سلف عليه بالعزة والمناعة اللتين استفادها
هو واصحابه فى دار هجرته واستمرّ المؤمنين به من بعده حيث عزّوا بعد
الذلة وكثروا بعد القلة واثروا بعد الفقر وتوسعوا بعد الضيق فكسبوا
دنيا واسعة ودينا قيّما واقاموا للحق سوقا واستفادوا من هذه السوق
فيجب على المسلمين ومهما اتى عليهم زمانهم ان يترسموا تلك
الخطى فيجتنبوا كلّ من يريد دينهم بسوء لانه يريد الحطّ من كرامتهم
وان اكسبهم مالا ومنا لا مشفوعين باستعمار وذلة وان يقابلوا بصلابة
اولئك الذين لا يؤمنون بأى مبدأ سوى الترفيه عن انفسهم وتأميم
منوياتهم فانّهم اذا فعلوا ذلك احرزوا انفسهم من كافة جوانبها .

* (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يظاهرون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون : اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دونه والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون : هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) *

عزيز اسرائيلى من اخيارهم ولكثرة تعبدّه ومزيد زهده غلا فيه اليهود كلهم او بعضهم حتى ادى بهم الجهل الى نسبته بعنوانه ابنا لله تعالى وهكذا غلا النصارى بالمسيح ابن مريم فجعلوه ابنا له سبحانه ذلك قولهم بأفواههم اى انهم يقولون هذه الكلمات من دون تدبير لمعناها ولو تدبروا حقيقة الله وانه وجود مجرد لا مادى وان عزيزا والمسيح مادى ان حادثان لما لاكت السنتم هذه الألفاظ العارية عن المعنى فى لبّ الحقيقة ، يقال ضاهاه مضاهاة اذا شابهه اى ان اهل الكتاب لا يفترون عن المشركين الا بالاسم المجرد والا فهم مثلهم فى كل اشياهم فان عبدة الأوثان نسبوا او ثانهم لله بعنوان انها بنات الله وفريق آخر منهم قالوا ان الملائكة بنات الله ، قاتله الله : كلمة تقال فى مقام اللعن والسب ومعنى قتال الله له اهلاكه اياه وربما جىء بها فى مقام التعجب فيقال قاتله الله من عارف ما اكبر ذنبيته ، انى يؤفكون : اى

كيف يصرفون الحق عن وجهه ويلبسونه بالباطل .

الحبر هو العالم والراهب هو العابد وكلاهما لهما مقام عند جمهور الناس لكن الهمج الرعاع فى اطاعتهم لله سبحانه يتركون الأصـول ويتعبدون بالفروع فلا يهتمهم من اقوال الله شىء بمقدار ما يهتمهم من مذاهب علمائهم وظاهرى الصلاح فيهم وهؤلاء هم الذين بعدوا بهم عن ربهم كما قال تعالى اتخذوا اى اليهود والنصارى احبارهم — علمائهم — ورهبانهم — اى ظاهرى الصلاح فيهم ، اربابا : اى مرجعا يرجع اليه ويؤخذ عنه ، من دون الله : وتركوا الله وراء ظهورهم غافلين عنه مع ادعائهم له وهكذا اتخذوا المسيح بن مريم ربا يعبدونه من دون الله عملا وما امر هؤلاء جميعا الا ليعبدوا الاها واحدا يتوجهون اليه فى عباداتهم ويتعبدون باقواله فى اعمالهم فانه لا اله ولا رب يتعبد به الا الله سبحانه عما ينسبون له من بنات وبنين وشركاء ، يريدون : اى اهل الكتاب ، أن يطفئوا نور الله : بمعنى يزيلونه لتحل الظلمة مكانه بأفواههم : كما يفعل ذلك من يريد اطفاء السراج وامثاله فى حال ان نور الله وهو دينه الصحيح لعظمته واهميته لا تستطيع الأفواه ان تطفئه بالنفخ عليه فأن الأفواه انما تستطيع ذلك بالنسبة الى نور السراج والشمعة لان نفخ الفم يؤثر عليها ، ويأبى الله : على كل احد الا تثبيت نفسه بالبراهين الطافحة الواضحة واتمام نوره وهو دينه وتشريعه بالرغم على الكافرين المناوئين ، هو ، الله ، الذى ارسل رسوله ، نبى الاسلام ، بالهدى ، البيان الواضح المنطقى المسجل ، ودين الحق ، وهو الاسلام ، ليظهره ، بغلبة المنطق والسيف كليهما ، على الدين كله ، وبجميع نزعاته ، ولو كـمـره المشركون ، ذلك وسان عليهم .

* (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار
والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون
عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا
ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب اليم :
يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم
وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما
كنتم تكنزون) *

بين تعالى في الآيات السابقة ما عليه اتباع الأحبار والرهبان من
الضلال والانشمار عن الحقيقة وتعرض هنا لحال المتبوعين فقال ان
جملة من هؤلاء جعلوا السمة الدينية قنطرة للعبور منها الى مقاصد هم
المادية فيقضون بغير حق ويشهدون بخلاف الواقع ويزكون ما لا أصل
لتزكيتهم ويجرحون البريء كل ذلك للطمع الحرام واذا كانت دنياهم قائمة
على الأنحراف علما وعملا فبلا ريب تراهم يناهضون الحقيقة التي تفضحهم
وتقتلعهم من جذورهم ولا شك ان الكنز في عرف اهل اللسان هو احراز
المال واخفاؤه فالمراد من الذين يكنزون الذهب والفضة هم الذين
يدخرونهما حبا لجمع المال والتستر به عن الناس وهذا المعنى في
البشر شهوة خاصة لا تعلل بأمر معقول ولذلك ذمّ المكتنزون اما الذي
يدخره لهرمه او مرضه او لافراخه وما هو مظنة معقولة للحاجة فلا يذم ولا
ينتقد وذكر الذهب والفضة من باب انها من اظهر مصاديق الكنز
نزل القرآن وهما مثال عن المال بما هو مال قابل للجمع والأدخار
وظاهر الآية ذمّ الله للمكتنزين على كل حال ادوا زكاة كنوزهم ام لم
يؤدوها فان تأدية الزكاة لا تخرج المكتنز عن كونه مكتنزا ولكن ورد في

جملة من الآثار ان الذى يزكى ما يدخر من ذهب وفضة ليس بمكتنز وليس مشمولا لمفاد الآيه ولا ريب ان ذلك خلاف ظهورها والحق مع الظهور فان تجميد المال وتكديسه بلا جهة معقوله عبث واضح خصوصا مع حاجة الفقراء اليه فالمكتنز ان كان انسانا يحمل شعورا صحيحا اخذ من كده جميع حاجاته وادخاراته المعقولة وتصدق بفاضل ما عند له للمجتمع المحتاج ولا يفيد تجميد ما جمّد الا وقوعه بعد آله اغواء لوارثين اغرار لم يكذبوا انفسهم فى تهيئة هذا المال حتى يحترموه وكل التهجمات العارمة الصادرة من اولى الترف والنعيم انما هى نتيجة لأمثال هذه الأموال التى تقع تحت اختيارهم من دون ادنى زحمة او تحمّل مسؤلية، وسبيل الله المذكور فى الآيه هو كل خدمة فردية او اجتماعية تقع موقعها فى رفع حاجة الفرد او المجتمع، فبشرهم بعذاب اليم سوق البشارة هنا من باب التهكم والاستهزاء فان العذاب يحذر منه ولا يبشّر به، يوم يحمى عليها اى على تلك الأموال الذهبية والفضية فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فانها تحمل من حساسية الألم اكثر من غيرها هذا الذى تدقونه نتيجة ما كنزتم وقد كنتم عند ما كنزتم توقعتم نتيجة غيرها وهى الافتخار والمباهاة على الاغيار بانكم تملكون كذا دينار ودرهم وقوله فذوقوا ما كنتم تكنزون استهزاء آخر هذا ماتعطيه الآيه بلسان ظهورها وقد يكون سياق قوله تعالى يوم يحمى عليها الى آخره كناية عن تعذيبهم بسببها وهو الأقوى .

هذا ولا شك ان العلم بالشئ قنطرة الى درك واقعه وكشف حقيقته وبذلك يتسنى للانسان ان يستفيد من مفيد الاشياء ويجتنب من ضارها كما لا شك ان الجهل سترة على واقع الشئ وان الجاهل لا يستطيع ان يستفيد من المفيد لجهله كما لا يستطيع ان يجتنب من الضار لجهله به

كذلك والاستفادة من العلم بالشيء تارة تكون مادية صرفة كما عليه
 دارسوا العلوم الكونية الذين لا يبتغون من ورائها سوى استثمار الناس
 واستعمارهم وتارة تكون معنوية صرفة كما عليه المثاليون الذين كلما
 تبحروا فى حقائق الاشياء ابتعدوا عما عليه الناس الذين هم بالمائة مائة
 ماديون واخرى مزيجة بين ذاك وهذا كما عليه جملة من هواة المعنى
 والمادة مخلوطا بعضها ببعض واتعس الناس جميعا واخس حتى من
 الجهلة انفسهم اولئك الذين يتخذون المعنى قنطرة للمادة وحدها
 ولا يوجد فى العالم ما هو اضرّ منهم اصلا وذلك هو المشار اليه بقولنه
 تعالى ان كثيرا من الأخبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل
 ويصدّون عن سبيل الله وانما كان هؤلاء بالوصف الذى اشعرنا به لأنهم :
 (١) يفقدون ما يملكه العالم الكونى الذى يأتى الى المجتمع بما فيه
 بلغتهم المادية من مرفهات الحياة كالكماليات الموجودة فى عالم اليوم
 على تعدد جهاتها وعدم احصاء ميزاتها .

(٢) ويفقدون ايضا الصفاء التام والطهارة الغامرة الموجودين عند
 المثاليين اولئك الذين بمقدار دركهم لواقع الحياة وما عليه الناس زهدوا
 فى الطرفين الحياة المادية واهلها .
 (٣) ويفقدون الاعتدال بحيث اذا حصلوا ما هو بلغتهم اكتفوا به كما
 هو شارة من خلط بين المادة والمعنى وغادل بينهما واستقام على
 طريقته .

(٤) ويفقدون بساطة الجاهل البسيط الحاضر للتفهم والتعلّم .
 وما هؤلاء الا مظلّموا البواطن انتهازيون يستغلّون الفرصة لتهديم
 كل قائم وتشويش كل آمن ليستفيدوا من تشويش الأوضاع واضطرابها
 اصحابا يعيشون على اكتافهم فهم دائما هواة اضلال ومثيروا فتن

وموجدوا قلائل وبهذا صح فيهم قوله تعالى انهم يصدون عن سبيل الله وسبيل الله هو احقاق الحق وابطال الباطل وذلك ما لا يروق لهم هذا والحيبر هو المنتسب للعلم والراهب هو المنتسب للزهد والتصوف وقوله سبحانه يا ايها الذين آمنوا تحذير لعباده المؤمنين الطاهرين في ضمائرهم ان يقعوا في حباله اولئك الدجالين الذين كتبتنا عنهم بعض القول فيهم وكما ان هؤلاء الدجالين ينطوون على انتهـازا ويتصدون بالناس كل سوء ناسب ان يضم اليهم ما هو من سنخهم وهم المحتكرون فانهم انتهازيون من طراز عال قد اعدوا درهمهم للبطش بمنائهم ولو كان على حق صريح ولغزو الأعراض التي جفتها الطبيعة فأفلستها فهو يستغل بدهرمه حاجة المحتاجين الذين قد تلجأهم الحاجة الى أن يصابروا من ليس بكفو لهم ترفيها على انفسهم ولشراء السنة واقلام المذبذبين بالمال ليعرفوا عنهم عكس ما ينطوون عليه واصولا قد اعدوا درهمهم للفتك بالحق من كل جهة تسنح وبهذا ندد الله بهم .

* (ان عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها اربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهنّ انفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أنّ الله مع المتقين : انما النسيء زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) *

الشهر الشرعى هو عدّة ما بين هلالين والسنة الشرعية هى اثنا عشر شهرا هلاليا وقيد عدّة الشهور بعند الله يفيد أنّ هناك شهورا لم تقررها الشريعة وهى الشهور الشمسية الدائرة مدار الفصول الأربعة والسبب فى ذلك ان الشهور الهلالية يدركها كل احد ولا تحتاج الى حساب بل حسابها انتهاؤها برؤية الهلال وذلك امر بسيط بخلاف الشهور الشمسية فانها تحتاج الى حساب البروج ومنازلها وهو خارج عن عهدة البسطاء من الناس فلم تنط امور الشريعة من عدّة طلاق وحج وموعد دين وغير ذلك بها بل انيطت بالأهلة ، فى كتاب الله اى فيما قرّره للناس من احكام ووظائف ، يوم خلق السموات والارض ظرف لتثبيت الشهور الهلالية الحادثة من سير القمر ، منها اى من هذه الاشهر الاثنى عشر اربعة اشهر حرم رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وحرمتها بتحريم القتال فيها اشد من تحريمه فى غيرها اذا كان قتالا غير مشروع واذا كان مشروعا فى غيرها ففيها لا يقع الا حراماً وفائدتها تقليل الويلات على الناس بتشديد التحريم كالا مكنة الشريعة التى تقع

الأجرام فيها مضاعفة، ذلك إشارة الى عدّة الشهور والاشهر الحرم وما لها في الشرع من احكام، الدين القيم اى الشرع الموزون الملحوظ فيه اسهل ما يمكن تشريعه وأصون للناس، فلاتظلموا في هذه الاشهر الحرم انفسكم بأستحلال ما حرم فيها، وقاتلوا المشركين كافة اى جميعا بدون استثناء. احد فانه لاعصمة لأحد مع الكفر كما يريدون قتالكم كافة لا يحترمون منكم احدا كائنا ما يكون، واعلموا ان الله مع كل مكلف يتقيه ويخافه ويراعى مقرراته، انما النسيء وهو التأخير ومنه بيع النقد والنسيئة زيادة في الكفر اى يزيد في اجرام الكفرة والنسيء كان في الجاهلية ومعناه ان بعضهم كان يريد الأغارة في زمن تمنعه حرمة كالمحرم او ذى الحجة او غيرها من ذى القعدة ورجب فيحتال لذلك بأن يحلّ الشهر الحرم ملتزما على نفسه ان يحرم بدله على نفسه من الشهور غير الحرم كشعبان مثلا ولا شك ان هذا جرم واضح الأفتضاح، يضلّ به اى بالنسيء الذين كفروا يعنى ينحرفون بذلك عن الجادة العادلة التى يحترمونها هم قبل أن تؤيدها شريعة السماء، يحلّونه اى النسيء عامما اى يرونه حلالا فى سنة لان مصالحهم تدعوهم اليه ويحرمونه فى سنة حيث لا مصلحة تقتضى احلال هذا الحرم ليواطئوا عدّة ما حرم الله بمعنى ان المنسأين كانوا يقولون هل يريد الله منا الاّ تحريم اربعة اشهر فى السنة فنحن نفعل ذلك فتارة نحرم الاربعة المعروفة واخرى نحرم غيرها بدلها، فيحلّوا ما حرم الله ويحرموا ما أحلّه الله وذلك عين المناقضة لله تعالى، زين اى ان انفسهم زينّت ذلك لهم، والله لا يهدى القوم الكافرين بالتوفيقات الخاصة يلطف بها عليهم حتى يتوصلوا من طريقها لأدراك الحق بل لمعاكستهم له ومناقضتهم اياه حرّموا من فيوضه المسعدة ووكّلوا الى انفسهم المردية لهم .

* (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل : الا تنفروا يعدّ بكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير : الا تنصروه فقد نصره الله إذا خرجه الذين كفروا ثانی اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم : انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون : لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكانون) *

ما لكم هنا تفيد الأستفهام الاستنكارى التوبيخى بمعنى اى شىء يصدكم ويقف امام عزيمتكم والنفر هو الخروج بسرعة وعدم تباطىء ، اثاقل الى الأرض بمعنى القى ثقله وهو بدنه وما معه اليها مريدا لملازمتها وعدم الانفصال عنها كالمقعد العاجز عن الحركة ، أرضيتم استفهام مفاده الأستنكار ايضا ، الا قليل فى كميته وكيفيته وفى زمانه بخلاف متاع الآخرة فانه كثير كمية وكيفية وزمانا بل لا انتهاء له لان مستحق الجنة يفرض له

الخلود فيها ، ألا تنفروا الى ما دعاكم له اللّٰه من الجهاد فى سبيله
يعذبكم عذابا اليمًا فى الآخرة وقد لا يفوتكم فى الدنيا ويستبدل قوما
غيركم بأن يهدىهم الى الحق هداية موصلة الى المطلوب وحينذاك لا
يخالفون له امرا ولا نهيا ولا تضروه فى ثنائلكم عن اوامره شيئا واللّٰه على
كل شىء ومن جملة الاشياء استبدال غيركم مكانكم قد ير ، ألا تنصروه : اى
النبيّ عندما يدعوكم الى نصرته فاللّٰه هو المتكفل لنصره فقد حفظه عندما
بيّته قريش وارادوا قتله فأنام ابن عمه علياً مكانه يفديه بنفسه وخرج الى
غار ثور فعمى اثره عليهم وانجاه وعاش بعد ذلك عشر سنين فتح فيها
الفتوح العظيمة ، اذ اخرجه اى الجأه الى الخروج الذين كفروا ثانى
اثنين اى كان معه بصحبته انسان آخر هو ابوبكر بن ابي قحافة اذ هما
فى غار ثور اذ يقول النبيّ عندما رأى صاحبه متغيّر اللون واجب القلب
حزينا من الطلب غير مطمئن ولا مرتاح لا تحزن ايها صاحب ان اللّٰه
معنا يعنى يريد نجاتنا ولا يتوجه الينا حادث فى هذا السفر فأنزل
اللّٰه سكينته على نبيّه لانه المعنى بالكرامة وألهمه انه لا يمسه سوء حتى
يسكن سكونا قاطعا وايدّ نبيّه فى بدر وحنين بجنود لم تروها وجعل
كلمة الذين كفروا من مشركين وكتابين هي السفلى المنحطة المتقلصة
الظلّ وكلمة اللّٰه وهى الاسلام هى العليا المتفوقة الناجحة واللّٰه عزيز
لا يغالبه احد حكيم فى كلّ ما يقول ويفعل ، انفروا الى سوح الجهاد
خفافا وثقالا اى على كل حال يمكنكم الخروج معها شبابا كنتم ام شيبا
اصحاب عيال كنتم ام مجردين وجاهدوا باموالكم تبذلونها وانفسكم
ترخصونها فى سبيل اللّٰه ذلكم خير لكم فى دنياكم وأخراكم ان كنتم
تزنون هذه القضايا وزنا عميقا عريقا ، لو كان ماتدعوهم اليه عرضا من
اعراض الحياة قريب التناول لأيدىهم وسفرا قاصدا اى متوسطا بين

البعيد الشاسع كتبوك او القريب اللاصق كضواحي المدينة لا تبعوك ولكن بعدت عليهم شقة السفر الى اطراف الروم وسيحلفون لك فى مقام الاعتذار لو استطعنا فى اموالنا وابداننا لخرجنا معكم الى تبوك يهلكون انفسهم بهذا الكذب المموه باليمين واللّه يعلم انهم لكاذبون فى حلفهم باللّه انهم لو استطاعوا لخرجوا معك .

وهذه الآيه تشعرننا بأمر طبيعى من لازمه ان يكون عاديا فى البشر ولكنه ومع كل الاسف نراه مفقودا فى الجوامع البشرية الا من جمع شعوره وذلك اننا نرى كل احد ومهما اتسع له المجال يحبّ اعلاء شخصه واسمه ويود من صميم قلبه علو مقامه بين الناس فتراه يحوك لآبائه واجداده كلّ مجد وتراه يفتخر حتى بأكله السمين اذا اكله وشربه اللذيذ اذا تهيأ له ومثل هذه الروح تتقاضى منه ان يكون عزيزا على من يريده بذلة ابياعلى من يتقاضى منه الدنيئة، والعزّه والأباء قاضيان بدحر الظلمة والمنحرفين اولئك الذين لا يهتمهم سوى فرض انفسهم على الناس بكلّ لون وقد برهنت التجارب فضلا عن السابق ما يراه كل احد فى هذا الزمان اللاحق المدعى فيه كل تشعشع وكل ثقافة وكل انسانية من ان الدول الكبرى بعد أن أحرزت انفسها لا يخطر ببالها سوى اذلال الأغيار ممن لم يندمجوا فى نفوذهم ولا يحسبون حساب رعاياهم فتراها لا يقرّ قرارها الا بأعداد القوى وتمرين الأغيار المومّ اليهم بها ليتطاحنوا فيما بينهم حتى يذلّوا ويقلّوا ويكونوا حينذاك اكلة سائغة لهؤلاء الاقوياء ولو ان هذه الدماء المراقبة بأغراء هؤلاء المتربصين أريق القليل منها فى تحصين الاستقلال وحفظ الأوطان لأثمرت الثمار اليانعة فالعتب واللوم على مثل هؤلاء اكثر واوفر ممّا عتب به اللّه حيث قال يا ايّها الذين انضوا تحت راية العقيدة وتقبلوا اوامر الشريعة مالكم واى شىء يقعد بكم عن النفر

فى سبيل اللّٰه بتعريف الجهالّ بالحقّ علما وتطبيقه عملا اثاقلتكم الى الأرض اى لزقتم بها لزوق من يخاف ان تطيره الريح وتعبث به التصاريف أرضيتم بحياة الهوان ، لو كانت حياة الهوان مرضية لما لفظها أولئك الذين نالوا العزة بجهد المقاومة فما متاع الحياة الدانية اللاطئة فى العواقب المشرفة الا قليل كما ترونه فى الأمم المستعمرة والذين استعمروهم وركبوا اكتافهم انفروا الى صيانة مقدساتكم وقاوموا من يريدكم بسوء خفافا كنتم ام مثقلين بالتكاليف الحيوية وجاهدوا لصالح انفسكم بكلّ قوة تملكونها سواء كانت تلك القوة مالا ام انفسا فان نتيجة الجهاد حراسة المال والآنفس والحيثيات ان كنتم تعلمون ، وخصّ اللّٰه الخطاب بالمؤمنين لأنّ دوافع شعورهم هى التى اخرجتهم من ظلمات اللادينية الى نور الدين القويم ومثل هذه الدوافع يجب ان يكون مفعولها متسانخا فكما هدت الى الايمان يلزمها ان تهدي الى ماهو من طرازه .

* (عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين : لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم والله عليهم بالمتقين : انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون : ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اتعدوا مع القاعديين : لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولا اوضعوا خلالكم بيغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليهم بالظالمين : لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحقّ وظهر امر الله وهم كارهون : ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين) *

عفا الله عنك كلمة تستعمل في العتاب الخفيف المؤدب وضمير الغيبة في لهم يعود الى اولئك الذين استأذنوا الرسول في التخلف عن جماعته في قضية تبوك حتى يتبين لك الذين صدقوا في معاذيرهم عن الخروج وتعلم الكاذبين منهم في دعاواهم ، الذين لهم ايمان واقعى بالله وباليوم الآخر لا تراهم يراجعونك على الخروج الى الجهاد بل متبرّعون دعوتهم الى الجهاد دعوة عامّة عرفوا وظيفتهم وجهزوا انفسهم واولئك هم المتقون لربهم ، نعم الذين يأتونك بعد الدعوة الى الخروج ويطلبون منك الخيرة في الخروج الى الجهاد مع الباقيين او البقاء في اماكنهم

الذين يفقدون الايمان بالله واليوم الآخر واقعا وانما يتظاهرون بذلك مداجاة للوقت وحذار ان تدور الدوائر وارتابت قلوبهم بدعوتك فهم فى ريبهم يترددون يخرجون منه طمع الوصول الى الحقيقة فتردهم ظنونهم الفاسدة الى ما خرجوا منه فاذا بهم الكفرة الأول، ولو انهم عند ما جاؤك يستأذنون كانوا منطوين على عقيدة صحيحة بحيث انه (ص) اذا قال لهم اخرجوا معنا خرجوا لكانوا متهيأين فعدم تهيأتهم لأنفسهم دليل أنهم على كل حال لا يخرجون وانما يجيئون النبى للاستئذان مجاملة لا اكثر، ولكن كره الله انبعاثهم معك فألهمهم التراخى عن الخروج وقالت لهم نفوسهم المظلمة اقعدوا مع القاعدين من عميان ومؤفنين ونساءً وصبيان وعجزة، هؤلاء المنافقون لو خرجوا فى جماعتكم ايها المؤمنون الواقعيون ما زادوكم قوةً وانما يزيدونكم فسادا فى وضعكم وشلا فى تقدمكم، ولا أوضعوا خلالكم يقال اوضع البعير فى سيره اذا اسرع يعنى انهم اذا كانوا فى صفوفكم ما ساروا سيركم ولا اسرعوا سرعتكم بل تباطئوا يحاولون ايقاع الفتنة بينكم و فى جماعتكم اغرار اذا سمعوا معسول احاد يثهم قبلوها منهم لصفائهم والله عليم بأحوال هؤلاء الظالمين لأنفسهم، لقد ابتغوا الفتنة ويجاد الخلل فى جماعتكم فى كافة حروبكم السابقة، وقلبوا لك يا نبى الاسلام الأمور يعنى انهم خادعوا ومكروا وابدوا خلاف ما اكنوه حتى جاء الحق من ربك واضحا وظهر امر الله وهو دينه جليا وهم ينظرون الى ذلك مع تمام الكراهة منهم له، ومنهم اى من المنافيين من يقول لك عندما يجيئك مستأذنا فى البقاء ائذن لى فى الإقامة ولا تفتنى اى لا توقعنى فيما يوجب فتنتى اى اعمالى للفتن وتطيرى للشرف فيما بين الناس ألا انهم بمخادعتهم ومكرهم واطهارهم ما لا يعتقدون فى الفتنة سقطوا اى فى الغش والتدليس سقطوا لانهم اذا لم يأذن لهم النبى

بالأقامة يسقطون في ذلك بل هو متحقق لهم منذ أول نفاقهم وان جهنم التي هي المأوى لمحيطة بالكافرين والمنافقون من اخس الكفرة حالا واتعسهم مثالا .

* (ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولّوا وهم فرحون : قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون : قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعداب من عنده او بأيدينا فتربصوا انا معكم متربصون : قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين : وما منعهم أن تقبل منهم نفقتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون : فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون : ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون : لو يجدون ملجئا او مغارات او مدخلا لولّوا اليه وهم يجمعون) *

وهذه الآيات كلّها فى المنافقين ايضا فمن خصائصهم انك ان تظفر بعدوك او تتحسن حالتك من اية جهة فرضتها تأثروا من ذلك وحزنوا له لأنهم يناوؤنك فى بواطنهم وان تصبك مصيبة من انكسار فى معركة او تهزل فى وضع يقولوا نعم ما فعلنا نحن حيث لم نشترك فى حربه فلم نخز

نخزيه ، قد اخذنا امرنا من قبل اى تدبيرنا ، ويتولوا اى يرجعوا الى اهلهم وجماعتهم بعد ان يشاهدوا آثار المصيبة فيك وهم فرحون مأتوسون بما أصبت به ، قل يا محمد على رؤس الأشهاد حتى يسمع هؤلاء ويسمع غيرهم أن للغيب فعلة اخذ حذره الانسان ام لم يأخذ فأصابة المصيبة له انما تكون مورد فرح للعدو ولائمة للصديق حيث تنفرج عن تقصير من المكلف نفسه واما حيث يتخذ التدابير ولا تفيده شيئا فذاك امر لا شماته فيه ولا لائمة عليه ، قل لن يصيبنا ويتصل بنا الا ما كتب الله لنا من حسنة او مصيبة هو مولانا القائم علينا وعلى الله فليتوكل المؤمنون يعنى يمشون الى مقاصدهم مع اتخاذ المقدمات اليها متوكلين على الله ان يعمل لهم ما هو الأصلح فى حقهم حسبما يعلمه هو ، قل يا محمد للمنافقين الذين يسرهم اصابة الحوادث لك هل تتربصون وتنتظرون ما يصيبنا فى المعارك مع اعدائنا الا حسنة من حسنتين اما الفوز والانتصار واما القتل والشهادة وكلاهما بنفعنا واما نحن فنتربص بكم مصيبة من مصيبتين اما الحوادث اللا متوقعة تطيح بكم واما الأطاحة بكم بأيدينا فتربصوا ذلك وانتظروه انا معكم متربصون منتظرون لنزول ذلك بكم ، قل يا محمد للمنافقين ايضا انفقوا طوعا او كرها هذا الأمر بمعنى الشرط اى ان تنفقوا طوعا او تنفقوا كرها والطوع هو من تلقاء النفس والكره هو الذى ينفقه الانسان بالرغم عليه من المجارى الحيوية التى تلزمه بذلك وان كان غير خارج منه بالقوة فانه لن يتقبل منكم ولن تؤجروا عليه انكم كنتم قوما فاسقين منحرفين عن الجادة الأصلية والانحراف هنا بمعنى الكفر لا العصيان العملى بعد صحة اصل العقيدة ويفسر المنظور بالفسق هنا قوله تعالى فى الآية اللاحقة وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله فلم يعتقدوا اصل وجوده وبرسوله ايضا فان

العقيدة برسالته فرع الاعتقاد بوجود المرسل ولا يأتون الصلاة الآ وهم كسالى غير نشيطين لها لعدم عقيدتهم بها ولا ينفقون نفقة فى أى طريق خيرى الآ وهم كارهون فى قلوبهم لانهم يجدون ذلك من اضاءة المال ، فلا تعجبك يا محمد اموالهم كثرت ام قلت لان المال ان يعجب به فلأنه يسد فراغا خيريا واما فى سوى ذلك فلا اهمية له وكذلك لا تعجبك اولادهم كثروا ام قلوا فان الذى يعجب به من الاولاد من كان انسانا خيرا صالحا لا مجردا من ذلك والمال الذى لا يسد به الفراغ الخيرى والولد الذى لا يكون وجوده ثمرا ثمرا خيريا ليس هو الآ عذابا على صاحبه ونكالا له ولا يموت هؤلاء المنافقون الآ وهم كفره بالله وبالعباد الصالحة لأن ظواهرهم المصنوعة مطلاة بطلاء رقيق ينزاح بأدنى عامل ، ويحلف هؤلاء المنافقون بالله انهم لمنكم ايها المسلمون وما هم منكم بل اعداء لكم ولكنهم قوم يخافون سيطرتكم العامة على المحيط وهم من اهله فيجاملونكم مجاملة تصنع يقال فرق يفرق اذا خاف ، لو يجد هؤلاء المنافقون ملجئا يلجئون اليه منكم او مغارات خالية بعيدة عن المزاحم والمسيطر او مدخلا يدخلهم الى ما يحرزهم ويكنهم لولوا عنكم الى ذلك الملجأ والمغارة والمدخل وهم يجمعون اى يسرعون اليه تخلصا منكم لان الانسان لا يروقه معشر اعدائه بل يثقل عليه كثيرا لما فيه من سلب الراحة وتحديد الحرية وهما من الأمور الشاقة على الانسان .

* (ومنهم من يلزمك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون : ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم و فى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) *

ضمير الغيبة فى منهم يرجع الى المناققين يعنى لهم من المعاييب غير ذلك انهم يعيبون عليك فى توزيع الصدقات ويقولون انه لا يوقعها فى مواقعها ولا يعطى كلاً وما يستحقّ لكنهم اذا اعطوا منها بغيتهم رضوا وان لم يعطوا منها ما يتوقعون سخطوا ولو انهم رضوا بما وصل اليهم او يصل واوكلوا امورهم لله وخليفته فى ارضه وعلى عباده وقالوا كفى الله حاسباً لنا سيؤتينا الله من فضله اكثر مما نؤمل لكان خيراً لهم ، انما الصدقات هذه الآية بيان لمصرفها والمراد بذلك الصدقات الواجبة والفقير والمسكين اخوان من حيث الحاجة وهى انهما لا يملكان قوت سنتهما بما يقوم بواجبهما . وواجب من يعولان به والعامل على الزكوة هو جابيهها ولا يشترط فيه الفقر لانه يعمل والذى يتناوله انما يأخذه فى مقابل عمله ، والمؤلفة قلوبهم فى الأصل كفار استمالهم النبى بالمال اما طلبا لدخولهم فى الاسلام واما للذود عنه والرقاب جمع رقبة والمراد بهم العبيد يشتررون من مواليتهم ويعتقون تحصيلاً لحريتهم والغارم هو المدين فى غير معصية ولا يستطيع اداء دينه ولو كانت معيشته العادية

جارية وسبيل الله هو كل خدمة اجتماعية للمسلمين سواء في ذلك
الجهاد وغيره كبناء المساجد والقناطر والسدود والجواري الى مساوها
وابن السبيل هو الانسان المسلم الذي انقطع به طريقه لعوز في المادة
مع عدم قدرته على الاستدانة وغيرها مما يؤمن حاجته المؤقتة حتى يرجع
الى وطنه وانتصب فريضة على انه مفعول مطلق لفعل من سنخه محذوف
تقديره فرض الله ذلك فريضة والله يقنن عن علم وحكمة .

* (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل
اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة
للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم
عذاب اليم : يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله
أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين : ألم يعلموا أنه
من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا
فيها ذلك الخزي العظيم : يحذر المنافقون أن
تنزل عليهم سورة تنبأهم بما في قلوبهم قل
استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون : ولئن سألتهم
ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته
ورسوله كنتم تستهزؤن : لا تعتذروا قد كفرتم بعد
ايمانكم ان يعف عن طائفة منكم تعذب طائفة
بأنهم كانوا مجرمين) *

وهذا السياق ايضا قد ذكر فيه الرقم الآخر من أوصاف المنافقين
وقبائحهم وهو أنهم كانوا ينتقدون النبي بأنه اذن اي سريع التصديق
بما يقال له فقد كان ينم عليهم عنده ثم يأتونه متبرئين مما وشى عليهم به

فيصدقهم على تنصلهم فيأخذون في الطعن عليه بسبب ذلك فردّ عليهم ربّ العزّة بأنكم لو اعتضتم نقدكم أيّاه بذلك بمدحكم له عليه لكان اجدر بكم فأنه اذن خير لكم لقبوله منكم ما تتصلون منه مضافا الى ان المؤمن بدافع ايمانه يصدق كل مؤمن لان المؤمن لا يكون مع ايمانه باللّه وبشرائعه كاذبا فالنبيّ كما يؤمن باللّه يؤمن بالمؤمنين باللّه وهو رحمة للذين آمنوا منكم يسعى ما استطاع بصالحهم ويدفع عنهم طوارق السوء ما تمكّن ، والذين يعتمدون اذية رسول الله تلك الذات الطاهرة التي من هدفها تعزيز الحق وايصاله الى مستحقه لاشكّ انهم يحكمون بالعذاب الأليم ، يحلف هؤلاء المنافقون في دينهم لكم يا جماعة المسلمين الأصفياء بأنهم اخوتكم يسوئهم ما يسوئكم ويسرّهم ما يسرّكم يفعلون ذلك جلبا لمرضاتكم حتى تأمنوا اليهم وتسكنوا لهم لكنهم كذبة في ذلك مخادعون ولو كانوا صادقين في مزاعمهم لطلبوا مرضاة الله ومرضاة رسوله قبل كل شيء لأنّ رضا الله ورسوله اسبق من رضاكم انما انتم تبع لله وللرسول ، ألم يعلم هؤلاء المنافقون انه من يحادد الله ورسوله ويكن عدواّ لهما فان الذي يستحقه من الجزاء امام خالقه الذي كفر بأنعمه ونبيّه الذي بارزه على اشاعة الحق والصدق والمعروف في الناس هو خلوده في نار جهنّم ولا خزي له اعظم من هذا الخزي ، وانما ترى المنافقين يتطلبون مرضاة المسلمين ويشتركون معهم في شعائرهم الدينية ويخاطبون الرسول بلفظ الرسالة حذرا من ان تنزل عليهم سورة — اي في حقهم وما ينطوون عليه من خفايا وبلايا — تنبأهم بما في دخائل قلوبهم ، قل لهم يا نبيّ الاسلام استهزؤا جهدكم فان الله فاضح لمنوياتكم ومخرج ما تحذرون بـروزه وظهوره ، ولئن سألتهم يا رسول الله عما يبدر منهم من القذر والشين ليقولنّ في جوابهم لك انما كنّا نمزح ولم نكن جادّين فيما نقول فقل لهم

على اثر جوابهم أبالخالق العالم بالخفايا وبآياته التى ينزلها ورسوله الذى هو خليفته فى ارضه كنتم تستهزؤون فان هذه المظان ليست بمظان سخرية واستهزاء وخوض ولعب، ولا تعتذروا يا جماعة المنافقين عما يصدر عنكم ويبدر منكم فقد ابدىتم كفركم الذى انتم منطوون عليه بعد اظهاركم لأيمانكم ان يعف الله عن طائفة منكم تأصلت فى ايمانها بعد ما ترددت فان الباقيين منكم سوف يعذبهم الله بسبب اجرامهم .

* (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون

بالمعصية وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم

نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون: وعد

الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم

خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم

عذاب مقيم: كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة

واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم

فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم

بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا اولئك حبطت

اعمالهم فى الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون

: ألم يأتهم نبي الذين من قبلهم قوم نوح وعاد

وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات

أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن

كانوا انفسهم يظلمون) *

لا شك ان الارواح كما قال الرسول (ص) جند مجتدة ماتعارف منها

أُتلف وما تناكر منها اختلف فلا فرق بين ذكور الأقسام واناؤها مع انحسار

بعضهم ببعض فان البعض يستلهم من البعض فالمنافقة تأخذ من المنافق وبالعكس ومع تأصل النفاق فى الإنسان فان البادرة المتأصلة فيه هى الكفر لانه عقيدة قلبه وأما الأيمان فهو لفظ لسانه وكم من فجوة بين القلب واللسان فمن هنا لا يأمر المنافق احدا الا بما يدىن به وهو الكفر والكفر هو المنكر ولا ينهى احدا الا عما يعتقد كذبه وهو الايمان بالله وبرسله ومن لازم ذلك ان يقبض يده عن الأسهم فى هـذـه المشاريع .

نسوا الله بمعنى أنهم أهملوه من ذكرتهم لعدم عبيدتهم به فأهملهم الله من لطفه ، ان المنافقين هم الفاسقون اى المنحرفون عن الأصول العقائدية فضلا عن الفروع، عطف الله الكفار على المنافقين والمنافقات لأنهم صنغان فان الكافر المحض مباح بكفره لا يتقى بخلاف المنافق فانه ذو وجهين يبطن الكفر ويظهر الأيمان ، هى حسبهم اى تكفيهم عذابا ولا يكونون معها بحاجة الى تعذيب ان هى اعلا مقياس فى العذاب ، كالذين مشبه به لمشبه محذوف ظاهر تقديره اى انتم ايها المنافقون نظراء لمن سبقكم وسن لكم هذه الطريقة التى انتم عليها فعلا فقد كان اولئك الممهدون اشد منكم قوة واكثر اموالا واولاد افغرتهم شدتهم فى قوتهم وكثرتهم بأموالهم واولادهم فاستمتعوا بما قسم الله لهم من هذا النصيب المادى وانتم الآن كذلك تستمتعون بما قسم لكم من قوة ومال واولاد وخضتم المجارى التى خاضوها من فتنة ونميمة وصد عن الحق ومخالفة للمحقين النزيبين فاعلموا ان سلفكم ان كانوا فيما يرون لانفسهم قد فعلوا فعلا صالحا اتخذوه ذخيرة لهم فان ما فعلوه من العمل الصالح لا يقع الا فاقد النتيجة لهم لأنهم لم يبنوا ما فعلوه على اساس رهو الايمان بالله تعالى فكذلك انتم لا تغتروا بما تزوونوه

لا نفسكم من صالح الأعمال تتخذونه ذخيرة لمستقبلكم وكما خسر اولئك نتيجة اعمالهم الصالحة مع الكفر فانتم تخسرونها ايضا مع النفاق الذى هو اشدّ خطرا من الكفر البسيط، ألم يصل الى هؤلاء المنافقين انباء الأتوام الذين حادوا الله والواقع من قوم نوح الذين اغرقهم الله بالطوفان وقوم عاد الذين اهلكهم بالريح العقيم وقوم ثمود الذين اخذتهم السيحة وقوم ابراهيم الذين سلط الله عليهم البعوض واصحاب مدين قوم شعيب الذين اخذتهم الرجفة وقوم لوط اصحاب المؤتفكات الذين امطر الله عليهم الحجارة وقلب عليهم ديارهم حتى جعل العالى سافلا والأثفك هو الانقلاب فقد اتت اولئك الأتوام رسلهم بالبينات والبراهين الواضحات فما اصاخوا للداعى الذى مادعاهم الا لصالحهم الدنيوى ووطيد مآلهم الأخرى وما كان الله ليظلمهم حيث اهلكهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون بما سببوه لها دنيا واخرى فى العاجل والآجل .

* (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم :وعند الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم) *

سيقت هذه الآيات مقابلة للآيات السابقات فكانت تلك فى المنافقين والمنافقات وجاءت هذه فى المؤمنين والمؤمنات وكما اسلفنا كل شىء مربوط بسنخه فكما النفاق مشرع يرد منه من يتذوقه من ذكور واناث كذلك الايمان مشرع يرد منه الرجال والنساء ويكون بعضهم صدقا لبعض ويشتركون جميعا فى الأمر بالمعروف الذى هو كل فعل حسن فى الشرع او العقل والنهى عن المنكر الذى هو كل فعل سىء فى الشرع او العقل وقيمون الصلاة التى هى فى الجبهة والسنام من ركائز الدين ويؤتون الزكاة التى هى الطليعة فى الحقوق المالية ويطيعون الله ورسوله فى كل ما يأمرانهم به وينهيانهم عنه اولئك الواجدون لهاته السمات سيرحمهم الله فى اخرهم فوق ما رحمهم به فى دنياهم ان الله عزيز لا يغالب حكيم يضع الدواء على محل الداء ثم شرح ما وعدهم به من الرحمة بأن مآلهم جنات زاهيات تنساب الأنهار من خلالها يسكنون فيها مساكن طيبة تخلد لهم ويخلدون فيها هذا كله من الجنة المادية واما من ناحية المعنى فنفس رضوان الله عليهم ومهما قلّ فإنه اكثر واكبر من ذلك النعيم المادى، ذلك اشارة الى الجمع بين النعيمين المادى

والمعنوى هو الفوز العظيم والنجاح المبين .

* (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون باللّه ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا وما نقموا الا أن أغناهم اللّه ورسوله من فضله فأن يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعدّ بهم اللّه عذابا اليما فى الدنيا وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير) *

قد اسلفنا ان سورة براءة قد نزلت فى أخريات حياة الرسول الاكرم وحين قوى اسر الاسلام وبعدهما طال العهد على انبثاق الرسالة فلا جرم ان اللّه اكّد وشدّد على النبيّ والمؤمنين فى جهاد الكفار والمنافقين والزهم بلفّ حجاب المجاملة والأغلاظ بكل الألوان لمن مضى عليه زمن مديد يعامل ويعامل باللطف فلم ينزجر عمّا كان عليه ولم ينخذل عن غيّه هذا هو حكم هؤلاء المعاندين فى الدنيا وأما جزاءهم فى الآخرة فهو ان مكّنتهم ومأواهم جهنم وبئس المصير جهنم ، كان المنافقون فى غيب الرسول والمؤمنين يتكلمون بكل كلام موجه فاذا ووجهوا بما نقل عنهم تنصلوا وحلفوا باللّه ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر فقد نقل عن عبد اللّه بن ابىّ رأس المنافقين انه قال ما مثلنا ومثل محمّد الا كما قال القائل (سمّن كلبك يأكلك) وكما قصّر اللّه عنه فى آية اخرى لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ ، وكفروا اى تظاهروا بالكفر بعد أن ابدوا الاسلام آنفاً ، وهمّوا بما لم ينالوا فقد نقل عنهم انهم تأمروا وهمّوا بتتويج عبد اللّه بن ابىّ ولم يتحقق لهم ذلك كما صمموا على قتل

الرسول ثم اخذ سبحانه يبين جهه تضحّم عدائهم بأنهم ما نقموا على الاسلام ونبيّه والمؤمنين به الا أن اغناهم الله من فضله فان الحياة المادية اتسعت على عهد الاسلام بما لم يسبق لها مثيل ، فأن يتب هؤلاء من افعالهم الشنيعة هذه يك خيراً لهم فى دنياهم وأخراهم وان يتولوا عن هذه النصائح يعدّ بهم الله عذاباً اليمافى الدنيا بالأيقاع بهم و فى الآخرة بتقطع الأسباب بهم .

* (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن

ولنكوننّ من الصالحين : فلما آتاها من فضله بخلوا

به وتولّوا وهم معرضون : فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم

الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا

يكذبون : ألم يعلموا انّ الله يعلم سرهم ونجواهم

وانّ الله علّام الغيوب : الذين يلمزون المطّوعين

من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون

الاّ جهدهم فيسخرّون منهم سخر الله منهم ولهم

عذاب اليم) *

ومنهم اى من اولئك الذين اظهروا الاسلام ولم يتبطنوه من عاهد

الله لئن آتانا من فضله ويريدون به المال لنصدّقنّ اى نشارك به اهل

الحاجة فنعطّيهم منه بما نواسيهم به ولنكوننّ من عباد الله الصالحين

الذين يترسمون خطوات اوامره ونواهييه فلما استجاب لهم ربهم فاتاهم

من فضله بخلوا بما حصلّوه ولم يفوا بما وعدوا واعرضوا عن الصلاح الذى

التزموه على انفسهم جزاءً لأنعه عليهم فأعقبهم بخلهم بما اوتوا ونكوصهم

عن الصلاح نفاقاً فى قلوبهم مستمراً باستمرار غد رهم القائم فى انفسهم

جارية وسبيل الله هو كل خدمة اجتماعية للمسلمين سواء في ذلك
الجهاد وغيره كبناء المساجد والقناطر والسدود والجوادر الى ماسواها
وابن السبيل هو الانسان المسلم الذي انقطع به طريقه لعوز في المادة
مع عدم قدرته على الاستدانة وغيرها مما يؤمن حاجته المؤقتة حتى يرجع
الى وطنه وانتصب فريضة على انه مفعول مطلق لفعل من سنخه محذوف
تقديره فرض الله ذلك فريضة والله يقنن عن علم وحكمة .

* (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل
اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة
للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم
عذاب اليم : يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله
أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين : ألم يعلموا أنه
من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا
فيها ذلك الخزي العظيم : يحذر المنافقون أن
تنزل عليهم سورة تنبأهم بما في قلوبهم قل
استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون : ولئن سألتهم
ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته
ورسوله كنتم تستهزؤن : لا تعتذروا قد كفرتم بعد
ايمانكم ان يعف عن طائفة منكم تعدب طائفة
بأنهم كانوا مجرمين) *

وهذا السياق ايضا قد ذكر فيه الرقم الآخر من أوصاف المنافقين
وقبائحهم وهو أنهم كانوا ينتقدون النبي بأنه اذن اي سريع التصديق
بما يقال له فقد كان ينم عليهم عنده ثم يأتونه متبرعين مما وشى عليهم به

فيصدقهم على تنصلهم فيأخذون في الطعن عليه بسبب ذلك فردّ عليهم ربّ العزّة بأنكم لو اعتضتم نقدكم أيّاه بذلك بمدحكم له عليه لكان اجدر بكم فأنه اذن خير لكم لقبوله منكم ماتصلون منه مضافا الى ان المؤمن بدافع ايمانه يصدق كل مؤمن لان المؤمن لا يكون مع ايمانه باللّه وبشرائعه كاذبا فالنبيّ كما يؤمن باللّه يؤمن بالمؤمنين باللّه وهو رحمة للذين آمنوا منكم يسعى ما استطاع بصالحهم ويدفع عنهم طوارق السوء ما تمكّن ، والذين يعتمدون اذية رسول الله تلك الذات الطاهرة التي من هدفها تعزيز الحق وايصاله الى مستحقه لا شكّ انهم يحكمون بالعذاب الأليم ، يحلف هؤلاء المنافقون في دينهم لكم يا جماعة المسلمين الأصفياء بأنهم اخوتكم يسوئهم ما يسوئكم ويسرّهم ما يسرّكم يفعلون ذلك جلبا لمرضاتكم حتى تأمنوا اليهم وتسكنوا لهم لكنهم كذبة في ذلك مخادعون ولو كانوا صادقين في مزاعمهم لطلبوا مرضاة الله ومرضاة رسوله قبل كل شيء لأنّ رضا الله ورسوله اسبق من رضاكم انما انتم تبع لله وللرسول ، ألم يعلم هؤلاء المنافقون انه من يحادد الله ورسوله ويكن عدواّ لهما فان الذي يستحقه من الجزاء امام خالقه الذي كفر بأنعمه ونبيّه الذي بارزه على اشاعة الحق والصدق والمعروف في الناس هو خلوده في نار جهنّم ولا خزي له اعظم من هذا الخزي ، وانما ترى المنافقين يتطلبون مرضاة المسلمين ويشتركون معهم في شعائرهم الدينية ويخاطبون الرسول بلفظ الرسالة حذرا من ان تنزل عليهم سورة — اي في حقهم وما ينطوون عليه من خفايا وبلايا — تنبأهم بما في دخائل قلوبهم ، قل لهم يا نبيّ الاسلام استهزؤا جهدكم فان الله فاضح لمنوياتكم ومخرج ماتحذرون بسرورته وظهوره ، ولئن سألتهم يا رسول الله عما يبدر منهم من القدر والشين ليقولنّ في جوابهم لك انما كنا نمزح ولم نكن جادّين فيما نقول فقل لهم

على اثر جوابهم أباخالق العالم بالخفايا وبآياته التى ينزلها ورسوله الذى هو خليفته فى ارضه كنتم تستهزؤون فان هذه المظان ليست بمظان سخرية واستهزاء وخوض ولعب، ولا تعتذروا يا جماعة المنافقين عما يصدر عنكم ويبدو منكم فقد ابدىتم كفركم الذى انتم منظون عليه بعد اظهاركم لأيمانكم ان يعف الله عن طائفة منكم تأصلت فى ايمانها بعد ما ترددت فان الباقيين منكم سوف يعذبهم الله بسبب اجرامهم .

* (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون

بالمكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم

نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون: وعد

الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم

خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم

عذاب مقيم: كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة

واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم

فاستمتعتم بخلاقتكم كما استمتع الذين من قبلكم

بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا اولئك حبطت

اعمالهم فى الدنيا والآخرة واولئك هم الخاسرون

: ألم يأتهم نبيّ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد

وشمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات

أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن

كانوا انفسهم يظلمون) *

لا شك ان الارواح كما قال الرسول (ص) جند مجندة ماتعارف منها

أُتلف وما تناكر منها اختلف فلا فرق بين ذكور الأقوام واناؤها مع انحسار

بعضهم ببعض فان البعض يستلهم من البعض فالمنافقة تأخذ من المنافق وبالعكس ومع تأصل النفاق فى الإنسان فان البادية المتأصلة فيه هى الكفر لانه عقيدة قلبه وأما الأيمان فهو لفظ لسانه وكمن فجوة بين القلب واللسان فمن هنا لا يأمر المنافق احدا الا بما يدين به وهو الكفر والكفر هو المنكر ولا ينهى احدا الا عما يعتقد كذبه وهو الايمان بالله وبرسله ومن لازم ذلك ان يقبض يده عن الأسهم فى هـذـه المشاريع .

نسوا الله بمعنى انهم اهلوه من ذكرتهم لعدم نسيدتهم به فأهملهم الله من لطفه ، ان المنافقين هم الفاسقون اى المنحرفون عن الأصول العقائدية فضلا عن الفروع ، عطف الله الكفار على المنافقين والمنافقات لأنهم صنفان فان الكافر المحض مصاح بكفره لا يتقى بخلاف المنافق فانه ذو وجهين يبطن الكفر ويظهر الأيمان ، هى حسبهم اى تكفيهم عذابا ولا يكونون معها بحاجة الى تعذيب اذ هى اعلا مقياس فى العذاب ، كالذين مشبه به لمشبه محذوف ظاهر تقديره اى انتم ايها المنافقون نظراء لمن سبقكم وسن لكم هذه الطريقة التى انتم عليها فعلا فقد كان اولئك الممهدون اشد منكم قوة واكثر اموالا واولاد افقرتهم شدتهم فى قوتهم وكثرتهم بأموالهم واولادهم فاستمتعوا بما قسم الله لهم من هذا النصيب المادى وانتم الآن كذلك تستمتعون بما قسم لكم من قوة ومال واولاد وخضتم المجارى التى خاضوها من فتنة ونميمة وصد عن الحق ومخالفة للمحققين النزيبين فاعلموا ان سلفكم ان كانوا فيما يرون لانفسهم قد فعلوا فعلا صالحا اتخذوه ذخيرة لهم فان ما فعلوه من العمل الصالح لا يقع الا فاقد النتيجة لهم لأنهم لم يبنوا ما فعلوه على اساس وهو الايمان بالله تعالى فكذلك انتم لا تغتروا بما تزوونوه

لانفسكم من صالح الأعمال تتخذونه ذخيرة لمستقبلكم وكما خسر اولئك
نتيجة اعمالهم الصالحة مع الكفر فأنتم تخسرونها ايضا مع النفاق الذى
هو اشد خطرا من الكفر البسيط، ألم يصل الى هؤلاء المنافقين انباء
الأقوام الذين حادوا الله والواقع من قوم نوح الذين اغرقهم الله
بالطوفان وقوم عاد الذين اهلكهم بالريح العقيم وقوم ثمود الذين
اخذتهم السيحة وقوم ابراهيم الذين سلط الله عليهم البعوض واصحاب
مدين قوم شعيب الذين اخذتهم الرجفة وقوم لوط اصحاب المؤتفكات
الذين امطر الله عليهم الحجارة وقلب عليهم ديارهم حتى جعل العالى
سافلا والأئتفك هو الانقلاب فقد اتت اولئك الأقوام رسلهم بالبينات
والبراهين الواضحات فما اصاخوا للداعى الذى مادعاهم الا لصالحهم
الدينوى ووطيد مآلهم الأخرى وما كان الله ليظلمهم حيث اهلكهم ولكن
كانوا انفسهم يظلمون بما سببوه لها دنيا واخرى فى العاجل والآجل .

* (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم :وعهد الله للمؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم) *

سقت هذه الآيات مقابلة للآيات السابقات فكانت تلك فى المنافقين والمنافقات وجاءت هذه فى المؤمنين والمؤمنات وكما اسلفنا كل شىء مربوط بسنخه فكما النفاق مشرع يرد منه من يتذوقه من ذكور واناث كذلك الايمان مشرع يرد منه الرجال والنساء ويكون بعضهم صدقا لبعض ويشتركون جميعا فى الأمر بالمعروف الذى هو كل فعل حسن فى الشرع او العقل والنهى عن المنكر الذى هو كل فعل سىء فى الشرع والعقل وقيمون الصلاة التى هى فى الجبهة والسنام من ركائز الدين ويؤتون الزكاة التى هى الطليعة فى الحقوق المالية ويطيعون الله ورسوله فى كل ما يأمرانهم به وينهيانهم عنه اولئك الواجدون لهاته السمات سيرحمهم الله فى اخرهم فوق ما رحمهم به فى دنياهم ان الله عزيز لا يغالب حكيم يضع الدواء على محل الداء ثم شرح ما وعدهم به من الرحمة بأن ما لهم جنات زاهيات تنساب الأنهار من خلالها يسكنون فيها مساكن طيبة تخلد لهم ويخلدون فيها هذا كله من الجنة المادية وأما من ناحية المعنى فنفس رضوان الله عليهم ومهما قلّ فإنه اكثر واكبر من ذلك النعيم المادى، ذلك اشارة الى الجمع بين النعيمين المادى

والمعنوى هو الفوز العظيم والنجاح المبين .

* (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ

عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون بالله

ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم

وهمّوا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله

ورسوله من فضله فأَن يتوبوا يك خيرا لهم

وان يتولوا يعدّ بهم الله عذابا اليما في الدنيا

وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) *

قد اسلفنا ان سورة براءة قد نزلت في أخريات حياة الرسول الاكرم
 وحين قوى اسر الاسلام وبعدهما طال العهد على انبثاق الرسالة فلا
 جرم ان الله أكد وشدد على النبيّ والمؤمنين في جهاد الكفار
 والمنافقين والزمهم بلفّ حجاب المجاملة والأغلاظ بكل الألوان لمن مضى
 عليه زمن مديد يجامل ويعامل باللطف فلم ينزجر عما كان عليه ولم
 ينخذل عن غيبه هذا هو حكم هؤلاء المعاندين في الدنيا وأما جزاؤهم
 في الآخرة فهو ان مكّتهم ومأواهم جهنم وبئس المصير جهنم، كان
 المنافقون في غيب الرسول والمؤمنين يتكلمون بكل كلام موجه فاذا ووجهوا
 بما نقل عنهم تنصلوا وحلفوا بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر فقد نقل
 عن عبد الله بن ابيّ رأس المنافقين انه قال ما مثلنا ومثل محمّد إلا كما
 قال القائل (سمّن كلبك يأكلك) وكما قصّر الله عنه في آية اخرى لئن رجعنا
 الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ، وكفروا اى تظاهروا بالكفر بعد
 أن ابدوا الاسلام آنفا، وهمّوا بما لم ينالوا فقد نقل عنهم انهم تأمروا
 وهمّوا بتتويج عبد الله بن ابيّ ولم يتحقق لهم ذلك كما صمّموا على قتل

الرسول ثم اخذ سبحانه يبين جهه تضحّم عدائهم بأنهم ما نقموا على الاسلام ونبيه والمؤمنين به الا أن اغناهم الله من فضله فان الحياة المادية اتسعت على عهد الاسلام بما لم يسبق لها مثيل ، فان يتسب هؤلاء من افعالهم الشنيعة هذه يك خيراً لهم فى دنياهم وأخراهم وان يتولوا عن هذه النصائح يعدّ بهم الله عذاباً اليماً فى الدنيا بالأيقاع بهم وفى الآخرة بتقطع الأسباب بهم .

* (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن

ولنكوننّ من الصالحين : فلما آتاها من فضله بخلوا

به وتولّوا وهم معرضون : فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم

الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا

يكذبون : ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرّهم ونجواهم

وأنّ الله علّام الغيوب : الذين يلمزون المطوّعين

من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون

الاّ جهدهم فيسخرّون منهم سخر الله منهم ولهم

عذاب اليم) *

ومنهم اى من اولئك الذين اظهروا الاسلام ولم يتبطنوه من عاهد

الله لئن آتانا من فضله ويريدون به المال لنصدّقن اى نشارك به اهل

الحاجة فنعطّيهم منه بما نوأسيهم به ولنكوننّ من عباد الله الصالحين

الذين يترسمون خطوات اوامره ونواهيه فلما استجاب لهم ربّهم فاتاهم

من فضله بخلوا بما حصلّوه ولم يفوا بما وعدوا واعرضوا عن الصلاح الذى

التزموه على انفسهم جزاءً لأنعه عليهم فأعقبهم بخلهم بما اوتوا ونكوصهم

عن الصلاح نفاقاً فى قلوبهم مستمراً باستمرار غدرهم القائم فى انفسهم

وكذ بهم الملازم لأرواحهم حتى يتصل بهم الى يوم معاد هم وحسابهم ، ألم يعلم هؤلاء الغادرون أنّ الله يعلم ما يكونون في قلوبهم وما يصدر عن افواههم ولو مثل الهمس و انه تعالى علام الغيوب ، الذين يلمزون يجوز ان يكون مبتدأ خبره قوله سخر الله منهم ويجوز ان يكون صفة لمن عاهد الله واللمز هو العيب ومعناه ان اولئك المشار اليهم بالمعاهدة ومضافاتها فضلا عن خلفهم لوعودهم وبخلهم بما آتاهم الله تراهم لا يهدون عن استنقاص من يتصدق من المؤمنين ويسمونه بالسفه وقلّة الشعور ويزرون بأولئك الذين يعطون القليل لأنهم لا يتمكنون مما هو اكثر منه يفعلون ذلك ليغطوا على عيوبهم ويرفعوا وحشة الانتقاد عن انفسهم ، وسخرية الله بهم تشهير حالهم أمام الناس وأبراز قبائحهم والأعلام بمنوياتهم ولهم فوق ذلك عذاب اليم في الآخرة .

وجاء في الأثر ان احد الصحابة واسمه ثعلبة بن حاطب جاء الى رسول الله فقال يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا قال ويلك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه فقال يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا قال ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلى فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معى ذهباً لسارت فقال يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا فوالذى بعثك بالحق ان آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه وأصر على النبي (ص) فقال رسول الله (ص) اللهم ارزقه مالا قال الراوى فاتخذ غنما فنمت نموّاً مد هشاً حتى ضاقت بها المدينة ففتحى بها وكان يشهد الصلاة نهاراً وليلاً مع النبي فصار يشهد نهاراً ولا يشهد ليلاً ثم ازدادت في النمو فأخذ لا يتمكن ان يشهد الصلاة معه (ص) لا ليلاً ولا نهاراً الا من جمعة الى جمعة ثم توسعت اكثر فضاقت بها مكانه ففتحى بها فكان لا يشهد جماعة ولا جمعة ولا

جنازة مع رسول الله ويتلقى الأخبار من الركبان وفقد ه ل طول غيابه رسول الله فسأل عنه فأخبروه انه اشترى غنما وان المدينة ضاقت به واخبروه بما كان عنه فقال رسول الله ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب ، ثم ان الله امر رسوله أن يأخذ الصدقات بقوله - خذ من اموالهم صدقة تطهرهم بها - الآية فبعث رسول الله رجلين يأخذان الصدقات وكتب لهما اسنان الأبل والغنم وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بنى سليم فخرجا فمرّا بثعلبة فسألاه صدقة مواشيه فقال اريانى كتابكما فنظر فيه فقال ما هذه الآ جزية - يريد بذلك الأستهزاء وان ما يريد النبي منه جزية في حال ان الجزية انما تؤخذ من اهل الكتاب وليس هو منهم - انطلقا حتى تفرغا ثم مرّا بى فانطلقا وسمع بهما السلمى فاستقبلها بخيار ابله فقالا انما عليك دون هذا فقال ما كنت اتقرب الى الله الا بخير مالى فقبلا فلما فرغا مرّا بثعلبة فقال اريانى كتابكما فنظر فيه فقال ما هذه الآ جزية انطلقا حتى ارى رأى فانطلقا حتى قدمّا المدينة فلما رآهما رسول الله (ص) قال قبل ان يكلمهما ويح ثعلبة بن حاطب ودعا للسلمى بالبركة وانزل الله ومنهم من عاهد الله الآيات الآفة فسمع ذلك بعض اقارب ثعلبة فأتاه فقال ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا فقدم ثعلبة على رسول الله وقدم له صدقة ماله فقال (ص) ان الله قد منعنى ان أقبل منك فلم يقبل منه حتى مضى (ص) الى رحمة ربّه .

* (استغفر لهم أولاً تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحرّ قل نار جهنم اشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون : فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون : فان رجعت الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً انكم رضيتم بالعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين) *

استغفر صيغة امر ولا تستغفر صيغة نهى والمراد بهما الخبر لا الأنشاء والمنظور بذلك ايقاع التسوية بين استغفاره لهم وعدمه بسبب ان الاستغفار انما ينجع اذا صادف محلاً يؤثر فيه الاستغفار والمنافق المصرّ على نفاقه ليس محلاً لذلك وقوله سبعين مرة ليس المنظور به منطوق العدد ولا مفهومه لأنّه لم يُسَقَ لذلك قطعاً وانما الهدف ان الكثير من الاستغفار كقليله لا يفيد كافرأً مصرّاً على كفره ولا منافقاً مستمراً على نفاقه ولا عاصياً مقيماً على عصيانه كما نطق عزّ من قائل بقوله ذلك بأنهم كفروا بالله وجحدوه وبالرسول فأنكروه والله لا يهدي القوم الفاسقين هداية تأخذ بأعضاءهم وتقف بهم على صميم الحقيقة وانما عليه الهداية المريئة للطريق وقد فعل ، فرح المخلفون اولئك المنافقون الذين جاؤا الى رسول الله واستأذنوه على الأقامة فى المدينة وعدم

الخروج الى تبوك ، بمقعدهم خلاف رسول الله اى باستقرارهم فى اماكنهم خلف خروجه الى غزوة تبوك ولم يكن استئذانهم فى الأقامة عن عذر صحيح وانما هو كراهة أن يجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم لعدم ايمانهم بهذا العمل الأيمانى ومن طريق كفرهم الباطنى قالوا لضعفاء الأيمان لا تنفروا فى هذا الحرّ الهجير مع بعد المسير قل لهم يا محمد نار جهنم المعدّة للمرتابين اشدّ حرّاً من هاجرة الصيف التى تخافونها لو كنتم تفقهون حقّ القضية وقل لهم يا محمد فليضحكوا فى دنياهم قليلا وليبكوا على أجرامهم كثيرا جزاء بما كسبوا من كفر ونفاق وفتنة وشقاق ، ثم يا محمد ان ارجعك الله من سفرك هذا (تبوك) وعزمت على خروج آخر وجاءك من هذا الفريق المخذول نفر واستأذنوك للخروج معك فلا تقبل منهم وقل لن تخرجوا معى ابدا ولن تقاتلوا معى عدوا انكم انخذلتم عنى ورضيتم بالعود أوّل مرّة (فى غزوة تبوك) فاقعدوا الآن فى هذه الغزوة مع الخالفين اى المقيمين ، يقال رجعه رجعا بمعنى ارجعه فيكون متعديا ويقال رجع رجوعا فيكون لازما والمراد بالطائفة فى قوله الى طائفة منهم هى الطائفة المنافقة من المتخلفين فى المدينة فأنه ليس كلّ متخلف كان منافقا والخالفون جمع خالف فى مقابل الخارج .

* (ولا تصلّ على احد منهم مات ابدًا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون : ولا تعجبك اموالهم واولادهم انما يريد الله ان يعذبهم فى الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون : واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك اولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدین : رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) *

جاء فى الأثر ان عبد الله ابن أبى لَمَّا مات دعا جماعته رسول الله (ص) للصلاة عليه والقيام على قبره والدعاء له ومع ان الداعين والمدعو له كانوا من اركان النفاق لم يحسب رسول الله (ص) لانسانيته القهارة لعظيم عدائهم حسابا وأجابهم الى ذلك فصلّى عليه وقام على قبره ودعا له وبعد هذه الحادثة رأى ربّ العزّة ان يُجلّ مقام نبيه عن هؤلاء الأخبث المصرّين على خبثهم فقال مخاطباً له ولا تصلّ على احد منهم مات ابدًا ولا تقم على قبره وعلل ذلك بأنهم كافرون به تعالى جاحدون لنبوته مصرّون على مناوئته حتى انهم ماتوا على هذه الطوية الفاسدة مشبعة ارواحهم بالفسق والانحراف، ولا تعجبك اموالهم واولادهم ليس النهى هنا للنبي (ص) لانه يجلّ عن هذا التنبيه بعد ما تخلق بأخلاق الله حتى طلع بمثالية لا مثيل لها وانما هو من باب اياك اعنى واسمعى يا جاره فان نوع الناس يقولون ان من عناية الله بعبده ان يعطيه مالا جمًا واولادًا كثيرين ويستدلون بذلك على محظوظية هذا الانسان عند ربه لكن ما دخل فى اذهانهم خلاف ما هو الواقع فان الله قد يعطى

عبد ه ابتلاء له واختبارا ليبرز له نفسه ويريه بأم عينيه ذنبه ، وعذاب اصحاب الاموال والاولاد فى الدنيا هو انهم يدأبون انفسهم فى تتميتها وتحسينها من دون ان يزكوها ويطهروها ولا شك أن ادآب النفس عذاب لها هذا من ناحية دنياهم واما من ناحية آخراهم فأنهم لا يموتون الا وهم كفره والكافر لا يستقبل آخرة حسنة بلا ريب .

واذا أنزلت سورة من الله تنطق بلزوم ايمان المكلفين بالله جهادهم مع رسول الله جاءك يستأذنك اولوا الطول والقدرة منهم — والضمير يرجع للمنافقين — فى القعود عن الجهاد لأنهم لا يؤمنون به فكيف يعرضون انفسهم للبلايا والمنايا من طريقه ، رضى هؤلاء المساكين على غير مسكنة فيهم ان يكونوا مع النساء الخوالف اى القاعدة فى مكنتها لسقوط الجهاد عنها حتى كأنهم يفقدون الصلأحيات التى يملكها من هو دونهم مقدرة حال ومال لكن العلة فى ذلك واضحة وهى انهم مطبوع على قلوبهم مختوم على عقولهم محجوبون عن عنايات الله بأعراضهم عنه والحاد هم به فهم لا يفقهون موجبات السعادة ولا يدركون عوامل الشقاء .

* (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم
وانفسهم واولئكَ لهم الخيرات واولئكَ هم
المفلحون: أعدَّ الله لهم جنّات تجري من تحتها
الأنهار خالدون فيها ذلك الفوز العظيم: وجاء
المعدّون من الأعراب ليؤذّن لهم وقعد الذين
كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم
عذاب اليم) *

لكن للاستدراك باعتبار ما تقدّم من قعود المنافقين عن الجهاد
فى سبيل الله ومعنى ذلك ان المنافقين ان قعدوا فلن يضرّوا الله ولا
الرسول ولا الايمان ولا المؤمنين شيئاً فقد جاهد الرسول والذين آمنوا
معه بأموالهم وانفسهم وانتصروا وتقدموا فى اهمّ المعارك واولئكَ هم
المؤمنون حقاً لهم الخيرات واولئكَ هم المفلحون عاجلاً وآجلاً أعدَّ الله
لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ذلك الفوز الذى فازوا
به هو الفوز العظيم الذى لا تعقل غاية أبعاده والمعدّون هنا بضمّ
الميم وتشديد الذال المعجمة المكسورة واصلها المعتذرون فادغمت
التاء فى الذال فشدّت وهم الذين ابدوا اعذارهم فى القعود عن
الجهاد قيل وهم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك اغارت اعراب
طىء على اهلينا ومواسينا ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم
الأيمان بهما بمعنى ان اولئكَ قعدوا غير مباليين بالقعود ولا متترسين
بالأعداء حقيقة كانت ام باطلة بخلاف المعدّرين من الاعراب فانهم لم
يقعدوا غير مباليين بل اظهروا لقعودهم اعذاراً واستأذنوا فكان الأعراب
الجفّة احسن حالا من هذا الفريق الحاضر فى المدينة نفسها ، ثم تّوعد

سبحانه الذين كفروا من القاعد بين المكذبين لله وللرسول بأنهم سيصيبهم عذاب اليم .

* (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم : ولا على الذين إذا ما اتوك لتخملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون : إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) *

تعرض سبحانه في هذه الآيات لأولئك المعذورين عن الخروج بالأعذار الصحيحة حتى يتم تنويع الانواع حول قضية الجهاد والانواع اربعة (١) القادرون على الجهاد الخارجون له مع رحابة صدر وهم الرسول والمؤمنون الواقعيون الفاقدون للضعف والمرض وعوز النفقة (٢) القاعدون عن الجهاد بدون أن يبذروا عذراً صحيحاً ام باطلا انكماشاً صريحاً عن الايمان ونصرته وهم المنافقون (٣) القاعدون عن الجهاد مع ابداء العذر وطلب الاستئذان من الرسول وهم المعذرون من الأعراب (٤) القاعدون عن الجهاد مع الاعذار الواضحة الصحيحة التي ما عليها غبار ، والاعذار الصحيحة التي ذكرها الله هي (١) الضعف ويراد به ما سوى المرض والعوز من النفقة كالشيخوخة وهزال البدن والعمى والعرج ونقصان الخلقة الهادم للقوة (٢) المرض بشتى الوانہ المعجز لصاحبه عن المناهضة (٣) عدم وجدان النفقة لأهله او للحرب

اولهما فهؤلاء ليس عليهم في قعودهم حرج اذا نصحوا لله ورسوله بما يتمكنون عليه من قول وعمل ولا شك ان هؤلاء محسنون لأنهم لم يألوا جهدا في تمشية الايمان في انفسهم و في الاغيار وما على المحسنين من سبيل وهذه الكلمة من امهات الكلمات القرآنية الثمينة التي تتصيد منها قواعد فقهية في شتات الأحكام الفرعية، والله غفور لذنوب هؤلاء اذا بدرت منهم بواد رحيم بهم عطوف عليهم، ولا على الذين : يعنى كما انه ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج كذالك ليس على الذين اذا ما اتوك لتحملهم يعنى تهبأ لهم رواحل يرتحلونها ويحملون عليها زادهم ومائهم لانهم معوزون يفقدون الرواحل ويفقدون اثمانها وجاء في الآثار ما هو اعجب واغرب من ذلك فقد حدث مشيخة من جهينة قالوا ادركنا الذين سألوا رسول الله الحملان فقالوا ما سألناه الا الحملان على البغال، وعن ابراهيم بن ادهم عن حدثه قال ما سألوه الدواب ما سألوه الا النعال، فكان جوابك لأعواذك ايضا لأجد ما احملكم عليه وهؤلاء لشدة اندفاع ايمانهم بهم لما أيسوا من مساعدتك وكانوا في انفسهم عاجزين عن النفقة تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون حتى يكونوا في طليعة المجاهدين وقيل كان هؤلاء سبعة نفر وبهم سار المثل (البكاؤن السبعة) انما السبيل والجرح على الذين يستأذنونك في القعود عن الجهاد وهم اصحاء اقويا اغنيا رضيت لهم همهم المنحطة بأن يكونوا مع النساء مفترشين سواعدهم من الفشل والكسل وضعف العقيدة وطبع الله على قلوبهم لم اعرضوا عنه فهم لا يعلمون المفسد لهم من المصلح .

وأخيرا هذه الآيات وان تعرضت بلسانها الصريح للجهاد وممارسة القتال الا انها بملاكاتهما تتعرض لانواع الجهاد العلمى والعملى فى

تمشية الحق ودك الباطل وانواع هذا الجهاد اربعة كذاك (١) القادر عليه لانه عالم ولانه يضبط شهوته ونهمته فيكون عاملا بعلمه وهذا من اعلا المقاييس المفيدة للمجتمع وقد كان سيد هذا الطراز رسول الله وعلى وتابعهما على خطاهما فى فترات الزمان أمثال وأفاضل أتروا التأثير الواسع فى تشعشع الأجواء .

(٢) الواجد لظاهرة يحسبها الجهال علما وهو مع ذلك يتبطن روحا قدرة وباطنا مظلما وهذا هو المنافق ورد يفه هو الشائع الوجود فى العالم والذى له كل التأثيرات على من كان من طرازه فى تسفل الروح فما شاعت الا راجيف فى عالم الدنيا الا من هذا المعبر الضيق المعتم .

(٣) الفاقد لكل ظاهرة علمية والمتبطن للروح المادية وهؤلاء هم الهمج الرعاع وهم فى الاكثر اتباع المنافقين .

(٤) القاعد عن التبليغ العلمى العلمى لأنه يجد عذراً يقعد به والاعذار الصحيحة هى :

(١) ضعف الشيخوخة وهزال البدن والعمى والعرج المقعد ونظير ذلك من الامور التى تقعد بالأنسان عن ركوب صهوات المنابر ومخاطبة الناس .

(٢) المرض بشتى انحاءه المعجز لصاحبه عن المناهضات اللسانية او القلمية او العملية الجاهرة .

(٣) عدم وجدان النفقة التى تحرز وجوده وتحصن اهله ، فأمثال هؤلاء لو قعدوا لم يكن عليهم سبيل .

*) يعتذرون اليكم اذا رجعت اليهم قل لا تعتذروا
 لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من اخباركم وسيرى
 الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب
 والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون : سيحلفون
 بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا
 عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا
 يكسبون : يحلفون لكم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم
 فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين : الأعراب
 اشد كفرا ونفاقا واجدر ألا يعلموا حدود ما انزل
 الله على رسوله والله عليم حكيم : ومن الأعراب من
 يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم
 دائرة السوء والله سميع عليم ومن الأعراب من
 يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند
 الله وصلوات الرسول ألا انهم قربة لهم سيدخلهم
 الله في رحمته ان الله غفور رحيم *)

وفى هذه الآيات ايضا رقم آخر من التنديد بالمنافقين كما فيها
 التعرض لحال اعراب البوادي ، واو الجمع فى يعتذرون يرجع الى
 المنافقين القاعدين عن الجهاد وكاف الخطاب يرجع الى المسلمين
 المجاهدين يريد تعالى ان هؤلاء المنافقين لاجل بقاء صلتهم بكم اذا
 رجعت اليهم من جهادكم لان المال واحد وهو المدينة جاؤكم يعتذرون
 اليكم من تخلفهم عنكم وان تخلفهم كان لدواعى مشروعة ، قل ، الخطاب
 لرسول الله وانما خصه به لانه طليعة المسلمين ، لا تعتذروا ايها

المنافقون فأننا لن نؤمن لكم بعد أن نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله حلقات أعمالكم المقبلة ويطّلع عليها رسوله أيضاً ثم تردّون الى عالم الغيب والسرّ والشهادة والعلن فى يوم القيامة فيقصّ عليكم جميع ما كنتم تعملون، سيحلف هؤلاء المنافقون مؤيدين لا عذارهم اذا انقلبتم اليهم من جهادكم لتعرضوا عن الطعن فيهم والتحدّى لهم فاذا جاؤكم أعرضوا عنهم ولا تتوجهوا لهم وباعدوهم انهم رجس اى اخبث وأواهم فى المعاد جهنّم يجزون بها بسبب ما كسبوا من عمل سيّء وفعل رديّ، يحلفون لكم على ان تخلفهم لم يكن انتبازاً عنكم لتطيب انفسكم لهم وترضوا عنهم فلا ترضوا بهذا الاستدراج لكم فان الله غير راض عنهم ومتى رضيتم عمّا لم يرض الله عنه فقد شاققتهم ربكم وعصيتهم وهؤلاء قوم فسقة والفسق مبعوض لله وللمؤمنين به ومرتكبه كذلك، الاعراب وهم سكرة البوادي سواء كانوا عرباً فى العنصر ام غير عرب اشدّ كفرةً ونفاقاً من كفرة الحضر ومنافقيهم لبعدهم عن الأخلاق وجفاف طبائعهم وجفاء عواطفهم فلا يعرفون مجاملة ولا حسن تفاهم، واجدر بمعنى اولى واحقّ الا يعلموا حدود ما انزل الله لبعدهم عن المعرفة وانتبازهم عن الثقافة وانكماشهم لوحشيتهم، ومن الاعراب هؤلاء الجفاة من يتخذ ما ينفق فى سبيل الدين انفاقاً مبعوثاً عن خوف مغرماً اى يحسبه خسارة وردت عليه بلا داع يتعقله ويراه كالمأخوذ منه تسراً وقهراً فهو يتربص بالسبب الذى أخذ من طريقه وسببه الدين وأخذ من المنتسبون له دوائر السوء والدوائر هى الانقلابات التى تتمخض عنها مجارى الزمن، عليهم دائرة السوء، بمنزلة دعاء عليهم والسوء بفتح السين وسكون الواو مصدر ساء يسوءه سوء والسوء بضم السين هو اسم المصدر مثل التوضوء والغسل بالنسبة الى التوضوء والأغتسال، ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر هذه الآية

فيها جنبه استدراك لما يظنّ ان كل اعرابي هو اشدّ كفرا ونفاقا، ومعنى كونه يؤمن بالله انه يؤمن عن رسوخ عقيدة وثبات قدم بالله الذي خلقه والذي اخبره بأن له معاداً عليه ووقوفاً بين يديه وينفق من ماله في سبيل الله ايضاً ويتخذ ما ينفعه مقرباً له عند خالقه ومدعاة لأدعية الرسول له بالخير والبركة فان الصلوات في اللغة هي الأدعية ألاً للتنبيه اي ان ما ينفقونه بعنوان القرية الى الله واقعا يكون مقرباً لهم الى الله وسيد خلهم في رحمته ويغفر لهم ما سلف من خطأهم في مقابله ويرحمهم ويعطف عليهم .

وتعليقاً على قوله تعالى الأعراب اشدّ كفرا ونفاقا نقول البداءة والحضارة كلمتان تعادلان معنى الوحشية والثقافة فالبداءة لانقطاعها عن المدارس والمجالس واحتكاك العقول وتداول الفكر ولقربها من الوحوش والسباع والحشرات لا تراها مظنة إلا للمغالبة على الباطل واختلاس الأرواح وانتهاك الاموال وعجرفية الاخلاق والجهل العميق ونتائج القذرة والحضارة معناها سكنى المدن وملازمتها والمدنية مظنة المدرسة والمجلس والعالم والصانع ومرور العابرين من شتى الهويات والسنخيات مضافاً الى ابتعادها عن وحش البادية جفاف جميع ما فيها وبلا ريب يكون من لازم الأولى استغرابها للفضيلة وقربها من الرذيلة ومن لازم الثانية تحببها للمحاسن ونعتها للمساوي ومن هنا قال سبحانه الأعراب وهم سكنة البوادي اشدّ كفرا واضخم حجاباً في عقولها عن درك الواقع وأصلب نفاقاً لانهم يجدون ذلك فيما يمارسونه من الحيوانات كابن آوى والثعلب وغيرهما وابتعد عن درك الحقيقة لتضخم افكارهم وعدم مطالبتها للعقول الناضجة أما الحضاريون فانهم منشأ التقدم في كل دور وفي شتى المجالات، نعم من اختص من اهل

المدن بالتترف والميوعة وتجافى عن عقله وفكره ومطالسة أهل الفضيلة كان هو والاعرابى على حدّ واحد فى عقم النتيجة المتوخاة من البشرية فان المتوخى من البشر الأنسلاخ عن عالم الحيوانات والتحلّى بالملكات العالية الشريفة التى بها تتقدم الحياة الأنسانية لا الضراوة الحيوانية فان البدوى أنما يذمّ من جفاف اخلاقه لا من ناحية مناخه فان مناخه الفضاء الطلق ومرائى الطبيعة العطرة وانما يحمد المتحضر لمرونته اخلاقه لا من ناحية نهيمته وشهوته وتعقلاته المختصة به فانه اذا لوحظ من هذه الجنبه كان احسّ من البدوى بمراتب وخسته من ناحية توفّر المعارف عنده وبعده عنها بخلاف البدوى فان المعارف والعارف بعيدان عن افقه فبعده عنها طبيعى لا تصنّعى ومن هنا نجد دنيا اليوم على توفّر الآليات فيها اشدّ كفرا ونفاقا من عهود الحجرية وادوار البربرية فى كل شىء يعود الى المادّة او الى المعنى .

* (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار
والذين اتبعوهم بأحسان رضى الله عنهم ورضوا
عنه وأعدّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم :وممّن
حولكم من الأعراب منافقون ومن اهل المدينة
مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم
ستعدّ بهم مرتين ثم يردّون الى عذاب عظيم :
وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر
سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم:
خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها
وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم :
ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده
ويأخذ الصدقات وأنّ الله هو التوّاب الرحيم :
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
وستردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبأكم بما
كنتم تعملون :وآخرون مرجون لأمر الله ما يعدّ بهم
وامّا يتوب عليهم والله عليم حكيم) *

المنظور بالسبق والأولية هو تقدّم من تقدّم من المسلمين الى الأيمان
بالله ورسوله في حال لا طمع له بما فعل ماديّاً وانما كان هدفه احقاق
الحق في الدنيا وابطال الباطل عنها ولا شكّ ان هؤلاء محمودون مرضى
عنهم بشرط ان يختموا حياتهم في الدين بما بدؤه فيه ولا شكّ
ان الانحراف المتأخراً ما يكون محبطاً لما تقدمه واما مشوّها لمنظرته بما

يستحق عليه من العقوبة المطابقة للجريمة والمهاجرون هم اللذين تخلوا عن اوطانهم وفرّوا بدّينهم وعاشروا رسول الله في دار هجرته والانصار هم الذين دعوا النبي الى الانتقال من مكة الى دارهم وهي المدينة وتكفلوا نصرته ونصرة دينه والتابعون لهم هم المسلمون الذين ترسموا خطواتهم واحسنوا متابعتهم فيما كانوا عليه من هدى وتقى ولا شك ان مثل هذه العناصر تكون محل رضا لله عنها كما انها هي لما آمنت به عن ايقان كان من لازمها ان ترضى عن قضائه وقدره وكل ما يعمل بههم ، ولا شك ايضا ان الأعداء لهم في الآخرة يكون عظيمًا لا ثقا بكرامتهم وذلك هو الفوز العظيم ، وفيما يأتي من الآيات تعرض سبحانه لأحوال المنافقين وطبقاتهم وتنوعهم الى انواع فقال وممن حولكم اى فى اطراف المدينة من الأعراب منافقون يظهرون الأيمان بالاسلام ويبطنون كفرهم به ومن اهل المدينة نفسها منافقون ايضا مردوا على النفاق اى لانوا عليه ومرنوا واعتادوه واتخذوا لهم فيه مسارب ومراكض تخفى حتى على اللبيب لا تعلمهم انت يا رسول الله نحن نعلمهم سنعدّ بهم على نفاقهم مرتين بأعلان حالهم والأصهار بدخائل قلوبهم بين الناس وبعذاب البرزخ نعدّ بهم ايضا وفى المعاد يردون الى عذاب عظيم ، وآخرون اى ومن المنافقين فريق آخر غير الفريق السابق الذى مرد على النفاق وبقي مرابطا لنفاقه بعد ردهة من تلويهم ومماطلتهم للحق اعترفوا بأنهم كانوا مذنبين امام الله والرسول خلطوا عملا صالحا بعد الاعتراف بالذنوب والتوبة منها وآخر سيئا تقدم على الاعتراف المذكور واولئك عسى الله ان يتوب عليهم ويجرّ سجايفضله على مساويهم السالفة ان الله غفور لذنوب عباده متى اتصلوا منها وعزموا على الاعمال الصالحة فيما يستقبلون من ايامهم رحيم بهم عطوف عليهم ، خذ من اموالهم صدقة هذا تكليف قد

اعتُرض به الكلام على حال المنافقين ان اريد بهذه الصدقة الصدقة الواجبة العامة التكليف المسماة بالزكاة وان اريد بها اخذ الصدقة من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم وقدموا صدقاتهم لرسول الله تبعاً لتصحيح ايمانهم به بعدما منعوها سابقاً او ستروها كانت الآية فى مكانها تابعة لسابقتها فى السياق والصدقة مأخوذة من الصدق فى الدين فان الصادق فى دينه لا يعز عليه ماله اذا اراده الله والرسول منه، تطهرهم انت بسببها فان فى الزكاة تطهيراً اخلاقياً لأنها تؤخذ من الغنى وتعطى للفقير فيحصل نوع من المواساة بينهما وتزكيتهم اى تغسل بها ادراهم المعنوية من البخل والأستئثار والطمع، وصل عليهم اى ادع لهم بالخير والبركة فان دعائك لهم مما يسكن نفوسهم ويزيد فى طمأنينتهم ويجلب عواطفهم، ألم يعلم هؤلاء المعترفون بذنوبهم المنسحبون منها العاملون بما يغطى عليها من الاعمال الصالحة أن الله وحده القابل للتوبة النصوح لان غيره ربما قبل التوبة ولكن نفسه لا تطيب عن الذنب اليه طيباً نهائياً، ويأخذ الصدقات اى يتقبلها متى صدرت عن طهارة ضمير، وقل خطاب للنبي (ص) اعملوا ايها المنافقون اى شئ اردتم وهذا تهديد منه تعالى لا اباحة فان اعمالكم منظورة لله سبحانه وبعينه لا تغيب عنه ويطلع نبيه على ما علم منكم كما يُعلم المؤمنين بذلك وسترّون فى نهاية المطاف الى عالم الغيب والسرائر والشهادة والعلن فيقص عليكم جزئيات ما عملتم واركتبتم، وآخرون اى فريق آخر من المنافقين الى حين نزول هذه الآيات مرجون لأمر الله اى مؤخرون لان من الأرجاء وهو التأخير ان لم تنته اعمالهم بالفعل حتى يقال عنهم انهم ماتوا منافقين وختموا ايامهم كافرين ولم يتراجعوا عما هم عليه حتى يكونوا من الفريق السابق الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فينتظر

بهؤلاء خاتمهم أما الاستمرار على الكفر فالعذاب وأما الانقطاع عنه بالتوبة فالمغفرة والرحمة واللّه عليم بما عليه عباده حكيم فى كلّ ما يأخذ ويذر .

وتعليقا على قوله تعالى وقل اعملوا نقول قل خطاب للنبي (ص) وهى فقرة من فقرات بعثته التى اريد ايقاظ الناس من رقدتهم وتبئيرهم من غفلتهم واستبطان مشاعرهم ونبذ قشورهم وهذه الآية اوقفت المكلفين موقفا مملوء بالخطورة ان كان فى البين عقل يشتغل وفكر يعمل ومفادها ان الإنسان سواء كان مؤمنا بشريعة السماء ام جاحدا لها فان جوارحه لا بد ان ترد الميدان لتعمل ولا بد لهذا العامل ملحدا كان ام مؤحدا من عقيدة يتبناها فى نظام الكائنات فان كل عامل لا يخلو عن ذلك :

(١) أما الملحد فإنه ان يكن يلحد فبعالم ما وراء الطبيعة ولا يستطيع ان يلحد بموحيات العقول فيكون هو والحشرة العمياء على حد واحد وايحآت العقول هى بنفسها ايحآت الشرائع باستثناء التعبديات المحضة من غسل ووضوء وصلاة وصيام وهذه المطالب بأزاء نظام الحياة حتى فى المكلفين بشريعة السماء المعترفين بها رقم ضئيل فعلام نرى الأكثرين توحى لهم عقولهم ما تدونه اقلامهم وتصح به سنتهم ولكنهم فى عملهم الخارجى يناقضون ما يدونون ويفعلون خلاف ما يقررون ويظهرون فترى الشخص منهم يدعى لنفسه المقامات العالية ويريد من الناس ان يعظموه من اجلها ولكنه بعمله نراه يهدم بها ويحطمها وينافق على علم منه ان هناك من يعرف نفاقه ولا تخفى عليه خافية غير انه لما علم ان درايتهم به لا تتعقبها مؤاخذه حاضرة له لم يعد يهتم بها او يرتب اقل اثر عليها لكنه خاطىء فى هذه العقيدة فان تصاريح الاوقات فى اكثرها مخلوقة لأبطال الأحرار الذين لا يهدون عن خلق المناسبات

التي بها يقلبون دورا عن دور وينزلون عن الجبال قممها ولو بعد حين وهذا هو المنظور بجوهر قوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون .

(٢) وأما الموحد فهو يزيد على الملحد وعلى ما يملكه من وحى عقل وحكومة ضمير والهيام وجدان انه يعترف بشريعة سماوية وانه في دنياه وأخراه مورد نظر لله ولرسوله وحسابه ثوابا وعقابا راصد له حتى في الدنيا احيانا فعلا م نراه قد يزيد في انحرافه على الملحد ويأتي بأشياء لا مقيل لها من العقيدة اصلا ولا تهد يد اعظم من قوله تعالى في حق هذا الانسان وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون في الدنيا وأما في الآخرة فستردون الى عالم الغيب والشهادة فضلا عن انه يحاسبكم على ما يشهده الناس بأحد اقمهم يحاسبكم على ما تكتنفه ضمائرهم فان الاعمال على قسمين جوارحية وجوانحية وكلاهما مورد للتكليف وللعقوبة والمثوبة .

* (الذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون : لا تقم فيه ابدا لمسجد أسس على التقوى من اول يوم أحق ان تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين : أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين : لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) *

قرىء والذين بالواو وقرىء بدون الواو فعلى القراءة بالواو تكون هذه الآية فى صدد بيان نوع آخر للمناققين غير ما سبق فى الآيات السابقات وعلى القراءة بدون الواو تكون الآية مبينة لاستئناف حكم جديد والمسجد الذى تعرض له القرآن عرف بعد بنائه والتنديد به بمسجد ضرار والكلمة (ضرار) مأخوذة من القرآن ولم يكن حين بنائه ذا وصف خاص او مضاف اليه كمسجد النبى ومسجد قبا وأسسّه المنافقون ليكون لهم كانوا وفتحاً يصطادون به الأصفياء البسطاء من الناس وكانوا اول ما شئده دعوا رسول الله للصلاة فيه فسألهم عن سبب بنائه فقالوا احببنا تكثير مساجد الله والترفيه على المسلمين بها وكان ذلك عند عزمه على الخروج الى تبوك فأرجأهم الى عوده من سفره هذا فأخبره الله بقصتهم وأبان له ان هؤلاء انما اتخذوا هذا المسجد ليضروا به الاسلام

والمسلمين لانهم لم يشيدوه الا ليكون كانون كفر بالله وبرسوله وتفريق بين جماعة المسلمين بأدخال الشبه والشكوك عليهم فى الدين الذى انتسبوا له وهو الاسلام وخذع المنافقين معروفة واكاذيبهم كثيرة منتشرة، وارصاداً اى مباءة للمنافقين يتجمعون فيه ويقولون فيه ما يشتهون من دون حذر لان المسجد لهم فلا يتأمر عليهم فيه احد بخلاف اجتماعهم فى مسجد الرسول وغيره من المساجد المعمورة بالمسلمين الأتقاح، من قبل اى من قبل أن يبنى هذا المسجد كان هؤلاء محاربين لله ورسوله وانما بنوه ليستعينوا به على اهدافهم المرموزة وان كانوا عندما يسألون يحلفون انهم ما ارادوا الا الحسنى فى بنائه والتوسعة على المسلمين فى اماكن عبادتهم فى حال ان الله الذى يحلفون به يشهد انهم لكاذبون فى أيمانهم، لا تقم فيه يارسول الله اى لاتصل فيه ابداً فان صلاتك فيه تأييد لهم، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أسس وهو مسجدك المعروف باسمك او مسجد قبا على رواية اخرى أحق ان تقوم فيه وان تقيمه، فيه اى عمارة ذلك المسجد رجال يحبون أن يتطهروا اى ان يزيلوا عن انفسهم قذارة الرذائل ويتلبسوا بالفضائل ويتنظفوا فان النظافة من الأيمان فقد جاء فى الاثر ان هذه الآية لما نزلت بعث رسول الله الى عويم بن ساعدة فقال ما هذا الطهور الذى اثنى الله عليكم فقالوا يارسول الله ما خرج منا رجل او امرأة من الغائط الا غسل فرجه فقال النبى (ص) هو هذا، والله يحب المطهرين أدغمت التاء بالطاء فشدت، أفمن أسس بنيانه استفهام يدعوه الاستنكار بمعنى انه لا توازن بين بنيان قائم على التقوى والورع والحقيقة ورضوان من الله وبين مسجد قام بناءه على طرف جرف رملي بأدنى هزة ينهار ويتلاشى والاول هو مسجدك والثانى هو مسجد المنافقين، فانهار به فى نار جهنم اى لما لم يقيم

اساسه الآ على د سائس ورموز والد سائس والرموز لا واقعية لها فهى
كالجرف المنهار انهار ذلك الجرف بهذا البنيان وسقط فى نار جهنم
،والله لا يهدى القوم الملازمين للظلم الى شارع النجاة العـادل
لا نحيا زهم عنه بملازمتهم لما لا يرضى به وهو التجاوز والتعدى وظلم
النفس ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا محلّ ريبة وشكّ ونفاق فى قلوبهم
ولا تزول تلك الريبة منهم ولا ينقطع ذلك الشكّ عنهم الآ أن تقطّع قلوبهم
بالموت والفناء والله عليم بمنويات عباده حكيم فيما يصنع بهم .

وتعليقاً على مسجد ضرار نقول الروحية البشرية باعتبار ما توفر لها
من صلاحيات معنوية ودوافع عقلية انما ينتظر منها ان تكون دائماً وابداً
مظهر خير ومنبع فضيلة وكانون محامد ومحاسن فان الصلاحيات المعنوية
والدوافع العقلية لا تنتج غير ذلك كما انها ليست أهلاً لغيره وهذه
الظاهرة يؤيدها كل ذى عقل بدليل ان كل احد فى العالم يصرّ على
التظاهر بالصدق والوفاء والأبأء والمحبة للضعفاء والايمان والأحسان
وطهارة الضمير والوجدان وبعبارة اخصر واقصر يصرّ على انه من كواين
الفضيلة لعلمه انه ان انسحب من هذه السلسلة فقد فقد قيمته فى
المجتمع الانسانى لكن المرحلة الظاهرة اذا فقدت الواقعية لم تكن شيئاً
بالمرّة وليتها لم تكن شيئاً أوّل مرّة حتى يتحاماها الناس كما تتحامى
الذائقة مرارة الحنظل متى شخّصته انه حنظل ولكن من سوء الصدف
فخاخ الدجل والتدليس لم تترك الحنظل على رسله حتى يبتعد عنه
الأبرياء ولا يقعون فى فخاخ عواقبه المرّة بل طلته بقشر من سكر شهى
يطمع فيه الصفى من حين ان يراه منظر رائع ومذاق حلو فاذا عضّه أوّل
مرّة لاختباره عضّة خفيفة ووجد ه حلوفا عضّه فى الثانية عضّة قوية لما زعمه
من الاطمئنان منه فاذا بالحنظل ملاً فيه والنفاق فى العالم هذا لونه

ظاهر غرار وباطن ضرار ولما كان المنافق يعرف المنافق اكثر من غيره تراه لا
ينخدع به اما الأصفياء فلطمها رتهم من كل دن فرما تعمّت عليه بواطن
المنافقين ردحاً من الزمن فحسبهم كما يتظاهرون ومن جرّاء ذلك ترى
تراهم يلبسون المحن ويتعبون في الخلاص منها ولذلك ايضا ترى
المنافقين اكثر لصوقاً بالطاهرين منهم لغيرهم وترى الطاهرين اكثر محنة
في الحياة ممّن سواهم وشاهدنا على ذلك في الاسلام نبيّ الاسلام
والامام علىّ وولده الحسن ونجمله الحسين وكل من تخلّق بأخلاقهم
اولئك الطاهرون الذين دخلوا معمعة الحياة ولم ينعزلوا عن المجامع
فصادفوا في دنياهم من اهل الختل والدجل ما قلّت مصادفته لغيرهم
من الاصفياء ومن شواهد المطلب في النبيّ الاكرم بناءً مسجد ضرار في
المدينة الذي اتخذوا منه كانوناً نصبٍ وعداءٍ للاسلام وتشتيتٍ للمسلمين
كما قصّه سبحانه .

* (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهد ه من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم : التائبون العابدون الجامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) *

الشراء في الحقيقة هو مبادلة ثمن بثمن في الماديات الدارجة ويجاء به على التمثيل في المبادلات المعنوية فان المناهضات العقائدية لأجل احقاق الحق وابطال الباطل ومبادلتها بالأجر والثواب بيع وشراء معنوي وشراء النفس معناه التطويج بها في سوح القتال هي وما يقسم لها من غالبية ومغلوبية والمراد بشراء المال هو بذله في سبيل الله واقامة كلمته ، وعدا عليه حقا اي ان هذا الوعد سبق من الله للمجاهدين في سبيله الباذلين لأموالهم في اعلاء كلمته لكافة المؤمنين به وأصحر به في التوراة والانجيل والقرآن واذا كان الواعد هو الله الغنى القادر على كل شىء الصادق في كل ما قال ويقول اذا فهل هناك احد اوفى بعهد ه من الله واذا كان المباع شيئاً محدودا والثمن شيئاً خالدا ابديا ونفع الأول مشوبا بألم ونفع الثاني منزها عن كل عيب فبلا ريب يكون هذا البيع مباركا ويجب ان يكون البائع مستبشرا به لأنه حصل بسببه على فوز عظيم ، التائبون اقرب ما يقال في تصحيح هذا

السياق انه خبر لمبتدأ محذوف تقديره أو لئلك هم التائبون يعنى ان البائع لنفسه ولماله من الله المحوّل بهما اليه النازع يده منهما تفويضا الى من اعطاها له هو التائب اى الراجع الى ربه الحامد له بسبب ما استوجب الحمد من المحامد والمحاسن السائح فى الآفاق والانفس للتعرف على عظمة الخالق وبعد ما عرفه ووجده اهلا للعبادة حيث لا أهل لها غيره ركع له تعظيما وسجد تكريما وأمر بين اخوانه بالمعروف ليعرفوا الحق الذى جهلوه فيعملوا به ونهى عن المنكر حتى يجتنبوه الحافظ لحدود الله اى وظائفه وتكاليفه التى جعلها مرزا فاصلا بين الحق والباطل وما يسعد ويشقى، وبشريا نبي الاسلام المؤمنين بالله ان الله اتخذ معهم هذه الخطة وعاملهم هذه المعاملة، هذا وقد ورد فى جملة من الآثار ان المراد بالسائح هو الصائم لانه يترك اللذات كما يتركها السائح فى الأرض وقيل ان المراد بالسياحة الجهاد لقول الرسول (ص) ان سياحة امتى الجهاد فى سبيل الله وقيل المراد بها السياحة فى طلب الحديث والعلم .

وقد اسلفنا سابقا ان الروحية البشرية هى الروحية القائمة على عقل واما المنساقه مع الشهوة والغضب فهى الروح الحيوانية والعقل اخو الأيمان لا استحالة ان يكون العاقل غير مؤمن بحيثيات وكرامات ما وراء الطبيعة وباعتبار ان الجملة الوافرة فى افراد البشر حكمها حكم الحيوان وان كانت صورتها صورة انسان وهذه المجموعة تحاول فى سيرها الحيوى الانفلات على سنن العقل والمنطق والمؤمن لا يرضى ذلك لم فيه من انهيار الحياة وخنق الضعفاء وموت الحق لذا وجد من لازم ايمانه وعقله مبارزة هؤلاء الوحوش بكافة الوسائل المثمرة التى من جملتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والسياحة فى الأرض لأجل ارشاد الضالّ

وتعليم الجهال وإيقاظ عقولهم والمحافظة عملاً على قوانين الله العادلة وإذا لم ينجح ذلك وجب الجهاد والخروج إلى سوح الجلال فإذا كان المؤمن مصداقاً لهذه الملاكات فقد ربح تجارتته وإن انكمش وانزوى بار وبارت عقائده .

والتوبة إلى الله معناها الرجوع إليه باعتباره خالقاً من ناحية وهادياً مرشداً من ناحية ثانية والعبادة اختها في المعنى لأن المنظور بالمولى الحقيقي هو الحادب على مصلحة العبد .
والحمد معناه عرفان الحق لأحقاق الحق لاجزاً لنيل الفواضل منه فان ذلك شكراً لا حمد والحفظ لحدود الله محافظة على شؤون الحياة الصحيحة فانها بدون حدود الله لا تنحفظ .

* (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم اصحاب الجحيم : وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حلیم) *

تقدم فى الآيات السالفات عدّة احكامٍ من الله طرحها للمؤمنين به فى قبال المنافقين والمشركين يجمعها وجوب مقاتلة المؤمن للكافر والمشرك وقطع الروابط بينه وبين المنافق والأعراض عنه وهنا أصحاب للنبي والمؤمنين بأنهم لا يجوز لهم ان يستغفروا للمشركين الباقين على شركهم احياء كانوا ام امواتا ولو كان المشركون اولى قربى لهم وبذلك دك سبحانه كل عروش العصبية كما دلت احاديث جمّة على ان العصبية تدخل صاحبها فى النار وليس المنظور بالنار فقط نار جهنم بل نار الدنيا ايضا فأن الأنسان اذا جفا الحقيقة انحياراً الى العاطفة ذاق وبالها من دون ريب وما انهتك من انهتك فى الحياة الا من هذا الطريق المهلك ، وعلل سبحانه عدم جواز الاستغفار للمشرك ، بأن المشركين اذا ماتوا على الشرك كانوا من اهل النار والمحكوم عليه بذلك ليس محلاً لأن تطلب له المغفرة بعد أن حكم الله على نفسه أنه لا يغفر لهم فطلب المغفرة من العباد فضلا عن انه لا يؤثر يستدل منه على تجافى العبد عن ربه وسوء ادبه امامه وانه لا يحترم الخالق كما يحترم المخلوق وكأنّ هناك نقطة ايهاً وهى استغفار ابراهيم لأبيه فكيف جاز له ان يفعل ذلك وهو نبيّ فدفع عنه سبحانه بأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها اياه فأن قيل كيف جاز له أن يعده بذلك وهو يعلم الكفر

منه والبقاء عليه فأجيب بانه ما كان يعرفه بالكفر الصريح وان كان يعرفه بعدم الأيمان الصريح وذلك امر ممكن فى الكفرة الحافظين لاتزانهم ووقارهم وعدم تحدّ بهم للمؤمنين فقد يحسب فى هؤلاء حساب الأيمان المضر او مقاربتة فيستغفر لهم من اجل ظواهرهم غير المنحازة للأيمان الجاهر ولا استبعاد فى اب ابراهيم ان يكون كذلك اى مسأيراً للظاهرة السائدة فى وقته بدون ان يقف فى صفوف المبارزين لدين ابراهيم او يلتحق بحزبه فلما أبان له الله انه عدو له لأنه لم يؤمن به ولم يكن مؤمناً مستترا كمؤمن آل فرعون بل كافراً واقعياً تبرأ منه ابراهيم ، ان ابراهيم لأواه اى كثير التأوه لما يراه من الانحرافات المتغلغلة فى طبقات المجتمعات سواء كانت فى العقائد ام فى الفروع لكنه كان مع هذا التأثير ضابطاً لأعصابه فلا يعطى توازنه من يده للبوادير يشاهدها بل يهضمها هضماً بطولياً حتى تتسنى الفرص المساعدة لأحقاق الحق وابطال الباطل ، و فى هذه الآية مراکز تعصبية لابتناء التسنن ويروون انها نزلت فى حق ابي طالب وانه لما حضرته الوفاة دخل النبي (ص) عليه وعند ه ابوجهل وعبد الله بن امية فقال له النبي اى عم قل لا اله الا الله احاج لك بها عند الله فقال ابو جهل وعبد الله بن امية يا ابا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فجعل رسول الله (ص) يعرضها عليه وابوجهل وعبد الله يعاندانه بتلك المقالة فقال ابو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى ان يقول لا اله الا الله فقال النبي (ص) لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت (ما كان للنبي) الآية وانزل الله فى ابي طالب - انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء .

ونحن وان اطلنا الحديث عن هذه النقطة فى الجزء الثانى من نتائج الفكر فى شرح الباب الحادى عشر بما ملأ مائة صفحة بتحقيق عميق فلا بد من مؤاخذه هذا الحديث واشباهه بمؤاخذات صادقة كلّها

تهدف الى تزويره وانه من مختلقات ازمان التعصب بعد النبى (ص) لكثير من غيره .

أما أولاً فان اباطالب مات فى صدر زمن البعثة وقبل الهجرة بسنين وسورة براهه ثبت انها من آخر ما نزل على النبى قال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير عند تعرضه لتفسير سورة براءة اخرج ابن ابى شيبه والبخارى والنسائى وابن الضريس وابن المنذر والنحاس وابوالشيخ وابن مردويه عن البراء قال آخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلاله وآخر سورة نزلت تامه براءة فكيف يثبت مفاد الحديث حيث يقول فقال النبى (ص) لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك فنزلت ما كان للنبى .

وأما ثانياً فقد ثبت بتواتر ان عبدالمطلب كان يعلن أنّ حفيده هذا سيكون نبياً ويوصى بنيه بالمحافظة عليه من اهل الكتاب وغيرهم فكيف يعقل مع هذا ان يكون عبدالمطلب مشركا والحديث ينطق بأن اباطالب قال انه على ملّة عبدالمطلب .

وأما ثالثاً فان اباطالب ثبت عنه بتواتر أنّه قال :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير اديان البرية دينا

والذى يقول هذه المقالة يستحيل عليه ان يعتقد الشرك معها .
وأما رابعاً فان الاسلام لولا ابوطالب لما ثبت يوماً واحداً فى مكة بل فى الجزيرة العربية على اطلاقها ولقد خامى وبعّد ورأى من الدواهى ما رأى كل ذلك كان منه فى سبيل توطيد الاسلام ولا يقال انه دافع حمية عن ابن اخيه فان اعمام محمد كثيرون حينذاك ومناهضون له اشدّ مناهضةً وفى طليعتهم ابولهب وعند هؤلاء المساكين - أسراء التقاليد والعصبية - ان اباطالب فى ضحاح من نار وان اباسفيان الذى لا يستريب فيه ولا فى بنيه كل من له ضمير فى الجنة، عجباً للحى وعمائم

تواترت على دنيا الاسلام ومصدر وحيها ابوهريرة وعروة بن الزبير
 واشباههما ولا بد عاذا طوت الدنيا الاسلام كله من جرأء هـ ولاء
 المساكين فإنه كما قيل :

وإذا نبتا البطاح اختلفاً غلب الشوك على الورد الجنى

ويقال فى عصاره ما سبق قد يكون الانسان يرى من العقل ان
 لا يد بين بشريعة العقل فيعمل مع الحق والباطل وانفاضل والجاهل
 والظالم والعاذل عملا واحدا يأخذ بالجميع ويوالى الجميع ويدلس ويؤور
 ويصانع ويداهن ويرى ان ذلك هو الفهم والفتنة ومنتهى الكياسة ولكنه
 مشتبه فأنه لا ينال مآ زوى لنفسه الا لعقة كلعقة الكلب وما ذلك الا
 لان الحق والباطل لهما انصار واقعيون يناضلون عنها من صميم قلوبهم
 وكل واحد من الفريقين مدين لصاحبه الواقعى لا يتجاوزة الى
 المذبذب ولهذا قال سبحانه ان النبى قبل ان يكون صاحب هذه
 السمة وقبل ان يكون من اهل الصلاحيات البارّة قد يتصور فى حقه بما
 هو انسان عاطل من الحسنات ان يكون بالوصف الآنف يوالى الحق
 والباطل بدافع ما يراه كياسة وفتنة وهكذا الذين آمنوا قبل ان يكونوا
 كذلك اما بعد أن صار النبى نبيا بما له من صلاحيات والمؤمن مؤمنا
 كذلك فليس لذاك ولا لهؤلاء ان يستغفروا للمشركين .

* (وما كان الله ليضلّ قوماً إذ هداهم حتى
يبيّن لهم ما يتّقون إنّ الله بكلّ شيءٍ عليم : إنّ
الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم
من دون الله من وليّ ولا نصير : لقد تاب الله
على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتّبّعوه
فى ساعة العسرة من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق
منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم : وعلى
الثلاثة الذين خلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم
الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن
لا ملجأ من الله الاّ اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان
الله هو التّواب الرحيم : يا أيّها الذين آمنوا اتقوا
الله وكونوا مع الصادقين) *

تقدم فى الآيات السالفة النهى عن الاستغفار للمشرّكين وقد كان
جماعة من المسلمين قد استغفروا لمن يهّمهم امره من اخوانهم ورحامهم
الذين ماتوا على الشرك او استمروا مشرّكين وان كانوا احياء فخاف
هؤلاء ان يكونوا لا بسوا خطيئة من جرّاء ذلك وانهم ضلّوا من بعد
ايمانهم فرفعت هذه الآية وما كان الله ليضلّ : الى اخرها - وحشتهم
او انها تعرضت لحكم المسلمين الذين بلغهم الحكم المنسوخ وبقوا على
العمل به حتى من بعد نسخه لعدم اطلاعهم على الناسخ ومن بعد ما
اطلعوا تداخلهم ريب من اجل ذلك فدفع عنهم بالآية المزبورة ومفادها
ما كان الله - النفسى لتنزيه ساحته قدسه عن أن يؤاخذ حتى على هذه
الصور من المسؤوليات بل تقع معفوة لأنها لم تكن مقصوده مع النهى عنها

، ليضلّ اى ليحكم بضلال قوم بعد اذ هداهم للايمان بوسيلة اقامة
الحنة عليهم توسط رسوله حتى يبين لهم ما يجب عليهم ان يتقوه فاذا
بين ذلك واتصل بهم ومع ذلك ارتكبوه فحينذاك يكونون ضالين ان الله
سبحانه ليس من اولئك الذين يؤخذون على الجراف ويعاقبون حتى
مع الجهل هو عليم بكلّ شىء فلا تؤخذ عليه باذرة ولا يرتكب نقطة ضعف
، وانما علم بكل شىء فى حال ان هذه الكلية كاذبة فى حق كل احد
لأنّ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت طبق الحكمة ولا احد يقف امام
تصرفه فليس لأحد من دون الله ولى يحميه ولا نصير يمنعه منه ، فى
ساعة العسرة - ليس المنظور بالساعة الساعة المصطلحة التى هى ستون
دقيقة كما يعبرون بل المنظور الزمان المطلق المنسوب الى العسرة
والمراد بذلك غزوة تبوك فانها صادفت من الناس ضيقاً وحاجةً واسعين
فقد قيل ان العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقونه وكان
زادهم الشعير والتمر المرذولين المنزورين وكان الزمان قائضاً شديداً
الحرّ والمسير قليل الماء حتى همّ قوم بالرجوع فألحوا على رسول الله
بالدعاء ليسيقيهم الله مطراً يمونون به انفسهم فدعا النبي (ص) حتى
سكبت السماء مائها فملئوا ما معهم من ظروف ، فان قيل ما معنى لقد
تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة
العسرة واى شىء صدر منهم فى خروجهم الى هذه الغزوة الشاقة وقد
كان استعمال المدح لهم اولى من استعمال التوبة فى حقهم فالجواب
ان المراد بالتوبة على النبي هى ما سبق الكلام عليه من قوله عفا الله
عنك لم اذنت لهم اى فى التخلف عن الخروج الى هذه الغزوة وقد بينا
انه عتابٌ مثير لا عتابٌ مفندٍ والمراد بالتوبة على غيره اسقاط الجناح عن
الذين تخلفوا لعذر صحيح او كادت قلوبهم تزيغ فى هذه الغزوة من

الجهد والعسر والحرّ وكذلك التوبة هنا لم تصادف ذنبا وانما صادفت مورد عتاب بين احباب، والزيغ هو الميل، انه بهم رؤف لأنهم آمنوا به حقا وصدقا، وعلى الثلاثة عطف على ضمير الغيبة في عليهم من قوله تعالى ثم تاب عليهم اي وتاب على الثلاثة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن امية وذلك انهم تخلفوا عن رسول الله في الخروج معه الى هذه الغزوة لا عن نفاق بل عن توان وتساهل ثم ندموا فلما قدم النبي المدينة جاؤا اليه واعتذروا عنده فلم يكلمهم النبي (ص) وأوعز الى الناس ألا يكلموهم فهجرهم الناس فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ايضا وايقنوا أن لا ملجأ لهم من الله الا هو فلجئوا اليه متضرعين عن قلوب صافية فأظهر لهم توسط نبيه انه يتوب عليهم ليرجعوا اليه عن كل تقصير كان منهم وليرجع اليه كل مقصر ان الله هو التواب على عباد الرحيم بهم، يا ايها الذين آمنوا بالله واعتقدوا به خافوه في كل ما امركم بفعله او نهاكم عنه بفعل الأول وترك الثاني حتى تكونوا مؤمنين عملا بعد أن آمنتم عقيدة وكونوا في جانب الصادقين الذين لا يكذبون فان الصدق منجاة والكذب مهوأة .

وقد يعنى بالآية هذا المعنى وهو ان الله ماكان ليقطع لطفه عن قوم بعد ان هداهم من طريق فطرتهم حتى يؤكد حكومة الفطرة ببيان ما حكمت به جلليا وبعد ذاك اذا خالف المكلف فطرته وتأيدت اللّٰه لها على لسان رسله وكتبه المنزلة وجدّه مستحقا للأعراض عنه لأنّه يكسبون حينذاك عامدا قاصدا لا انه جاهل خاطيء، واذا اعرض اللّٰه عن مكلف بلطفه الخفى او الجلى تركه يتخبط في الحياة مذبذبا بين اهل الأيمان لانه لم يترك الانتساب اليه وبين اهل الكفر لانه لم يلتحق بهم بأصحاب مواليا لهم معاديا لأعدائهم وهذا الداء احد امراض المسلمين التي

حطمتهم في الجوامع والأجيال كما تراهم بالصورة المخزية التي هم عليها الآن وهي نتيجة تذبذب اتصلت حلقاته بما بعد فوت زمن النبي .

مثلا السقيفة أول تذبذب وانتهاز صدر بين المسلمين فأنا مع الغض عن النصوص التي ادلى بها النبي لخلافة علي وأولها حديث وأنذر عشيرتك الأقربين وآخرها حديث الغدير نرى نفس تسرع ابى بكر وعمر وابى عبيدة بن الجراح وسعد بن عباد إلى السقيفة ليستخلصوا منها حكومة اسلامية من الانتهازات الواضحة لاعتراف الجميع بأن هناك من الذوات الاسلامية التي لم تحضر السقيفة ولم تستدع إلى حضورها عددًا غير منزور كعلي وعمار وابى ذر والمقداد وعبدالله بن مسعود وغيرهم ممن اكبرت التراجم فضلهم وشخصياتهم الاسلامية فالمتسرعون فضلا عن كونهم خنقوا ابحاث فطرتهم خنقوا كل الملاكات الحقّة فى تعيين مصير الأمة باتخاذ زعيم بالانتخاب الصادق العام او رأى اهل الحل والعقد او بالقرعة بين اهل الصلاحيات ومن السقيفة بدت النار تشتعل تحت الرماد .

وهكذا الشورى فانها ان تكن معقولة فى هؤلاء الستة على والزبير وطلحة وسعد وعثمان وعبد الرحمن بن عوف لكنها كانت انتهازية فى جعل المرجح هو خصوص عبد الرحمن بن عوف وليس الداعي الى ذلك الا حرمان عليّ منها لعلم عمر ان عثمان لا يتنازل لعليّ وان سعدا موافق لعبد الرحمن لكونهما زهريين فاذا اتفق سعد وعبد الرحمن ورضيا او رضى عبد الرحمن بأحد فان الخلافة تكون له وعبد الرحمن له اتصال بعثمان فلا ريب على هذا فى ان الخلافة تكون لعثمان على الأخص ان عمر كان يقول ان عثمان ليحمل بنى مروان واخوته الأمويين على رقاب المسلمين فأن هذا معناه ان عثمان كان خليفة قبل الشورى .

وهكذا تخلف اسامة بن زيد وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر وتملص طلحة والزبير عن خلافة عليّ والبيعة له معناه فتح الباب لمعاوية بن ابي سفيان حتى اخذ الانتهاز يحور له صفات التجليل وانه صحابي ابن صحابي وانه خال المؤمنين وانه من كتاب الوحي وانه قرشى ليقابل بها شخصية عليّ السلامية .

وهذه الأدوار الاسلامية تبطنها الفشل من اول بذرتها - السقيفة - لكنها لم تجد مناوئا قهارا حتى يهدمها الى ان قوى الغرب على الشرق فظهرت تلك الآثار جلية وانخذل المسلمون امام الغربيين - انخذلوا الا تراه الأحداق بجلاء .

* (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين : ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) *

سيقت هذه الآيات لتكون اصلا مثبتا لنتيجة ايجابية بعد ما تقدم من الآيات السالفات التي فيها تأنيب شديد على التخلف عن الرسول وانه بين كونه مأثما ونفاقا ولازم اثباتها ان المحيطين بالنبي من اهل المدينة واطرافها من حملة السلاح الفاقدين للأعداء الواقعية لا يجوز لهم ان يتخلفوا عنه اذا هو سار الى جهة ولا يعتزوا بأنفسهم بعد ان

ارخص نفسه فى صالحهم وليس هذا الا يجاب عليهم ايجابا اجوف خاليا من النتائج بل فيه من النتائج اثنتان (١) العزّ والتمكّن الدنيويان (٢) والأجر والثواب الأخرويان ، ذلك :فيها جهة تعليل : بأنهم لا يصيبهم ظمأ فى هذا الطريق ولا نصب وهو التعب ولا مخمصة وهى الجوع فى هذا السبيل الربّانى ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار بأن يتقدموا فى ارضه ولو مقدارِ بشرٍ فان ذلك يغيظه جدّا ولا ينالون من عدوّ نيلا وقتلا او جرحا او اذلالاً الاّ كتب لهم به عمل صالح انّ الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون من اكياسهم نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا وهو الوهدة بين جبلين الاّ كتب لهم ما فعلوه ليجزئهم الله من عنده أحسن ما كانوا يعملون فأنه هو الوفىّ الواقعى دون من سواه .

وأصولا يقال الحياة البشرية وان كانت فى اصل طرحها من الله لا تعرفُ فى مفهومها تنازعا او تضاربا او تناحرا يعنى ان الله لم يخلق البشر ليوقعهم فى هذا الأرتباك المزعج كما يُشكل به المتجدد دون على القائلين بوجود الصانع الحكيم لأن العقول البشرية تحكم على كل عاقل بأن لا يتجاوز عن حقّه وان يعطى حقوق الأغيار من نفسه وهذا المعنى يتجلى صريحا فى شخصين عاقلين مثاليين مُتدّنين فانه لا يعقل فيهما ان يتخاصما وان ضاع عليهما الدرب فاحتاجا الى ثالث مسيّا اليه بتوأدة ومسالمة ومتى عرفهما الطريق سارا عليه الاّ انه ويا للأسف لم يتحقق هذا المفهوم فى الخارج الاّ فى افراد منزورين حكمهم بالنسبة الى الكثرات المنتشرة على وجه الكرة حكم المعدوم فصار بالأصل الثانوى كون الحياة ميدان تغالب وتنازع وبعبارة أخرى لما تحكّم فى ذهن البشريّة ان الانسان لا يعدو ان يكون حيوانا ذا نهمّة وضراوه تبدلت الروح الانسانية فى الناس الى روح حيوانية محضة والروح الحيوانية معلوم امرها ذئب

وشاة قوى وضعيف صلف وخمول فاضل وسافل وبطبيعة ان الضعيف يريد ان يعيش والفاضل لا يهوى الموت ولا يسلم وهو قادر على التخلص منه كان من لازمه ان لا يعين على نفسه فيستضعف وان يمشى الى غيره ممن هو على ركيزته وطبيعته فيألف معه حتى يصير من نفسه ومن غيره قوة بها أن تدفع وتقمع الطرف وهكذا رأينا في الحياة ان المحرومين بجامع المحرومية يألفون ويشيدون لأنفسهم نقابة يشايعونها حتى يتغلبوا على الحوادث ويستطيعوا ان يعيشوا ومن اهمّ النقابات العالمية الذين فان الدين منذ عرفه البشر كان علما لضعفاء بنى آدم الذين كض بهم الظلم وأنامتهم المحروميات على وجوههم وأما الأقوياء فان غرورهم بقوتهم تنسيهم كل شيء وكل نقابة في العالم لا تنجح الا في المفاداة من افرادها والألتفاف حولها وصرف النفس والنفيس في تشييدها وابعاد صداها وزعيم النقابة لا تقوى روحه ولا يستمر نشاطه الا اذا رأى فئة قائمة بواجبها وزعيم النقابة الدينية هو النبي وافراده كل من انضوى تحت رايته ورأى ان تأمين حقه وسلامة شرفه منوطان بعلو مقامه ومن هنا قال تعالى ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الذين آمنوا برسالة محمد بن عبد الله ان يتخلفوا عنه اذا مشى الى جهة ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه فيدعوه في الميدان وحيدا لم لا يسوغ لهم ذلك لانهم لا يصيبهم ظمأ في طريقهم ولا نصب ولا تعب ولا جوع ولا عراء في سبيل الله وهو سبيل العدل الأجماعى ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار بعلوهم ورفعة رؤسهم ودوس جماجم الكفر بأرجلهم ولا يصيبون من عدو متغطرس نيلا الا كتب لهم به عمل صالح في الدنيا والآخرة في الدنيا نعمة وشرف واستقلال وفي الآخرة ما أعد الله لعباده الذين ارتضاهم ان الله لا يضيع اجر المحسنين ولا المتاعب تذهب

سدى على اهلها ولا ينفقون من اموالهم او قواهم نفقة صغيرة ولا كبيرة
فى هذا الصدد ولا يقطعون واديا او يصعدون جبلا الا كتب لهم
ليجزئهم الله احسن ما كانوا يعملون .

* (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل

فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا

قومهم اذا رجعوا اليهم لعلمهم يحذرون : يا ايها

الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار

وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين) *

سبق فى الآيات السالفة قوله وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من

الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله فكأنه افاد النفير العام فى كل غزوة

يغزوها رسول الله فأفيد بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة انه ليس

المنظور هو النفر العمومى بل ما تقوم به الحاجة والباقيون فى المدينة

يفضون فراغهم فى التفقه فى الدين حتى اذا رجع الغزاة اليهم علموهم

ما فاتهم علمه ، قيل ان هذا وجه من وجهى تفسير الآية وفيه نظر واضح

فان فى قوله ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا

عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ظهوراً واضحاً فى لزوم متابعة

النبي وشدّ ازره والتكتل حوله اذا خرج بنفسه للمعارك وهذا النفير

العام لا يفقد اثره على كل حال عظمت الموقعة ام هانت لأنّ تكديس

الأجتماع مفيد مضافا الى ما فيه من حفظ حياة النبي بالتجمع حوله

وتعزيز موقفه ولا تصلح الآية الثانية وما كان المؤمنون لينفروا كافة ان تكون

استدراكا للأولى لان الباقيين فى المدينة بعد خروج رسول الله الى

الغزو ليسوا اهلا لأن يتفقه عليهم ورسول الله موجود ووجوده انما هو

مع الماضين معه فالذين معه يملكون مصدر التشريع معهم فكيف يتعقل
والحال هذه انهم يرجعون الى اخوانهم الباقين فى المدينة ويدرسون
عليهم ما حصلوه من رسول الله او غيره ألا يكون هذا أكلاً من القفا بأن
يأخذ الانسان ما كان بواسطة عن الرسول ويذر التفقه على الرسول نفسه
لا يقال ان رسول الله فى غزوه محارب والمحارب لا يملك فرصة التعليم
فأنا نقول المسير الى الحرب ليس كآلة قتالا بل الفرص متوفرة فيه على
طول الخط مضافا الى أن فى هذا المسير بروز حوادث مستجدة لها
احكامها وعلمها منحصر به (ص) اذ لا يعرف الاغيار عنها قبل حدوثها
شيئا ، فالأولى ان يقال ان آية النفر آية بحيايتها واستقلالها تكفلت
وجوب طلب العلم على الناس وبطبيعة الحال لا يستطيع الناس كلهم
ان ينفروا لطلب العلم لان ذلك يحتاج الى تفرغ والتفرغ لا يتيسر لكل
احد كما هو واضح فينفر من كل فرقة وبلد من المؤمنين اينما كانوا طائفة
ليتفقهوا فى الدين على اهل الصلاحيات فاذا رجعوا الى قومهم انذروا
بتكاليف الله لعلمهم يحذرون مواقع نهيه ومناطق امره .

ولا يخفى ان الحياة الواقعية التى اريدت للبشر هى الحياة القائمة
على دعائمين علم صريح من الخرافات والأوهام وعمل صحيح بذلك العلم
أما العلم الصريح فهو ما تكفلته العقول بفطرتها او أرشدت اليه من
ناحية الغيب او التجارب القطعية سواء كان قائما بتعديل النفس
وتحديد خطواتها وهو الأهم ام كان قائما بتأمين المؤنة المعيشية
كالصناعات التى بذل البشر لها جهده واستخلصها من الطبيعة ليحيا
بها حياة سعيدة لكن لا سعادة فيها اذا لم تهيمن عليها نظم الدين
الواقعية وتعاليمه العلمية ورياضاته النفسية وأما العمل الصحيح فهو ما
قام قياماً يفقد كل شوب فى كلتا جنبتي علوم الدين والطبيعة يعنى ان

العالم بهما انما يحاول إسعاد نفسه وإسعاد مجتمعه بجميع ما فيه ،
 أما العلم المشوب بالخرافات فهو مطيح بكرامة العقل والعلم معاً بلا
 فرق بين انتسابه للديانات والشرائع او للطبيعة والكونيات وأما العلم
 الصحيح الذى يتاجر به فهو فضلا عن كونه خطأ للعلم ذاته متلفسة
 للمجتمع وما انتكث الجهل على العلم ولا تغلب الضلال على الهدى ولا
 افتضح من افتضح الآ من جرّاء ذلك وكل الانتكاسات التى اطاحت
 بالاعمار والاجيال والحيثيات والكرامات انما هى نتيجة المتاجرة بالعلم
 والحقيقة وما استرذل هذا الزمان واهله على ما فيه من تزويق ورونق الآ
 من طريق تيك المتاجرات المتعفنه التى اشرنا الى طرف منها ، يا أيها
 الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار تكفلت هذه الآية وجوب
 قتال الأقرب الى حوزة المسلمين من الكفار ولا يجوز قتال الأبعد منطقة
 الآ اذا آمنوا شرّ الأقرب وخافوا شرّ الأبعد وليجدوا فيكم غلظة على
 دينكم وخشونة فى المقاومة حتى يهابوكم فينخذلوا أممكم ، واعلموا ان الله
 مع المتقين الذين يراعون جانب تكاليفه فيقربون من الواجبات أخذاً
 بها ويبتعدون عن المحرمات تركاً لها .

* (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون: أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون: واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون: لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم: فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) *

في صدر هذه الآيات عودة على المنافقين وذكر قبائحهم وخلصته ان الله اذا انزل سورة لم يكونوا مسبوقين بها وبلغتهم قال بعضهم لبعض او قالوا للمؤمنين أيكم زادته هذه السورة ايمانا جديداً بالله بسبب معارفها وما احتوت عليه من علم شامخ ومعرفة جليلة يريدون بذلك السخرية بمعنى انها لم تزدنا ايمانا كما لم تزد غيرنا فأما الذين لم يتبطنوا الكفر ولم يضمروا الخبث وكانوا اناسا نزيهين فانهم يزدادون ايمانا بالله وبعلمه وبقدرته كلما انزلت آية فضلا عن السورة بكاملها ويستبشرون بتحصيل ثقافة كانت مفقودة لديهم وعلم ما كانوا مسبوقين به وأما الذين في قلوبهم مرض النفاق وخبث الكفر وظلمة الجهل وريب اهل السوء فنزل كل سورة بل آية يزيدهم خبثاً الى خبثهم لانهم كلما اطلعوا على كرامة جديدة للاسلام تأثروا وحقدوا واستمروا على ذلك

حتى الموت على الكفر وسوء العاقبة أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم
يختبرون كل عام مرة أو مرتين وتظهر عليهم آثار كفرهم ظهوراً واضحاً
ومع ذلك لا يتوبون من نفاقهم ولا يذكرون ولا يعودون الى مشاعرهم
الواقعية واذا أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض شبيه المتغامزين
ويسأل بعضهم بعضاً هل ترون أحداً نتقيه فأذا أمنوا من وجود من
يلحظون جانبه أفاضوا فيما أرادوا من الهزء والسخرية ثم انصرفوا الى
منازلهم بعد شوط صرف الله قلوبهم عن مواجهة الحقيقة بسبب انهم
قوم لا يعرفون ولو كانوا اولى معرفة لما بقوا في هذا التيه، ثم انه سبحانه
ختم هذه السورة بذكر نعمة عظيمة انعم بها على الناس عموماً وعلى
العرب خصوصاً وهي ارساله الى البشرية انساناً من سنخها يعز عليه
كل ما يوجب مشقتها واجهادها وتدهورها في الحياة من فقر وممرض
وجهل وظلم وارتباك امور وانحطاط كيان حريص على تحوير اوضاعها من
الفقر الى الغنى ومن المرض الى الصحة ومن الجهل الى العلم ومن
الظلم الى العدالة ومن الارتباك الى الأطمئنان ومن الانحطاط الى
الرفعة والتعالى بالمؤمنين الذين انقذوا انفسهم من تيه الضلال
وأركبوا جادة الهداية رؤف رحيم فان تولى عن رسالتك جاهل واعرض
سافل فقل الله يكفيني منهما ويعيضي عنهما لا اله ولا مقتدر الا هو
عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وهو العالم كله ورب العالم ليس
احد فوقه او يضاويه حتى يلتجأ اليه .

وهذه الآية من اعظم الآيات في هذا السياق معنى وأدقها مغزى :
أما أولاً فعالم الرسالة والأخذ على العاتق بتعليم الجهال وهداية
الضلال وكل الناس جهال ضلال الا من استحيى لنفسه فلم يرض لها
أن تحشر في زمرة الحيوان الهامل من اعظم خدمة تتصور في عالم

البشرية ذلك لان الخدمات المادية كما يعتز بها العصر الحاضر مدعاة للرقابة من ناحية والغرور الحيوانى من ناحية ثانية والحيوان اذا فقد التربية وحسن اكله وشربه واتسعت راحته صعب الاستفاد منه وصار جامحاً شامساً لا يستفاد منه اقل القليل مما يصرف فى حقه كما هو مشاهد محسوس اذا فالخدمات المعنوية التى تشرح فى الإنسان عوالم العقل والفهم وتقضى فيه روح الضراوة والاندفاع وتعينه على نفسه الطاغية هى اساس الحياة وركيزتها وليست الحياة المعنوية بالتكشف والتظاهر بالزهادة الفارغة ولا تتحقق هذه الخدمات الا بعوامل :

(١) نزاهة الخادم وصفاءه وروحانيته المتبطنة لشراشر وجوده وتمييز هذه السمات والعتور على هذه الصفات مما لا يحصل الا للطالب المتورع لا الساذج العجول الذى لا يهمنه من نفسه ومن غيره ومن حاضره ومستقبله اقل شىء ذلك الانسان الذى يريد أن يعرف بكونه مبدئياً ولكنه لا يترث لتبطن الحقيقة فتراه يؤمن بنبوته مسيلمه وسجاح ويدين لمخرقات علي محمد الباب .

(٢) رضوخه لتحمل المسؤولية مجانا ومهما جرت عليه الحوادث من دواهى حتى يرتبط بمقصوده ويعرف صدقه فى دعواه من كذبه .

(٣) وجد انه للسلاح الذى يبارز به وجدانا قائما على مقاييس واقعية لا مخرقات واكاذيب وتمويهات .

(٤) عطفه على الضعيف روحا وحنوه عليه لباً .

وهذه العوامل الاربعة توفرت بحد اعلا فى نبي الاسلام فكان جديراً بما وصفته هذه الآيه لقد جائكم يا جماعة الناس رسول مبلغ ومعلم مرشد من سنخكم يزنكم بما يزن به نفسه ويحسب لكم ما يحسب لها وتعز عليـه مشاقتكم الحيوية فيتألم لجهل الجاهل ولمرض المريض ولفقر الفقير

ولضعف الضعيف حريص عليكم يريد بكم ان تبلغوا اقصى درجات
السعادة رؤف رحيم بأولئكم الذين يحاولون الانغماس في الايمان فأن
اعرض بعد هذا عنك احد فقل حسبى الحقيقة حين اعرفها واجهد في
طريق تعريفها للناس .

* (سورة يونس) *

مكية فى قول الاكثرين عدد آيها مائة وتسع آيات .

* (بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب الحكيم : أكان للناس عجباً أن اوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس و بشرّ الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربّهم قال الكافرون أنّ هذا لساحر مبين : ان ربّكم الله الذى خلق السموات و الأرض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع الاّ من بعد اذنه ذلكم الله ربّكم فاعبدوه أفلا تذكرون : اليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً انه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط و الذين كفروا لهم شراب من حميم و عذاب اليم بما كانوا يكفرون) *

تقدّم طرف من الكلام على الحروف المقطعة الواردة فى الكتاب العزيز ، تلك ، اشارة الى ما يسرد من الآيات و كان الحق ان يقال هذه آيات الكتاب و لكن جىء بصيغة البعيد تدليلاً على الأجلال فان من دواعى الأتيان باسم الأشارة للبعيد و المشار اليه قريب هو التعظيم له ، و الكتاب الحكيم هو الذى يوقف قارئه على الحقائق فان الحكمة هى بيان حقيقة الشىء ، أكان للناس عجباً ، استفهام استنكار ، أن اوحينا الى رجل منهم ، يسبك الفعل المقرون بأن المصدره فيكون اسماً لكان

وجهة الاستنكار عليهم أنهم تعجبوا من ارسال بشر منهم اليهم فقال تعالى و اى عجب ترون فى ذلك فانكم من حيث الخلقه انما تستطيعون أن تواجهوا امثالكم لان الجنّ و الملائكة ليسوا من امثالكم فى اصل خلقتهم ولا ترونهم بأعينكم و ان امكنهم الله بادّراع صور البشر فما يدريكم انهم ليسوا ببشر و انهم جنّ او ملائكة اذاً فالذى يمكن ارساله لكم هو الانسان و الانسان فى هويته التبليغية التعليمية لا يؤخذ فيه غنى او فقر نبوغ شخصى او تطامن على ان الله لم يرسل رسولا متواضعا فى نسبه و حسبه بل اختارهم من عناصر منتجبة و محمد من هذا القماش فكيف اخذكم العجب من ارساله ، أن انذر الناس اى خوفهم عواقب الملابس الساقطة ، و بشر الذين آمنوا بالمقدسات العالية أن لهم فى مآلهم قدم صدق اى محلا محترما عند ربهم ، قال الكافرون لما جاءهم هذا الرسول الكريم بهذه الرسالة الجليلة انّ هذا الانسان لساحر مبين اى واضح جلىّ سحره و ليس برسول فى حال ان دعوته المومأ اليها لا ربط لها بالسحر و الساحرية و انما هى عظة و ارشاد فكان من الحق ان يسموه بآته عالم لا ساحر و لكن جهل العامية و حسد التسفل قاما بهم هذا المقام و أنطقاهم بهذا النطق القذر ، أن ربكم الله ، كاف الخطاب الجمعى للناس ، الذى خلق السموات و الأرض ، بمعنى انه يجب ان تكون عبادتكم لمن خلق السموات و الأرض و الأصنام و سائر الموجودات الأخر التى ترونها ليست هى الخالقة بل هى مخلوقة و من المخلوقات الضعيفة ايضا ، فى ستة ايام ، هذا العدد ورد فى آيات عديدة و الزمان الطويل و القصير سواء بالنسبة الى من اذا اراد شيئا قال له كن فيكون ولو كان الزمان له دخاله فى ذلك كما له فى افعال الفاعلين لكانت الأحقاب و الدهور قليلة فى هذه الخلقه و مع ذلك كله فلا نفهم معنى

واضحا للسته الأيام التي كرّر ذكرها في الكتاب العزيز وهو اعلم بما قال ، ثم استوى على العرش ، عرشه كل الكون كما جاء في آية الكرسي وسع كرسيه السموات والأرض واستوائه استيلائه ، يدبر الأمر ، اى يصلح الشؤون لأهلها ، مامن شفيع للمكلفين الآ اعمالهم القائمة بوظائفهم والآ فشفاعات الشفعاء لا تكون من احد الآ من بعد أن يؤذن له ، ذلكم ، الموصوف بتلك الصفات هو الله ربكم فاعبدوه فإنه لا يستأهل العبادة غيره أفلا تتذكرون و ترجعون الى عقولكم فى عبادتكم لغيره ، اليه مرجعكم ومعادكم جميعا ، اعرفوا وعد الله حقا انه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى ، تعليل للأعادة ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط وهو العدل ، والذين كفروا بعد اقامة الحجج عليهم لهم فى الآخرة شراب من حميم يغلى فتغلى منه البطون وعذاب اليم بسبب ما كانوا يكفرون .

و فى الآيات السالفة نكات غير ما اسلفناه .

أما أولا - فالانسان الحرّ فى يقظته و ضميره حتى لو كان بعيدا عن تحسس ما وراء الطبيعة و لوازمها من ثواب و عقاب و دار اخروية ولم يؤمن بالوحى و الطالعين به يجب عليه ان لا ينسى مشاعره الانسانية و يقبح بما يراه فى عصره و مصره و ابناء جلدته من معاصريه و معاصريه فان ذلك قد يورده موارد التلف و قد يكون حاسبا هذا التلف من لوازم خلقته الطبيعية فهو أن يأسف لما يصيبه يعزب عن ذهنه أنه لتقصيره فى حق نفسه و يحسب أنه طبيعى له ولا علاج لما تحكم به الطبيعة فى حال أنه غالط فى ذلك أشدّ الغلط لانه كان عن تقصيره لا عن الطبيعة نفسها .

مثلا كان اعراب الجاهلية بشتى طبقاتهم عزيزهم كالرئيس الوراثى

يرى ان هذا المقام و توابعه من التعدّي على الأغيار و الرفاه الذى يعيش فيه من الحقوق اللازمة له كما كان العبد يرى ان العبودية جزء من ذاته ليس به أن يتملّص منها و كانت الأنثى ترى نفسها بالذات ناقصة ذليلة و الذكر يرى نفسه بالذات مجللاً مبعلاً كما كان جميع اهل الجزيرة يرون ان هذا التسبب و الأهمال و اللصوصيات و الغارات من آثار الطبيعة الوضيعة التى لا يمكن تبديلها اصلاً ولا شك ان هذا النظر فاسد كاسد لأبعد درجة تتصور بدليل ان نبيّ الاسلام وهو فرد لما ادرك هذه النقيصة فى مجتمعه و وجدها قابلة لان تنسخ و تبدل و حدّ الأقل من طريق اجتماعى اخلاقى ان لم يتمكن من التحوير الطبيعى سعى لها وهو فرد اعزل فحور الجزيرة العربية تحويراً قلبها رأساً على عقب فعرف الرئيس الوراثى انه كان واهما و العبد انه كان خاطئاً و الانثى انها كانت غالطة و الذكر انه كان بعيداً عن الصواب و رأت البيئة الاجتماعية انها تحولت من حال الى حال اخرى لا تتفق معها فى كمّ ولا كيف و ذلك نتيجة لأعمال العلم الصحيح بالعمل الصريح و اولئك الذين كانوا يعجبون من قول من يقول لهم ان الرئيس غلط و العبد خاطيء و الأنثى عازبة الذهن و الذكر لم يدرك الواقع اصبحوا يعتقدون ان البيئة تبدل و تغيّر و ان المبدل المغيّر هو التيقظ الصحيح و الأصرار عليه بتقيظ الناس و اعمال النزاهة معهم و رأوا أن نبيّ الاسلام لما جاء فواجه ما لم يتصوره من المواجهات الوحشية القدرة مع ذلك الأعنات به اخذ ينذر من المفاسد و يبشّر بالفضائل فى شتى صنوف المعاملات و المعاشرات هناك ادركوا بعد ربح من الزمن كيف فعلت انذاراته و اثمرت تبشيراته و كيف قلب الدنيا رأساً على عقب فى كل شىء ولا يستطيع ان يقول قائل انه اعلم الزور فى

ذلك - لِمَ لَا يستطيع - لأن زور النبىّ حصل من بعد ما هيا له جيشا بسبب الأنداز و التبشير .

و زمان هذا المثل و ان كان تعدّى و دوره قضى و مضى حتى جاء اهل هذا العصر فحسبوا ان هذه الدنيا بما احتوت عليه من طرائق و خلائق غير قابلة للأفعال بعامل اصلا و انّ ما يحاوله الاخلاقيون محاولة فاشلة و لكنهم اخطأوا فان المقارنة بين مفرد محمّد و جميع معاصريه من كافة حيثيات المقارنة تعطينا كلّ الأمل بقلب الاوضاع رأسا على عقب لكن مع العلم الصحيح و العمل الصريح كما كانت هاتان العدتان سلاحا لمحمّد خصوصا و التيقظ الفكرى فى زمانه هذا اعظم و اهمّ من تلك الأزمنة و ان كانت المغريات فيه اكثر و اوفر .

(٢) ان عقيدة التعطيل سابقة فى البشر غايته كانت فى سابقها بلون و اصبحت اليوم بلون آخر اما فى سابقها فقد كانت بلون بسيط منشؤه التعثر فى مجارى الحياة و ما يلوح من اثر التسيب و الأهمال على المجتمع بملاحظة شتات طبقاته فكان يقال لو كان فى البين خالق حكيم لما طلع المجتمع بهذه الطلعة الكالحة اذا فليس فى البين شىء و لذلك نرى الحياة بهذا التلون السخيف اما اليوم فقد اغرت الناس بالألحاد اكتشافات الطبيعة و العلوم التى استطاعت ان تستخدمها و تولّد منها و تغرق الانسان بالنعيم المزور الملهي و كلا المنشأين باطل اما التعثر فى مجارى الحياة و كلوح الطلعة فهو ناشىء من تمرّد الافراد انفسهم على الحق و طردهم لما يسعدهم باختيار من انفسهم و اما الاكتشافات الطبيعية و العلوم التى استخدمتها فهى من لازمها ان تكون ادعى للتفكر فى عظمة الكون و الكائنات و أعرق فى الدعوة الى الاعتراف بمبدأ عنه صدرت فان الجزاف و الركود لا مقييل لهما من العقل نعم الأغراق

فى النعمة من الملهيّات للأنسان عن كل وظيفّة ولا ريب ان الليل
و اليوم اصطلاحان نشأ عن دوران كره الأرض حول الشمس فزمان بعد
الجهه من الكره عن موجهه الشمس ليل و زمان مواجهتها يوم و نهار
ولا شك انه لا مجال لهذين حين خلقه العوالم فانهما متأخران عنها
و المنظور بهما مطلق الفاصله الزمنيّة و انما ذكرت ليبيّن المبدع ان
جريان العالم انما هو على الاسباب و المسببات و ان كان ذلك بالنسبه
اليه ليس بشرط لأن هذه الشرطية لو نفذت على اصول الطبيعه لما
قامت بها الأجيال المتماديه و لعجزت عنها كلّ القوى .

(٣) المراد بالعرش هو الكون كلّ كما جاء فى آيه الكرسيّ و سمع

كرسيّه السموات و الأرض و استيلاؤه على الكون كان من الأزل بأى معنى
فرض ذلك الاستيلاء و بأى معنى عبّرنا عن الكون غايته ان مجالى عظمة
العظيم و ان كانت منعكسه على صفحات الواقع الآ ان الواقع المحجّب
لا تشعشع فيه و تشعشعه انما يكون بانعكاساته و تدبير الامور هو
ارسال الرسل و انزال الكتب و سنّ النظم و تقنين القوانين الكافله
بالسعادة .

(٤) الانسان يجب ان يكون مرتهاً بعمله خيرا و شرا حتى يتجلى

معنى الحياه الصادقه و لا مجال للشفاعه مع العمل نعم قد تكون هناه
ميسوره يتشفع بها مثالىّ عظيم لأنسان بدرت منه تلك الهناه لاعن خبث
وهو ما اشير اليه بقوله الآ من بعد اذنه نعم انما شقق الشفاعه على
مصاريعها تهوين الأمر على العصاة ممن يريدون ان يشدّوا أمرهم
و اسرهم بطغمة الناس .

(٥) فاذا ثبت ان الكون و الكائنات لم تكن بالجزاف و ان صانعها

من له كافة الصلاحيات و ان كلّ من سواه مخلوق له و لا قيمه له بالنسبه

اليه كان من لازم ذلك ان لا يخضع الانسان الا للعظيم بحق دون من سواه وقوله أفلا تذكرون الفات لعقول الناس بأن ماهم عليه من الانجراف سريعا لأهل القدرة كلاً بحسب ما يملك منها انجراف مدفوع عن قلة تدبر .

* (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً
وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب
ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم
يعلمون : ان فى اختلاف الليل والنهار وما
خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم
يتقون) *

هو اى خالق السموات والأرض الذى جعل كرة الشمس الهائلة فى عظمتها مضيئة اضاءة قهّارة ينفذ نورها الى مئات ملايين الكيلومترات فيبدو كل ذى جرم جلياً واضحاً وجعل كرة القمر منيرة لما فى محيطها يستفاد من نورها عندما تحتجب اشعة الشمس عن بعض جهات الكرات ونور القمر مستفاد من ضياء الشمس وقدره اى القمر لأن الشمس انما تدور حوالى محورها اما هو فيدور فى مدار عظيم يحل فى كل ليلة فى منزل منه واما جعله كذلك لتعلموا عدد السنين من طريق دورانه فان دورانه يكون الشهور والسنين تتكون من الشهور ولتعلموا الحساب ان هذه الليلة اية ليلة هى الرابعة او الخامسة مثلاً ما خلق الله هذه الخلقة المهمة الا بالحق وهو المنطق الصائب المثمر للثمرات المدعوم بالحكمة نفصل هذه الآيات والبراهين لقوم متهيأين لأخذ العلم وتحصيله ، ان فى اختلاف الليل بسبب اعطاء الكرة الأرضية جانباً من

جوانبها وراء وجه الشمس و النهار بسبب اعطائها ذلك الجانب لوجه الشمس و ما خلق الله ممّا لا يعدّ ولا يحصى من ساكن و متحرك و حى و هامد و عاقل و غير عاقل كل ذلك لنفع البشرية لآيات لقوم يريدون تقوى الخالق اى يستشعرون خوفه بما يؤمنّ لهم مرضاته و لذلك يجوسون خلال هذه الأمور ليقفوا منها على ما يريد منهم جهد المقدور .

* (انّ الذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدنيا

و اطمانوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون :

اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون : ان

الذين آمنوا و عملوا الصالحات يهدىهم ربهم

بأيمانهم تجرى من تحتها الأنهار فى جنّات

النعيم : دعواهم فيها سبحانك اللهم

و تحيتهم فيها سلام و آخر دعواهم أن الحمد

لله ربّ العالمين) *

مفاد الآيات المقارنة بين منكرى البعث و مثبتيه و من لازم منكرى

البعث ان يروا حياتهم منحصرة بهذه النشأة التى يعيشتها كلّ احد من

الأحياء و لذلك لا يرجون لقاء ربهم لأنهم لا يعتقدون به و معنى رضاهم

بالحياة الدنيا اكتفاؤهم بها لا لأنهم مختارون فى ذلك و اطمانوا بها

اى لم تتشعب الاطماع بهم الى حياة غيرها لانهم لا يتصورون غيرها

و كان داعيهم لعدم العقيدة بالله و انكار البعث هو غفلتهم عن آيات

الله الدالة على وجوده و وجود نشأة اخرى غير ما يعيشونه ، اولئك

لتقصيرهم فى واجب المعرفة مأواهم النار بما كسبوا من الأهمال ، اما

الذين استطرقوا آيات الله فدلتهم على وجوده و وجود نشأة اخرى فيها

يجازى المكلف على ما اخذ و ترك و عملوا الصالحات لصلاح الناشئين
 فان ايمانهم الهادى لهم يؤمن لهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار
 و يكون ورد السنتهم حينذاك مقالة سبحان الله كما كانت فى الدنيا الآ
 انها فى الآخرة تكون اشد لانهم يعاينون الواقع وجهها لوجه و تحية
 بعضهم لبعض فيها سلام كما كانوا فى الدنيا كذلك الآ ان تحيات
 الدنيا كانت عن مجاملة و هنا تكون عن استحقاق و جدارة و آخر دعواهم
 حمد الله و شكره على ما حصل لهم من العاقبة الحسنة .

* (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم
 بالخير لقضى اليهم أجلهم فنذر الذين
 لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون : و اذا
 مسّ الانسان الضرّ دعانا لجنبه او قاعدا او قائما
 فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا الى ضرّ
 مسّه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون : ولقد
 أهلكنا القرون من قبلك لما ظلموا و جائتهم
 رسلكم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي
 القوم المجرمين : ثم جعلناك خلائف في
 الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون : و اذا
 تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون
 لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله قل ما يكون
 لى ان أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع الاّ ما
 يوحى الىّ انى اخاف ان عصيت ربى عذاب يوم
 عظيم : قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا اذراكم
 به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) *

يهوى الانسان دائما وبلا انقطاع تيسر ما تريده رغباته له سواء
 كانت مشروعة ام غير مشروعة وغير المشروع فيها هو المقياس والرقم
 الواسع ولا شك ان العمل غير المشروع له عقوبة مقررة فى شريعة الله فلو
 انه استعجل فى ايصال عقوباتهم اليهم وفق ما تتطلبه جرائمهم كما انهم
 يستعجلون فى تحصيل الخير ما استطاعوا لأهلكهم فى بداية اعمارهم
 ولما طال بهم البقاء ولكنه ارجأ العقوبة الى عالم المكافأة الذى هو

افترضه من اصل الخلقة فجعل الدنيا دار عمل وقرر الآخرة دار جزاء
ولهذا قال تعالى فنذر - اى نترك الذين لا يرجون لقاءنا - اى
لا يعتقدون بالآخرة لأنهم لا يعتقدون بالخالق عقيدة تتفق وكيانه
الواقعى - فى طغيانهم - اى تمردهم على قانون السماء - يعمهون -
يترددون حائرين كالدابة الدائرة فى الطأحونة - و اذا مس الانسان
الضر - وهو ما لتهواه نفسه و تريد زمه عنها - دعانا - فى كافة حالاته
مستحناً بلا انقطاع - لجنبه - اى مضطجعا على جنبه - او قاعدا او
قائما - فهذا الله الذى يتشكك فيه الكثيرون تراهم يفزعون اليه فى
مواقع الضرورة و يقولون عسى ان يكون ما يقوله الانبياء و المقدسون من
وجود الخالق المتصرف الذى بيده ازمة الامور كلها حقاً و صدقا - فلما
كشفنا عنه ضره - فانكشف عنه و تخفف و ارتاح - مر - فى غيبه الذى كان
عليه و قال تلك صدفة وافقت فأراحت - كأن لم يدعنا الى ضر مسه
- كذلك - اى كالتزيين الذى زينته الرغبات لأهلها - زين - من ناحية
الله - للمسرفين - وهم الذين لا يقتصرون فى رغباتهم و شهواتهم على
مشروعها بل يسيلون معها اينما سالت بهم - ما كانوا يعملون - من
السرف و السفه و ليس معنى ذلك ان الله اعانه على فعلها بل فطر فيه
النفس الشهوية و العقل الراسخ و اوقفه بينهما فالوزين صادق عقله
و الخفيف الضعيف رافق شهوته - ولقد اهلكتنا القرون من قبلكم - انتم
معاصرى القرآن - لما ظلموا - اى حين ظلموا و - حين جائتهم رسلكم
بالبينات، و ليس فى هذا المقال حزاة بالنسبة الى ما سلف فى صدر
هذه الآيات حين قال تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم
بالخير لقضى اليهم اجلهم لان الله لم يهلكهم بظلمهم حين ملابتهم
له بلا فاصلة بل انما فعل ذلك بهم بعد أن طال الأمد و استعصى

القوم و اغرقوا فى الانحراف بدليل قوله وما كانوا ليؤمنوا — كذلك — اى
 كالجزاء المذكور — نجزى القوم المجرمين ثم — بعد أن انقضت تلك
 القرون — جعلناكم خلائف — جمع خليفة وهو الذى يخلف من قبله — فى
 الأرض بعد هم لننظر كيف تعملون هل تعتبرون بما وقع على غيركم او
 تغذون فى طريقتهم — و اذا تتلى عليهم — اى على هؤلاء المعاصرين
 لنزول القرآن — آياتنا — القرآنية — قال الذين — لم يكونوا يؤمنون بها
 و — لا يرجون لقاءنا — فى النشأة الأخرى بالعود الينا — ائت — يا
 محمد — بقرآن غير هذا او بدله — اى ابدل فيه ما لانهواه بما نهواه فاذا
 فعلت فكأنك قد اتيت بغيره — قل — لهم يا محمد اذا كان معيار ايمانكم
 بالله و بى و بكتابه هو انسجامنا مع رغباتكم و ميولكم و ما ميولكم الا ما انتم عليه
 فعلا فمن لازم ذلك ان لا رب له واقعية ولا رسول بحق ولا كتاب صدق
 و انتم انتم كما كنتم هذا مضافا الى اننى لست بمشرع ولا املك لنفسى
 شيئا من هذه المقاييس — ما يكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان اتبع
 الا ما يوحى الى انى اخاف ان عصيت ربى — و تابعت اهوائكم لصالح
 شخصيتى بينكم — عذاب يوم عظيم — هو يوم القيامة الخالد — قل —
 لهم يا محمد — لو شاء الله — ان يهملكم كما كنتم فلا يرسل رسولا ولا ينزل
 كتابا لما جئتم رسولا ولا تلوت هذا القرآن عليكم — لانه سلب باعتبار
 نفى الموضوع — ولا — الله — ادراكم به — و أعلمكم به و أفهمكم عليه بدليل
 اننى لبثت فيكم قبل ادعاء الرسالة اربعين سنة من عمري لم ادع فيها
 اننى رسول ولم ائتكم بكتاب و اقول انه من الله — أفلا تعقلون —
 ما تقولون .

* (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب
بآياته انه لا يفلح المجرمون : ويعبدون من
دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء
شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم
فى السموات ولا فى الأرض سبحانه و تعالى عما
يشركون : وما كان الناس الا امة واحدة
فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم
فيما فيه يختلفون) *

قوله فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا بمنزلة العقوبة على جريمة
التبديل لآيات الله فيما تقدم ذكره من قوله ما يكون لى أن ابدله من
تلقاء نفسى و معنى ذلك اننى اذا بدلته من تلقاء نفسى اكون مفتريا
على الله الكذب ومن اظلم — يعنى هل هناك احد اظلم لنفسه ممن
ظلمها بالأفترء على الله و تقول عليه ما لم يقله ، فأن قيل ان الأفترء
معناه الكذب فأى معنى لقوله افترى على الله كذبا أجيب بأن الأفترء
قد يكون كذبا فى النسبة لا فى المنسوب مثل ان تنسب الذنب المحقق
وقوعه خارجا من زيد لعمرو فيقال فى حقك قد افتريت على عمرو اذا
فيكون بينهما فرق ، او كذب بآيات الله و قال انها سحر وليست بحقيقة
او كلام آدمى لا كلام الله — انه لا يفلح المجرمون ، فى العاقبة و كلا
الامر من افترء الكذب على الله و التكذيب بآياته جرم يستحق فاعله
العقوبة ، ويعبدون من دون الله ما — اى اجرا ما — لا يضرهم — تركها —
ولا ينفعهم — الانحياز اليها لأنها جوامد مسخرة يستخرها الحيوان
فضلا عن الانسان ولا مفهوم فى الآية ان عبادة ما يضر و ينفع جائز معقولة

وان استطاع الأضرار وادخال النفع كالانسان المقتدر لان الآيـة استهدفت ما كان يعبده المشركون من الاوثان و الاصنام وهى لا تضر ولا تنفع، ويقولون ، اى عبدة الأوثان ، هوءلاء شفعاؤنا عند الله يوم القيامة ، وهذا مورد للأستنكار عليهم ايضا فان الذى لا يضر ولا ينفع فى متسع وقته و وقت عابديه كيف يشفع يوم القيامة حيث لا مجال له ولا لغيره من صامت و ناطق ، قل ، يا محمد لهم مسفها لعقولهم ، أتنبأون الله ، بمعنى تخبرونه بشىء لا يعلمه فى السموات و الأرض فى حال ان خبركم ان كانت له حقيقة فهو لا يخلو ان يكون اما فى سماء او فى ارض ولو كان فى واحد منهما لعلمه لانه يعلم جميع ما فى السموات و الأرض لأنـه خلقته فحيث لم يكن خبركم فى سماء او ارض فهو لا اصل له ، سبحانه ، و تنزيها له ، و تعالى ، و جلّ ، عما يشركون ، ما كان الناس فى اصل خلقتهم و بدافع فطرتهم ، الأمة واحدة ، تحمل عقيدة واحدة هـى الايمان بالله ، فاختلفوا ، لدواعى مادّية او نفسية ، انشمرت بجملة منهم عن الايمان ، ولولا كلمة سبقت من ربك ، بأنه لا يعذب عذاب مجازاة الآ فى النشأة الثانية بطور محقق — لقضى بينهم — فى الدنيا كما قضى على كثير من الأمم — فيما فيه يختلفون من كفر و ايمان فيسحت الكافر و يبقى المؤمن .

* (و يقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا أنى معكم من المنتظرين :
 و اذا ادقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم
 اذا لهم مكر فى آياتنا قل الله اسرع مكر ان
 رسلنا يكتبون ما تمكرون : هو الذى يسيّرکم
 فى البرّ و البحر حتى اذا كنتم فى الفلك
 و جرین بهم بريح طيبة و فرحوا بها جاءتها
 ریح عاصف و جاءهم الموج من كلّ مكان و ظنّوا
 انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين
 لئن انجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين :
 فلما انجاهم اذا هم يبيغون فى الأرض بغير
 الحقّ يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم
 متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبأكم
 بما كنتم تعملون) *

الواو فى يقولون للمشركين عند ما جاءهم نبيّ الأسلام بدین الاسلام مؤيداً له بالقرآن الذى هو من اعظم المعاجز فلووا بجوانبهم عنه زاعمين انه لا يملك على دعواه المعجزة التى تؤيدّه و تثبت دعواه ، لولا أنزل عليه آية من ربه ، اى هلاً انزل الله عليه آية تكون ردةً له و تقهر الناس بتشعشعها على الانقياد له كأحياء الموتى على يده مثلاً فمتى ووجهت بانبيّ الاسلام بمثل هذه المقالة فقل لمن يقولها هذا المطلب غير الحاضر لذي ولد غيرى غيب ومما وراء الطبيعة و العيب لله يملكه وحده ليس عندى منه شىء فاذا هو اراد ان يتابعكم على ما تريدون هيأ

ذلك فانتظروا ماتريدون منه و انى معكم انتظر ما تنتظرونه وليس معنى هذا جواز بقائهم على شركهم حتى تأتيهم الآية التي يريدونها فان الحجة تمت عليهم بالقرآن الذى تحداهم فاعجزهم ، و اذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا ، هناك مقدمة مطوية جىء بهذه الآية مدركا عليها و انما طويت لا ستنتاجها من هذا المدرك و تلك المقدمة هى اننا لو تابعناهم على ما يريدون من الآيات فأنزلناها عليك يا نبي الاسلام لما آمنوا بك لانهم ليسوا بهذا الصد و انما يتعللون عن الامتناع بهذه العلل طردا لأشكال من يشكل عليهم بالطغيان والتمرد و هذه شيمة نوع بنى الانسان اذا لم يريدوا شيئا ولو كان من اجلا الواضحات رفضوه ولم يقبلوه و تعللوا لرفضهم بما يشاؤون فان الناس على اختلاف ارواحهم و عقائدهم اذا مستهم الضراء توجهوا بمأقلوبهم لله فيذيقهم رحمة منه تكشف عنهم بأسائهم فاذا وجدوا الضر قد زال و ارتاحوا بالرحمة اخذوا يتضحكون ممن يقول لهم ان الله انجاكم بل يعتبرون ذلك اما سانحة سنحت لهم و اما من يعتقدون به سوى الله من وثن و غيره هو الذى خلصهم و يبهارزون العقيدة بالله و بآياته و يحتالون فى ذلك بكل حيلة و يتوسلون بكل وسيلة ، قل ، يا محمد لهم و لغيرهم — الله اسرع مكر ، و مكر الله بهم تقديره عليهم ما يريد من المؤلمات و اطلاق المكر على فعل الله من باب المشاكلة بين فعله و فعلهم ، ان رسلنا ، وهم الملائكة الموظفون بضبط ما يأتى الناس و يذرون لأعياب ذلك بما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها — يكتبون — عليكم كل — ماتمكرون ، هو الذى يسيركم ، فى هذه الآية تفصيل و توضيح لمجمل ما سبق فى الآية السالفة وهى قوله و اذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا ، ومعنى

تسييره لهم فى البر فتح المجال امامهم باعتدال الهواء غير المزاحم و بسط البسيطة و اعطاء القوة و الآلة التى بها يسيرون وفى البحر خلقه و ايجاده و اعطاء الهدى على ركوبه بصنع السفن و تهيئة موادها ، حتى اذا كنتم فى الفلك و جرين بهم ، لم يقل بكم و التفت من الخطاب الى الغيبة تبعيدا لهم لخبث طويآتهم فان عنوان الغيبة يعطى البعد عن ساحة عزّ الحضور ، بريح طيبة هفافة لا ثقل فيها ولا ازعاج ، و فرحوا بها ، اى بهذه الريح الملائمة ، جاءتها ، يجوز فى ضمير الغيبة المؤنث ان يرجع الى الفلك كما يجوز ان يرجع الى الريح الطيبة ، ريح عاصف ، شديدة مزعجة ، و جائهم الموج من كل مكان ، على اثر عصف الهواء فى الماء ، و ظنوا انهم أحيط بهم ، من الموج و عصف الرياح حتى لا منفذ لهم يفرّون منه ولا ملجأ يأوون اليه فلما شاهدوا انفسهم بهذه الحالة المؤيسة ، دعوا الله مخلصين له الدين ، بلا شريك يتخذونه قرينا له لان الحالة الشاقة تنسيهم كل شىء ما سوى الله ، لئن انجيتنا من هذه الكارثة ، لنكوننّ من الشاكرين ، لك وحدك بالعبادة لان شرك بك احدا ، فلما انجاهم ، من الغم و وجدوا برد الراحة و اذهلتهم السراء عن ما خامرهم فى البأساء ، اذا هم يبيغون فى الأرض بغير الحق ، عطفاً على ما كانوا عليه قبل الوقوع فى الشدة ، يا ايها الناس ، نداء عام واهابة شاملة لأعطاء حكم عام صارم ، انما بغيكم على انفسكم ، لانكم سوف تدخلون عليها من الجزاء الحادّ ما لا تطيقونه ، متاع الحياة الدنيا ، خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا الذى ذكرناه من التارات و الحالات المتبادلة هو متاع الحياة الذى تسمعون به فهو لذي التحقيق محن و فتن لا متاع و لسدة فلا تفتنكم هذه الحياة الملتوية عن ربكم وعن الامثال لما امركم به و نهاكم عنه ، ثم ، اى ومع الأطمئنان الكامل ان الحياة الدنيوية التى

تحدثنا عنها سوف تتهافت لتخلق من بعدها حياة اخرى بها ترجعون الى ربكم فيقص عليكم جميع ما فعلتموه مما لم يردّه و تركتموه مما اراده .
 و أخيراً هذه الآيّة تفيدنا المقارنة بين الحياة الفطرية البسيطة و بين الحياة المركبة المصطنعة وما للأولى من خيرات لاتعدّ و للثانية من ويلات لا تحصى .

(١) أمّا الحياة الفطرية البسيطة فهي الحافظة للبدن من ناحية و المرفّهة على العقل من ثانية و المسمّنة للمعنويات من ناحية ثالثة أمّا حفظها للبدن فهو ما يترائى جلياً في سكنة البوادي و على الفلاحين و الأناص الأقدمين فأنا لو وازنا بين البدن القروي الذي لا تدخل فيه الاّ الموادّ الأوليّة بكثير اشتهاً في مواعيد خاصّة و بين الأبدان المترفة المنهوكه بالنعيم لوجدنا الفروق الواسعة جدّاً فالبدن القروي يقاوم الأمراض على كثرة قربها منه و البدن المتنعم يقبلها بسرعة لقلّة مقاومته و البدن القرويّ قويّ الأرتباطات الأوليّة من اعصاب و عظام و لذلّك يستطيع ان يطوى زمانا على الجوع و العطش و المتنعم لا يستطيع ذلك و من هنا كان فرسان السابقين من الناس يطوون حتى تضمّر بطونهم و ليس باستطاعة المتحضرين المنعمين ذلك و هذه الأسرار سارية المفعول في نطف الطرفين القروي و المتنعم .

و أمّا ترفيها للعقل فلأن الفكر معها غير مشغول برغبات النفس الشهوية و ميولها الشيطانية فهي تجد فراغا واسعا لاستخدامها و من هنا ندرّك السرّ في جهة حفظ و حسن ذاكرة القرويين على عاميتهم حتى كانوا يحفظون اغلب ما يسمعون ان لم نقل كلّه و يدركون عين الحقيقة و لذلك يقولونها في شعرهم و نثرهم ولا يتناولون من الخيال شيئاً لانه من شأن المتنعمين .

و اما تسمينها للمعنويات فهو من آثار الترفيه على العقل و على الجسد فان الجسد اذا كانت تغذيته محدودة بحكم محدودية صاحبه فى الماديات و المحيط و الفكر فراغه متسع خلى الميدان للمعنويات لانها لا تجد مزاحما من شهوة متنزية و خيالات باطلة فيستطيع ان يصرف فاضل اوقاته فى التأدب و الثقف و التعرف على الحقيقة و ما هو بنفع مفرده و مجتمعه .

(٢) و اما الحياة المركبة المصطنعة فهى تقابل الحياة الفطرية البسيطة مقابلة الضد للضد فى كل اشائها فالأبدان المركبة المصطنعة التى قادها التركيب الى أن تمسخ موادها الأولية بمواد مزورة مكذوبة كاللحوم و الأدهان الكاذبة و الأغذية الفاسدة و التركيبات المجهولة على اهلها الذين يتناولونها لا تجدها الا منهارا على طراوتها الظاهرية و الهمم التى تتبناها قاصرة لانها تتبنى ابدانا خاوية و هذه الابدان هى التى اصاخ بها خواها الى الذل و الهوان و الأستسلام لكافة الطوارء و هى التى ارسل بها تركيبها فى احضان الأمراض المتنوعة المستشرية التى لم يكن منها فى القديم الا القليل و من هنا فقدت الفروسية التى كانت شارة الكثيرين فى الأزمنة السابقة .

و اما خنقها للعقل فللانغماس فى شتى ما يوجب غمور العقل من مخدرات و انغماسات مشروعة و غير مشروعة تستنفد كافة الاوقات ولا ينقض علينا بنخبة فاضله من حيث العلوم الصناعية فى الغرب فان هذه النخبة فى طرف اقلية، مضافا الى ان العقول الصناعية عقول مادية و العقول المادية لا تنجع فى تربية المجتمعات .

و اما تدويبها للمعنويات فللصوقها بالمادة من جميع نواحيها و لذلك زخرت الرذائل فى مجامع البشرية و قلت الفضائل و مسخ البشر

الى خلق آخر هو أخس من الحيوان وأتعس، والحياة الأولى هى الحياة التى تجرى بالأنسان بريح طيبة والحياة الثانية هى الريح العاصف والموج المتلاطم والمعيشة الضنكة .

* (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء

فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون :
 والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون :
 والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون : ويوم نحشهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم آيانا تعبدون : فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين : هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولا هم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون) *

قوله انما مثل الحياة الدنيا بسط وتوضيح لقوله آتفا - متاع الحياة الدنيا - مفاده ان الحياة الدنيوية فى تعثرها بالحوادث وانقطاع امدها على كل انسان واختلاط سرّائها بضرّائها مثالها جنينة خضراء قد نبتت فيها انواع الورود والزهور وامطرتها السماء بما اطراها وازهاها وابهجها واطلعتها كالعروس ليلة زفافها و اذا بأعصار فيه نار هبّ عليها دفعة فأبيسها واذراها فى الهواء حتى اذا عاينها بعد سويحات من عهدها بأبهى حلّة و أطرى هيئة تشكك بها او بنفسه ، فاختلط به نبات الأرض اى امتزج بوجوده من طريق امتصاصه له بعروقه و تناثره على اوراقه و اغصانه و سوقه ، زخرفها اى حليتها الشبيهة بالذهب فى تشعشعها و ازدهارها و توجّجها ، قادرون عليها اى انهم يرونها قد حان اقتطافها و حصادها ، اتاها امرنا اى تقديرنا عليها بالتلف و الدمار ، فجعلناها حصيدا اى كأنها محصودة ، كأن لم تغنّ بالأمس اى كأن لم تكن مائة لمحيطها مبهجة له غانية به مستغنيا بها ، دار السلام هى الجنة التى يسلم نزالها من كلّ حادثة و هناة و مفعول يدعو محذوف تقديره كل احد لان الله يريد السعادة لكل انسان ، ويهدى من يشاء لا اعتبارا و تشهيا بل لأنّه طالب لها راغب بها ، للذين احسنوا الحسنى و زيادة بمعنى ان الله يضاعف الحسنات للمحسن اذا لاغضاة فى ذلك لان الذى يتفضل به ملكه ، رهقه الشىء اذا قاربه و منه غلام مراهق اذا كان قريب البلوغ و القتر هو الغبار و الذلّة اثرها فى الوجه الانقباض و الامتعاض و الذبول ، و جزاء السيئة لا يجوز ان يكون بأكثر منها لأنه ظلم و الظلم غير جائز ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما اى اسودّت من الارهاق الذى خامرها ، ويوم نحشروهم جميعا العابدين و المعبودين ثم نقول للذين اشركوا بالله - مكانكم - اى

الزموا امكنتكم لا تتجاوزوها فان الحساب الموعود قد حان وقته وهذا ميعاده، انتم تأکید لو او الضمير المحذوف هو وفعله المقدر بقولنا الزموا وشركاؤكم عطف عليه، فزيلنا بينهم اى من ايقافنا لهم عرف كل واحد منهم ما يراد منه فالذى يراد من المعبود دعوته لمن عبده والذى يراد من العابد خضوعه لمن عبده وهنا يتبرأ المعبودون خلاصا من ورطة المؤاخذة فيقولون لمن عبدهم ما كنتم ايانا تعبدون بل انما تعبدون اهوائكم وميولكم فانها هى التى انشمرت بكم عن جادة الله، وانما عبّر سبحانه عن المعبودين بالشركاء للعابدين فقال وقال شركاؤهم لان العابدین كانوا يشركون معبوديهم فى اموالهم وما يقدمونه لهم من قربانين، فكفى بالله هذا من تنمة قول المعبودين للعابدين ان الله يشهد لنا عليكم اننا لم ندعكم الى عبادتنا ان كنا عن عبادتكم لنا لغافلين لا ندري انكم تعبدوننا بل غاية ما ندرك تقربكم منا واحترامكم لنا يقول المعبودون ذلك اما عن واقع محقق واما نكوصا الى السوراء احرازا لأنفسهم، هنالك تبلو كل نفس اى تذوق وتدرى ويصل اليها ما قدمت فى ماضيها ان خيرا فخير وان شرا فشر، وردوا اى العابد والمعبود والمحسن والمسيء الى الله مولا هم الحق اى الذى مولويته واقعية لا جزافية، وضل عنهم اى بعد منهم الشركاء الذين اختلقوهم من انفسهم متحدین بهم قدس الخالق الواقعى .

و بالنهايه الحياة الدنيوية المنظورة للعموم ومحطة كل عين ونظر لا يشك الملحد والمؤحد فى ان الاستفادة منها مرتبهة بالنظام الصحيح والعادل وان الحياة من غير نظام حتى حياة الوحوش خیر منها بدليل ما نراه فى الممالك التى تتحارب من اجل اقرار النظام فيها ولا شك ان النظام الحق هو نظام الاسلام لبعده عن التحيز بالمرّة حتى

ان سادته الشرعيين لم يفترضوا لانفسهم من الحق الا بمقدار ما يعيشون به عيشة بسيطة وكافيك على ذلك حياة النبي في ازهى ادوار رياسته وحياة على ايضا ومن هنا تعرف ان المقاييس التى ارتأها أجد نظام حيوى مقاييس طاغية على الحق سواء فى ذلك نظم الشيوعية والرأسمالية ومع افتراض كل الانظمة الحية للحياة فان طراوتها وازدهارها الى افول واقصى عمرها زمن محدود مثلا هذا العصر الذى خلق فيما يزعم كافة مؤهلات الحياة وقاوم فيما يرى بخل الطبيعة على السالفين حتى صيرها سخية بكهربائها واسالة مائها وسائر كمالياتها وحصنها من الطواعين والأوبئة حتى يستطيع الانسان ان يحيى فيها حياة طيبة مع ذلك نرى الطبيعة قد انفتحت عليه من زوايا ما كانت بباله فأصابته الطواعين ان ابطلها من ناحية الأمراض فانه لم يستطع ان يبطلها من ناحية التصادفات فى الجو او على الأرض او فى البحر ولم يستطع ان يبطلها من الغازات والتكهربات والانفجارات الصناعية وتحت الأرضية فى مناجم المعادن وغيرها وكذلك ما استطاع ان يقف امام الزلزال الضعيف والظوفان المبيد والأعصار الشديد وتشعشعات الذرة فى اختباراتهما .

فكان الطبيعة التى الآنَ نفسها لمن به قدرة جسمية او فكرية عليها تبطنت فى اعماقها ألجمة كعاعة تصده عن طغيانه وتكعه عن غروره وتورده موارد الهلكة ان استغنى بقواه واستكفى بنفسه فتخلق له من حيث لا يحتسب مابه اطاحة وجوده بالموت او بالمرض او الخمود او الركود وكأن الطبيعة بلسان حالها تقول خير للانسان ان يعتدل فى مشيه ويتوسط فى كسبه ولا يبذل غاية مجهوده لاستحصالتها فانها لا تطاوعه ولو طاوعته من جهة كالمال مثلا تمردت عليه من جهة اخرى بما

تجعل المال عقيم الثمرة بالنسبة اليه وقس على ذلك فالآية المذكورة
تبرهن على ان الزهد الذى دعا اليه انبياء الله و الاوصياء و المثاليون
من العلماء انما دعوا اليه ليتكلموا عن لسان الطبيعة الذى لا يفهمه
هؤلاء المغرورون الذين يمتنون على البشرية بتسمين المال لهم
ولا يشعرون ان هذا المال الذى امتنوا به هو و ما يحصل عن الفقر سواء
لأنه يولد التضخم و قلة العمل و العمال فترى المال الذى هو مضرب
مثل للناس ازهد من كل زهيد فتمتول اليوم هو و فقير امس على حد
سواء و ان مغالبة الطبيعه لم تنتج ما يحاوله الانسان .

* (قل من يرزقكم من السماء و الأرض آمن يملك
السمع و الأبصار و من يخرج الحيّ من الميّت
و يخرج الميّت من الحيّ و من يدبر الأمر
فسيقولون الله فقل افلا تتقون : فذلکم اللّٰه
ربکم الحقّ فماذا بعد الحقّ الاّ الضلال فأنى
تصرفون : کذلک حقّت کلمة ربّک على الذین
فسقوا انهم لا يؤمنون : قل هل من شرکائکم من
يبدء الخلق ثم يعيده قل اللّٰه يبدء الخلق ثم
يعيده فأنى تؤفکون : قل هل من شرکائکم من
يهدى الى الحقّ قل اللّٰه يهدى للحقّ افمن
يهدى الى الحقّ أحقّ ان يتبع آمن لا يهدى
الاّ ان يهدى فما لکم کیف تحکمون : و ما يتبع
اکثرهم الاّ ظنّاً ان الظنّ لا یغنى عن الحقّ
شیئاً انّ اللّٰه علیم بما یفعلون : و ما کان هذا
القرآن ان یفتري من دون اللّٰه و لکن تصدیق
الذی بین یدیه و تفصیل الکتاب لا ریب فیہ من
ربّ العالمین : ام یقولون افتراه قل فأتوا
بسورة مثله و ادعوا من استطعتم من دون اللّٰه
ان کنتم صادقین : بل کذبوا بما لم یحیطوا
بعلمه و لما یأتهم تأویلہ کذلک کذب الذین
من قبلهم فانظر کیف کان عاقبة الظالمین :
و منهم من یؤمن به و منهم من لا یؤمن به و ربّک
اعلم بالمفسدین : و ان کذبوک فقل لی عملی

ولكم عملكم انتم بريئون مما عمل وانا برى مما

تعلمون) *

تتضمن هذه الآيات الاستدلال على اثبات الصانع وتوحيده بوجوه عديدة (منها) قوله قل من يرزقكم من السماء و الأرض و الخطاب لنبيه يقول تعالى له قل لهؤلاء المشركين وغيرهم من يدبر المطر من السماء و من ينبت النبات فى الأرض فيتهيأ من ذلك و هذا رزق الأحياء بأسرها لاشك ان الجواب يكون هو القادر العالم الحكيم غير المحدود فى قدرته و علمه و حكمته لان الأمطار و الأنبات لا يكونان جزافا فان المطر لا يكون من التبخير وحده و الألكان المطر غير محدود بحدّ فان الأجواء الباردة لا تنعدم عن محاذاة الكرة الأرضية و اذا تلاقى البخار و البرودة لزم ان تهطل السماء و العيان يكذب ذلك فربما ينقطع الشتاء و الريح ولا يكون مطر و ربما يتواتر المطر او يستمر بما يؤدى الى الازعاج و التبخير مستمر مع اشعاع الشمس الحادّ على مياه البحار و غيرها كما ان الأجواء الباردة لا تفقد و الأنبات شأنه مثل ذلك فليست كل تربة صالحه تواجهت مطرا انبتت او انها اذا انبتت صلح نباتها و وفرو كثر و نفس عدم تساوى السنين فى العوائد مع ان العلة ليست فى المطر و لافى صلاحية الأرض مما يبرهن به على ان هناك غيبا يعمل ولا نعرف دواعى عمله و انما نشاهد الاعمال الخارجية متموجة مختلفة غير مؤ تلفة و هذا القضايا اذا كانت بنحو طبيعى خالص كان من لازمها ان لا تعطى من نفسها هذا المقدار الفاحش من الأختلاف .

(و - منها) آمن يملك السمع و الأبصار ، فى السمع و الأبصار

جهات من الاستدلال اهمها صنعها فأن فى صنعة الأذن و العين

ادها شا لا يستغرقه وصف فى آلاته و مجاريه و معدّاته و كتاب مستقل لا يقوم بتشريحها و خصائصها و خصائص كل صغير و كبير فيها و هذا ممّا يبرهن على ان الصانع لذلك اعظم من كل عظيم و ما اختراع المصوّرات و المكبّرات الآ شبح ممّا عليه هاتان الحاستان المهمتان ، و من الجهات مع ظرافة السمع و البصر مقاومتها للحوادث و هذا من الأدلة على عظمة هاته الصنعة و اهميتها لأن ما صنع على خارطتها كالمصوّرة و المكبّرة يسقط عن العمل لأقلّ بادرة تطرأ عليه كما هو مشاهد محسوس .

(و - منها) اخراج الحيّ من الميت بالفعل او بالفعل وبالقوة معا و بالعكس فان فعل ذلك بالطبيعة وحدها شاقّ الفهم فان خلايا المنيّ و ان كانت موجودات حيّة الآ انها حصلت بالتغذية و قد يتغذى الإنسان الموادّ المطبوخة بالفوران و الغليان اللذين لا تبقى معهما حياة لذي حياة من خلايا الأطمعة فمن اين جاءت لهذه الخلية المنوية الحياة .

(و - منها) تدبير الأمور فان الذى يعير طرفه للمجاري الكونية من فقر و غنى و ضعف و قوّة و مرض و صحة و موت و حياة الى غير ذلك لا يستطيع ان يعلّلها بعلم طبيعى لا نخرامها فى كثيرين و كثيرين فليست الصحة وحدها ملاكا للبقاء ولا المرض وحده امارة على الموت ولا السعى مادة للغنى ولا التكاثر عن العمل منشئا للفقر و قس على ذلك ما تشاهد من تارات و احوال العالم فاذا عقلت الطبيعة عن تحليل ذلك لزم اناطته بما و رائها لاستحالة وجود معلول بدون علة .

فسيقولون بأفواههم ان ادركهم الوجدان و بلسان حالهم اذا اخذ بمخنتهم التعصب فاعل كل ذلك الذى ذكرناه هو الله فقل لهم على اثر هذا الجواب افلا تتقونه بأن لا تشركوا به شيئا و تطيعوا اوامره و نواهيه

التي شرعها لصالح المجتمع كله ولسعادة النوع بأسره ، فذلّم ، الرازق من السماء و الارض مالك السمع والبصر مخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ مدبرّ الأمور هو حقيقة المسمّى - الله - وهو ربكم الحق لا غيره ممّا تدعونه شريكا وندّاً له فاذا لم تؤمنوا بهذا الحق الثابت ايماناً بعيداً عن الهنات فما انتم الاّ فى ضلال فالى اين تصرف بكم اوهامكم ، كذلك ، اى بالصورة التي جرى عليها المشركون من الأعراض عن الله وآياته العظام و التوجه الى الخيالات و الأوهام - حقّت كلمة ربك- اى ثبتت ، على الذين فسقوا ، عن الطريقة و مرقوا عن الحقيقة ، انهم لا يؤمنون ، لأنهم بأعراضهم عن الله اعرض الله عنهم و كل من يقطع البارى توجهه عنه يهلك لا محالة ويقضى ايامه على الضلالة ، قل من شركائكم من يبدء الخلق ثم يعيده ، هذا نوع آخر من الاستدلال على الصانع وتوحيده انه اوجد العالم بشرا شره بعد ان لم يكن وهو الأبداع وهو امر صعب تصوّره فضلا عن تحقيقه و الذى اثبته بالضرورة وقوعه الخارجى فان من المستحيل ان يقنع الانسان نفسه ان المواد العالمية كانت موجودة من الأزل فان الموجود لا بدّ له من موجد على الأخص اذا كان متغيرا متحوّلا فى كمّه وكيفه وكلّ ما فيه فالتغيّر والتحوّل دليلان قاطعان على انه متأثر بغيره وهو الذى يغيّره و يحوّله ولا بدّ من انتهاء ذلك الى موجد غير مادّي و غير متغيّر وغير متحوّل وهو وجود واجب الوجود المجرد عن كل مادّة البعيد من فرض تصويره عن كل ما يوجب تأثره و نقصه و تغيّره و تحوّله و هذا الفرض لا يمكن تصويّره للمادّة ولا للطبيعة لأنهما بتغيّرها المحسوس يشهدان على انفسهما انها مفعولان لمن غيّرهما وحولهما لافعلان له لان المؤثر لا يعقل فيه ان يؤثر فى كيان وجوده و هذا كله واضح لكنّ الأعادة بعد الفناء ليست

بواضحة لمن ينكر الخالق فانها لا دليل عليها الا منه ولكنه تعالى ذكرها تبعا لذكر المبدأية المحتممة، قل، لهم يا محمد ان اعياوا عن الجواب، الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنتى تؤفكون، اى الى اين تميلون و تنقلبون، قل، لهم يا محمد ايضا تعجيزا لهم و ابداء لنقصهم و استدلالا على جهلهم، هل من شركائكم، وهى الأصنام التى اتخذوها شريكة لله فى العبادة كما جعلوها شريكة لهم فى اموالهم يقربون لها القربابين و ينفقون على حسابها المال الذى لا يبذلونه لأخص الناس بهم، من يهدى الى الحق، وهو الواقع بأرائه الطريق واقامة الحجة، قل لله يهدى للحق، هداية غير مشوبة بجهل واما الصنم وغيره ممن الوجودات الضالّة فى نفسها المضلّة لغيرها فليس اهلا للهداية، أفمن يهدى الى الحق، وهو الله، احقّ أن يتبع، و يتعبّد بأقواله، أمّن لا يهدى لقصوره فى نفسه، الاّ أن يهدى، الى الطريق، فما لكم كيف تحكمون، بأن تجعلوا القاصر عن الهداية فى نفسه و لغيره شريكا للهادى الى الحق الذى ليس فى هدايته شوب جهل او اغواء او ضلالة، وما يتبع اكثرهم، اى اكثر الذين يعبدون غير الله او يتخذون له شريكا - الاّ ظنًا - و خيالاً و وهما و - ان الظن - و الخيال و الوهم و الهوى النفسى و الرغبة الشخصية - لا يغنى من الحق شيئاً انّ الله عليم بما يفعلون، من باطل يرتكبونه و خيال يتبعونه، و ما كان هذا القرآن يفترى من دون الله، لأنّه معجز فلا يستطيع احد أن يأتى بمثله ولو كان ذلك مقدورا لما وقفتم أمامه مكتوفى الأيدى خرس الألسن لا تملكون أمامه غير اتّهامه بأنه سحر او من تأليف نفس محمد فما اكثر السحرة وما أوفّر الناطقين البلغاء فى العالم فهلا عارضوه حتى تبطل احدوثته فاذا كان الأمر كذلك فكيف تقولون لمحمد ائت بقرآن غير هذا او بدّله فكما انتم

لا تستطيعون أن تأتوا بقرآن غير هذا يكون على طرازه فى اقامة الحجة و اراءة الطريق و الفصاحة و البلاغة او تبدلوه كذلك محمد لا يستطيع اذاً فالقرآن غير قابل للأفتراء لانه معجز، ولكن، كان القرآن، تصديق، الكتب السماوية السابقة عليه، و تفصيل الكتاب، يجوز ان تكون الألف و السلام جنسية لجنس الكتب السماوية فيكون عطف تفسير بالنسبة الى الجملة السابقة و يجوز ان يراد بالكتاب ما هو مكتوب فى القرآن من الأحكام فيكون القرآن بمقارنة بعضه لبعض مفصلاً للأحكام الواردة فيه فان مقارنة الناسخ بالمنسوخ و الخاص بالعام و المطلق بالمقيّد و نظير ذلك تفيد تفصيلاً للحكم و بياناً له، و لا ريب فيه، يجوز ان يكون راجعاً للكتاب كما يجوز ان يكون راجعاً للقرآن و معنى عدم الريب فيه نزوله من رب العالمين لا انه مختلق لانسان او لملك او لغيرهما، ام يقولون، ام هنا منقطعة بمنزله بل — افتراء — اى محمد زوره و نسبه الى الله، قل، لهم محمد بشر مثلكم، فأتوا بسورة مثله و ادعوا من استطعتم من دون الله — مستعينين به — ان كنتم صادقين، فى ان هذا القرآن قابل لأن يؤلفه بشر، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، هذه الفقرة سقت للترقى فى تجهيلهم اى انهم فضلا عن عجزهم عن الاتيان بسورة من مثله لم يحيطوا بمعارف هذا الكتاب العظيم و جهلهم به هو الذى زهدّه فى انظارهم و ذلك شيمة كل جاهل بالنسبة الى ما يجهله، و لما يأتهم تأويله، اى تشقيق معانيه لانهم لم يصيخوا للنبي حتى يبسط معانيه لهم، كذلك، اى كهذا التكذيب بالقرآن، كذب الذين من قبلهم بكتب السماء المنزلة عليهم، فانظر، ايها الناظر، كيف كان عاقبة الظالمين، و بمثل تلك العاقبة تنتهى عواقب هؤلاء اّما فى الدنيا او فى الآخرة، و منهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به، اى ان هؤلاء المشركين قد يتراجع بعضهم

الى الورا ء و تدركه الندامة فيؤمن و بعضهم يبقى حتى يموت على العناد فلا يؤمن ، و ربك اعلم بالمفسدين ، منهم الذين يحاولون تشويش الوضع و تفريق الكلمة ، وان كذبوك ، اى استمروا على تكذيبك و معاندتك ، فقل ، انالنا تراجع عما ادعو اليه ، لى عملى ولكم عملكم انتم بريئون مما عمل وانا برىء مما تعملون ، و هذا من اهم التفكيك بين العنصرين الموحد و الملحد و المؤمن و الفاسق .

* (و منهم من يستمعون اليك افأنت تسمع الصمّ ولو كانوا لا يعقلون : و منهم من ينظر اليك افأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون : انّ الله لا يظلم الناس شيئا ولكنّ الناس انفسهم يظلمون : و يوم نحشرهم كأن لم يلبثوا الاّ ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين : واما نريّئك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فألينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون : و لكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون : و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين : قل لا املك لنفسى ضرا ولا نفعا الاّ ما شاء الله لكلّ امة اجل اذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) *

ضمير الغائب الجمعى يعود الى الكفّار اى ومن الكفّار من يأتىك يستمع اليك حديثك و لكن لا يتأثر منه لانه لم يأت للتفهم مع تزايد روح الحقد فيه

فهو كالأصمّ الفاقد للعقل فان من يجمع بين صفتي الصم و فـقـدان الشعور لا يكون محلاً للأدراك اصلاً بخلاف ما لو كان اصمّ ولكن كان عاقلاً فإنه بلطائف الاشارات يستطيع ان يفهم كلّ شيء و هكذا يأتيك من ينظر اليك منهم ليعينه بصره على ما يحاول من اقتناع فان النظر الى المتكلم آلة الثالثة وراء السمع و الشعور لتحصيل المقاصد و لكنه لما كان على الوصف الذي آنفناه من الحقد المتزايد و عدم الحضور للتفهم و انما حضر لعلّه يستحصل نقطة ضعف في الطرف فيحمل عليه من هذه الجهة فمثل هذا اعمى بصر و بصيرة و الأعمى من هاتين الجهتين لا مطمع فيه بخلاف ما لو كان اعمى بصر وحده فإنه قد يفهم من طريق السمع لوجود البصيرة في قلبه اذاً فالانسان هو الذي يقدر على اسعاد نفسه و اشقائها و الله هدى الناس هداية عامّة فليس عليه سبيل وراء ذلك ان الله لا يظلم الناس شيئاً و لكنّ الناس انفسهم يظلمون ، و يوم نحشرهم ، و ذلك هو يوم القيامة فيقولون حينذاك سبحان الله الدنيا التي كنّا نعترك عليها و فعلنا فيها كل باطل كأنّها لم تكن الا ساعة من النهار و هناك يتعارفون بينهم ماذا واجه كلّ من طريق عمله و هناك يتبيّن للذين كذّبوا بمعادهم على ربّهم عند ما كانوا في الدنيا انهم كيف سفهوا في المبداء حتى خسروا المعاد و انهم ما كانوا مهتدين في دنياهم ، واما ان شرطية و ما زائدة و اصل الجملة ان نرك و النون قبل كاف الخطاب للتأكيد يعنى يا محمّد ان فسحت لك الأيام و رأيت الذي نفتحه عليك و نريك من هوان اعدائك و مناوءيك فذاك و ان نتوفك قبل ان ترى ما يحلّ بهم فالينا مرجعهم يوم القيامة فترى هناك ما تقرّ له عينك ، ثم ، بعد وفاتك الله يكون شهيداً عليهم قال تعالى ذلك لانه مكرراً قال في حقّ رسوله اتا ارسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً اى تشهد

اعمالهم في الدنيا فتخبرنا عنها في الأخرى و هنا قال ثم الله شهيد على ما يفعلون اي انه يملأ هذه الفجوة فلا يدعها شاغرة، ولكل أمة من امم العالم رسول نبعثه ليكون حجة عليهم فاذا جائهم رسولهم و بين لهم ما هي وظيفتهم فأطاعه من اطاعه و عصاه من عصاه قضى بينهم بالقسط فيؤخذ الظالم و يحسن الى المحسن وهم لا يظلمون كان رسول الله يتوعدهم عن لسان الله على المخالفة و اللجج فكانوا يقولون له متى هذا الوعد يحق بنا ان كنت يا محمد و يا اتباع محمد صادقين فيما تتهددونا به ، فقل يا نبي الاسلام في جوابهم انا انما افرغ عن لسان الله و الآفأنا في حدّ ذاتي لا املك لنفسي فضلا عن غيري ضراً اذفعه عنها ولا نفعاً اجلبه لها الا ما شاء الله من نفع و ضرر و ان لكل أمة اجلا محد ودا مضبوطا في علم الله فاذا جاء اجلهم حان حينهم فلا يتقدمون عليه ساعة ولا يتأخرون عنه ساعة .

* (قل ارايتم ان أتاكم عذابه بياتا او نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون : اثم اذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون : ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون : و يستنبأونك أحق هو قل اى و ربى اته لحق وما انتم بمعجزين : ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به واسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون : ألا ان لله ما فى السموات والأرض ألا ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون : هو يحيى و يميت و اليه ترجعون : يا ايها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم و شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين: قل بفضل الله و رحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) *

الخطاب بـ قل لمحمد يعنى قل لهم الذين ما زلتم تقولون مستحّثين متى هذا الوعد وهو انزال العذاب بهم ارايتم ان اتاكم عذابه بياتا اى فى الليل و انتم نائمون او نهارا و انتم منتشرون فى الأرض تكتسبون ولا بسكم و ذقتم حرارة وقعه و شدة لذعه فهل ترون انفسكم هاشة له راضية به مستعجلة لوقوعه بهم طبعاً لا و انما استعجلوه سابقاً لظنهم انه كذب و تهد يد فارغ، اثم الهمزة للاستفهام الأنكارى و ثم جىء بها مائزاً بين كلامين وليست هى على معناها الجارى فى العطف اذا ما

وقع ما زائدة كما فى كثير من موارد ها بعد اذا و فاعل وقع ضمير العذاب
بمعنى ان ايمانكم بالعذاب الموعود موقوف على نزوله بكم كأنكم
لا تعتقدون بوجود الله ولا بقدرته على عذابكم الآن عندما نزل بكم
و ارجعكم تؤمنون به وقد كنتم قبل حلوله بكم تستعجلون به جازمين بأنه
لا اصل له ولو كان للعقيدة به اقل منفذ لأذهانكم لما استعجلتموه فى
حينه ، ثم قيل ، يعنى بعدما حلّ بهم ما كانوا يستعجلون به قيل لهؤلاء
الظالمين لأنفسهم و لغيرهم ذوقوا عذاب الخلد الذى لا نهاية له
و ليس الذى نذيقكموه ايقاعاً منّا بالجفاف بل بمقدار ما كنتم تكسبون
و يستنبأونك فى الدنيا بعد وعدهم بالمؤاخذه و قبل انزال العذاب
بهم أحقّ ما وعدتنا به قل اى وربى انه لحقّ وما انتم بمعجزين لله عن
اخذكم و مؤاخذتكم ، وفى ذلك اليوم الذى انعقد للمجازاة لو ان لكل
نفس ظلمت فى الدنيا ما فى الارض جميعاً بعنوان انه ملك شخصى
موجود حاضر عتيد لديها لبدلت على كثرته و غلاء قيمته حتى تفتدى به
و اسروا الندامة على ما فرطوا فى جنب انفسهم حين شاهدوا العذاب
بعد انتظارهم له وقضى ربك بينهم الظالم و المظلوم و المؤمن و الفاجر
بالحق وهم لا يظلمون شيئاً من حقوقهم المحسن و المسىء منهم ، الا ان
لله ما فى السموات و الأرض فهو قادر على اعظم العذاب و اشدّه و على
اجزل الثواب و امدّه الا ان وعد الله بالثواب و العقاب حق ثابت ولكن
اكثرهم لا يعلمون بثبوت استبعادا له و استغراباً لأن يكون هناك من به
على هذا الثواب و العقاب ، هو اى الله يحيى كل مادة يريد احيائها
و يميت كل ذى حياة يريد امانته و اليه تعودون للحساب و الكتاب ، يا
ايها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وهو القرآن فانه نعم الواعظ
و المرشد و شفاء لما فى صدورهم من الشكوك و الارتياب و الشبهة و هدى

تهتدون به الى ما يسعدكم دون ما يشقيكم ورحمة للمؤمنين فى الدنيا بتعد يل نظامهم وفى الآخرة بأيتائهم نتيجة زحماتهم ، قل لهم يا محمد انزال هذا القرآن عليكم بفضل من الله ورحمة منه يمثل هذه الرحمة فليفرحوا فانها خير مما يجمعون من حطام الدنيا فان حطام الدنيا مع الجهل يكون بلاء على الانسان و انما يكون رحمة له مع العلم والعمل به . و أخيرا فكل تكليف ومن اى مولى صدر لا بد وان يكون له رصيد و ذلك لا يتحقق الا بأمر - اولها - البلوغ ثانياها العقل ثالثها القدرة رابعها العلم بالمسؤولية فغير البالغ باعتبار ان بنيان بنيته الطبيعية ليس بتام الوزن بل هو فى طريقه الى التمام ليس بمحطة للتكليف و لذلك يعتبر عمده فى الجنايات و المتلفات خطأ و غير العاقل حكمه حكم البهيمة و عمده خطأ ايضا و العاجز عن القيام بوظيفة التكليف معذور لعجزه فالعاجز عن الصوم ساقط عنه و العاجز عن آية وظيفة اخرى كالجهاد و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مثله و الجاهل قسمان قاصر و مقصر و القصور تارة يرجع الى نفسه بأن يكون ضعيف الفطنة غير متوهج الحاسة فهذا يلحق بالعاجز تقريبا و اخرى يرجع الى محيطه و بيئته كسكنة البرارى البعيدين عن الحضارة بعدا شاسعا وكلاهما معذوران ماداما على الوصف و المقصر بجميع اقسامه مسؤل اى سواء كان من سكنة القرى و البوادي و باستطاعته الارتباط بأهل المعرفة ام كان من سكنة الحواضر لكنه بعيد عن مزاوله اهل العلم و الموعظة هى النصيحة للطرف خدمة للانسان و خروجا عن مسؤولية الضمير و شفاء الصدور فى المعنويات هو ابعاد الوسواس الشيطانية عنها و اعطائها الراحة و الاستراحة من الميول النفسية العارمة والشكوك الفكرية .

وعلى تلك الأسس السابقة نطق الوحي بقوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وذلك هو المعنى فى هذه الآية بقوله يا ايها الناس خطاب لكل آدمى آمن ام الحد مشى على الطريقة ام جار قد جاءكم موعظة من ربكم فى كتب منزله و رسل لا تنطق عن الهوى و تتكفل هذه الموعظة شتى المجالات من عبادات و معاملات و احكام و هذه المواعظ تشريعا و تطبيقا تشفى الصدور من مرض الجهل و الأهواء الفاسدة النابعة عن استدعاء الطبيعة الحيوانية و تهدي الى طريق الحق القائم بالعقول و الحق عقيدة و عملا رحمة للمؤمنين و كل ذلك من فضل الله على الناس و رحمته بهم فليفرحوا بهذه العطايا المعنوية فانه خير مما يجمعون من حطام الدنيا فان الأصرار على جمع هذا الحطام فيه مشقتان مشقة جمع و حسرة فوت و كلتا المشقتين ثقيلتان على العاطفة .

* (قل أرأيتم ما أنزل اللّٰه لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلّٰه اذن لكم ام على اللّٰه تفترون : وما ظنّ الذين يفترون على اللّٰه الكذب يوم القيامة ان اللّٰه لذو فضل علىّ الناس ولكنّ اكثرهم لا يشكرون : و ما تكون فى شأن و ما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الاّ كنّا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه و ما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الاّ فى كتاب مبين : الا ان اولياء اللّٰه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون : الذين آمنوا وكانوا يتّقون : لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبدل لكلمات اللّٰه ذلك هو الفوز العظيم) *

تفيد الآية الأولى ان المشركين كانوا يحرمون على انفسهم بعضا ممّا يرزقون به و يحلّون البعض ففندهم اللّٰه بأن سنّم لهذه القوانين لا يخلو امّا ان يكون من بدع انفسكم فمن السفه ان يحرم الانسان على نفسه ما ليس حراما عليه فى عقله و العقل انما يحرم المضارّ على الانسان لا اكثر و امّا ان تسندوه الى الله فاللّٰه لم يحرم عليكم ما حرّمته على انفسكم فما ذلك الاّ الجهل يعبث بصاحبه كما سبق الحد يث عن نظير ذلك من تحريمهم لجملة من الحيوانات المأكولة اللحم ، انزل اللّٰه لكم من رزق اى انزل موادّه الأولى وهى الأمطار التى تكون مصدرا لحياة الأحياء من نبات و حيوان ، اللّٰه بالمدّ لأنّ اصله اللّٰه ، وما ظنّ الذين

يفترون ويسندون الى الله ما لم يقله اذا تحقق يوم القيامة وحصل مواعده
 أيكونون قريبين من رحمة الله ام بعيدين عنها لا شك انهم يكونون
 بعيدين عنها ، ان الله ببيانه للواقع و انذاره الناس و تحذيره من
 المعاصي لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم وهم المنحرفون العصاة
 لا يشكرون له هذه النعمة بالعمل عليها بل يماشون اهوائهم التي
 ترد بهم بالمال قطعا ، وما تكون انت يا محمد في شأن من الشؤون وما تتلو
 منه من بيانيه للشأن الذي يكون فيه تُقدّر بغي اي تتلو في ذلك الشأن
 الذي تكون بصدده ما ينطق عليه من القرآن ولا تعلمون انتم يا جماعة
 المكلفين من عمل الآكنا عليكم شهودا بمعنى ان اعمالكم تكون منظورة
 مشهودة لنا ، اذ تفيضون فيه اي حين تمارسونه ، وما يعزب اي يغيب
 و يبعد عن ربك من مثقال ذرة من زائدة جيء بها لتأكيد مدخولها
 وهو ما اريد به التقليل و الذرة هي الهباءة و المثقال منها يراد به
 المقدار القليل منها فاذا كانت الذرة في نفسها قليلة فماذا ترى يكون
 المثقال منها و كلمتا اصغر و اكبر معطوفتان على ذرة و جرتا بالفتحة
 لانهما ممنوعتان من الصرف و الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وهو علمه
 تعالى ، ولما كانت اعمال اولياء الله صالحة لا منفذ للشر فيها ومضبوطة
 في علم الله كان من لازم ذلك ثبات انفسهم يوم القيامة وعدم اضطرابها
 و انشراحها دون حزنها وانقباضها ثم اعطى كلية عامة وهي ان المكلفين
 الذين جروا على ما يوجبه التكليف عليهم من الايمان بالله و برسوله
 و بالمعاد واتقوا ربهم في اعمالهم ولم تمش بهم شهواتهم توال لهم
 البشرى في السعادتين الدنيوية و الآخروية هذا ما قرره الله على نفسه
 ولا مبدل لكلماته وذلك هو الفوز العظيم لمن آمن و اتقى .

* (ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو
السميع العليم : الا انّ لله من فى السموات و
من فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون
الله شركاء ان يتبعون الا الظنّ و ان هم
الاّ يخرسون : هو الذى جعل لكم الليل
لتسكنوا فيه و النهار مبصرا انّ فى ذلك لآيات
لقوم يسمعون : قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه
هو الغنى له ما فى السموات وما فى الارض ان
عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما
لا تعلمون : قل انّ الذين يفترون على الله
الكذب لا يفلحون : متاع فى الدنيا ثم الينا
مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا
يكفرون) *

نهى الله نبيّه ان يتأثر مما يقول المشركون و الكفار و المنافقون له
من سباب و استهزاء و تحقير معللا ذلك انّ ما تواجهه فهو سحابة صيف
عن قليل تقشع فان كل عزة تتصورها هى لله و انت رسوله و رسول العزيز
عزيز مثله لكنّ عالم الاختبارات يقضى علينا ان نفسح المجال للمكّلف حتى
يبرز الذى فى باطنه عند الأمان من المؤاخذة وهو حيث يرى ان لا
مؤاخذة منقودة يظنّ أن لا وجود لها و أنّما هى كسراب ببيعة يحسبه
الظمان ماء ، هو السميع لما يقولون لك العليم بما يكّنون و يضمرون ، الا انّ
لله من فى السموات و من فى الأرض هذا استدلال على ان العزة لله
جميعا فاذا كان جميع الكائنات ملكا لله فبطبيعة الحال يكون هو اعلا

منها واعزّ، وما يتبع المشركون الذين يدعون من دون الله شركاء الآ
شركاء و هميين حذف مفعول يتبع لدلالة مفعول يدعون وهو شركاء عليه
وما يتبعون فى خطواتهم التى يخطونها الآ الظنون الفارغة فليسوا هم
الآ خراسين لا واقعيين، ومن نعم الله على مخلوقاته البشرية ان جعل
الليل القابض للبصر و لكافة الحواس سكنا لكم تريحون فيه ابدانكم من
الكدّ و التعب و جعل النهار ناشرا للبصر و لكافة الحواس لتبتغوا فيه
من فضله ان فى ذلك السكون و الانتشار كلاً فى وقته و لداعيه المعقول
لآيات يستدلّ بها اهل العقول و الحواس الصحيحة على ان للكون
صانعا حكيمًا، قال المشركون و منهم هنا اهل الكتاب اتخذ الله ولدا
لنفسه اما عزير او المسيح او الأصنام جلّ الله و تنزهه هو الغنى عن كل
شئ لان كلّ شئ من فيضه فهو مصدر الفيوض و الذى يكون غنيا من
عامة جهاته لا يحتاج الى الولد من جميع حيثياته بخلاف الماديين
فأنهم يرون الولد اما زينة و اما قوّة و اما وارثا، له مافى السموات و مافى
الأرض و هذا دليل غناه المطلق، وانتم الناسبون له الاولاد و البنات
لا تملكون فى نسبتكم الآ الدعوى المجردة و تقولون على جلال قدسه بما
لا تعلمون، مضافا الى ان الذى يتخذ الافتراء مفتاحا لحياته لا يفلح
فيها الآ مؤقتا فاذا انجلى كذبه و افتراءه افضح و من هنا قال تعالى
متاع فى الدنيا اى غاية ما يستفيد من طريق التزوير و الافتراء متاع قليل
فى الدنيا و التقليل يفيد التذكير و المقام، ثم الينا مرجعهم اى مثآلمهم
للحساب و طبعا نذيقهم العذاب الشديد بسبب ما كانوا يكفرون بالله
ذاتا و صفة .

* (و اتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان
كبر عليكم مقامى و تذكيرى بآيات الله فعلى الله
توكلت فاجمعوا امركم و شركائكم ثم لا يكون امركم
عليكم غمّة ثم اقضوا الىّ ولا تنظرون : فان توليتم
فما سألتكم من اجر ان اجرى الاّ على الله وامرت
ان اكون من المسلمين : فكذبوه فنجيناها و من
معه فى الفلك و جعلناهم خلائف و اغرقنا
الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة
المنذرين : ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم
فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به
من قبل كذ لك نطبع على قلوب المعتدين) *

و اتل يا محمد على قومك المؤمنين و الكافرين معا لتكون هـذـه
التلاوة تسلية لك و للمؤمنين منهم و بشارة لك ولهم و اعلاما بالخطر
للكافرين منهم و نبأ نوح حديثه و ما جرى منه و له فى الاقوام الذين
عاصروهم و أرسل اليهم اذ قال لقومه بعد بعثته لهم و تبليغها اليهم
و مرور زمان على ذلك يا قوم ان كان كبر - اى ثقل - عليكم مقامى اى
وجودى بين اظهركم بعنوانى مبلغا مبشّرا و منذرا و مذكرا بآيات الله
فان ذلك لا يهمنى ولا يزعجنى لأنى متوكل على الله و معتمد عليه و هو
سندى و سنادى و عليه اعتمادى و لا تجاملونى اكثر من ذلك بل اجمعوا
امركم اى كفكفوا قواصيكم حتى تصيروا بذلك مستعدين للنهوض و ضموا
شركائكم اليكم ان كان فيهم خير يرتجى من جلب منفعة و دفع مضرّة و اين
ذلك من الأصنام ثم لا يكن امركم عليكم غمّة اى تزوونه و تسترونه روماً

للمجاملة التافهة و ابقاء على النفاق البغيض ثم اقضوا الى اى انتهوا
الى و بمعنى آخر اقصدونى وتوجهوا الى مبارزين مناجزين ولا تنظرونى
اى تمهلونى فان توليتم واعرضتم عنى مخافة ان اكلفكم فى اموالكم شيئاً
فأنى ما سألتكم من اجر منذ دعوتكم ان اجرى الآ على اللماذى خلقنى
و كلفنى بتحمل هذه الوظيفة و أمرت ان اكون من المسلمين له كما أمرتم
انتم ايضا ان تكونوا من المسلمين فكذبوه اى اصروا على تكذيبه و طال
الأمد عليه و عليهم فنجيناه و المؤمنين معه فى الفلك الذى امرنا بصنعه
و جعلنا هؤلاء المؤمنين الناجين خلائف فى الأرض منهم كان النسل
وهم اصبحوا عمّارها و اغرقنا الذين اصروا على التكذيب بآياتنا فانظر
يا محمد و لينظر كل من المؤمن و الكافر من قومك كيف انتهت حال
المنذرين و كيف كانت عاقبتهم ثم بعثنا من بعد نوح رسلا كهود و صالح
و ابراهيم و لوط و شعيب الى قومهم اى اقوامهم و اجيالهم فجاء هؤلاء
الانبياء الأجلّاء اليهم بالآيات البيّنات الدالة على صدقهم فما كان
هؤلاء الأقسام ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ان يأتيهم انبياءهم بل
استمروا على جهلهم و عتوهم و تمردهم كذلك اى بالصورة التى طبعنا
بسببها على قلوب هؤلاء العتاة نطبع على قلوب المعتدين على الحقيقة
بتجاوزهم عنها و انشمارهم منها انشمارا مبعوثا عن خبث عميق و سوء

* (ثم بعثنا من بعدهم موسى و هارون الى فرعون و ملأه بآياتنا فاستكبروا و كانوا قوما مجرمين : فلما جائهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين : قال موسى اتقولون للحق لما جائكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون : قالوا أجيئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا و تكون لكما الكبرياء فى الأرض ومانحن لكما بمؤمنين : و قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم : فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون : فلما القوا قال موسى ما جيئتم به السحر ان الله سيطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين : و يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون : فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون و ملأهم ان يفتنهم وان فرعون لعال فى الأرض و انه لمن المسرفين : و قال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين : فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : و نجنا برحمتك من القوم الكافرين : و اوحينا الى موسى و اخيه أن تبتوا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقموا الصلاة و بشر المؤمنين) *

من بعدهم اى الرسل السابقين على موسى مجيئا وقد تعرضت

الآيات السابقات الى فريق منهم بالتصريح و التلويح و انما خص ذكر موسى و هارون هنا بالبسط لان رسالة موسى لا بست فى الزمان تموجات عارمة طال أمدها و تنوعت احداثها و الملاءم الأشراف و من بيدهم حلّ و عقد و تصريف للأمر، بآياتنا متعلق بقوله بعثنا و آيات موسى كثيرة اهمها عصاه، فاستكبروا اى فرعون وملأه عن قبول هذه الدعوة و كانوا قوما اولى اجرام و تعديات و من يعيش منظويا على روحية الأجرام لا يعود يخضع للحقّ، فلما جاءهم الحقّ وهو انقلاب عصا موسى شعبانا بالحقيقة لإبالتعمية قالوا ان ما جاء به موسى سحر من سنخ هذه الأسحار المألوفة عندنا الآ انه بصورة اهمّ فقال لهم موسى اتقولون للحقّ الثابت انه سحر وما السحر الا صورة جوفاء لا تشفّ عن حقيقة متأصلة ورائها و لذلك لا يفلح الساحر ولو كان السحر ذا فعاليات حقيقية لمملك السحرة شرق الأرض و غربها واخذوا بأعناق الناس، قالوا اى فرعون و ملأه اجئتنا ياموسى انت و اخوك لتلفتنا و تصرف بنا عما وجدنا عليه آباءنا من طرائق مذهبية و مشارب حيوية و تكون لكما السيطرة علينا و الكبرياء فى ارضنا وما نحن لكما على هذه الحالة التى تستوجب منا نزع الأيدى عما كان عليه الآباء و وقوعنا تحت حاكميتكما رعايا لكم بمؤمنين، وقال فرعون لاجل ابراز اللياقة و اعداد المقابلة لموسى و هارون اثتوني ايها الملاء بكلّ ساحر له تقدم فى السحر و معرفة تامّة فائتمروا هؤلاء و انتشروا فى البلدان يتحرون الأليق من سحرتها فالأليق فلما احتشدوا عند فرعون و جاؤ المقابلة موسى فى جموع ضخمة لتقف على نهاية الحاز قال لهم موسى القوا الذى تريدون القائه لتكسبوا به المصير، فلما القوا ما عندهم قال موسى هذا الذى معكم هو السحر المعهود ان الله سيبيطه على يدى و ستلقف عصاى كلّ ما تأفكون ان الله لا يقرّر العمل

الفاسد بل يزيله و يخزيه و أنّما يقرّر الحق و يثبتّه بآياته الدامغة و براهينه الحاكمة ولو كره المجرمون احقاق الحقّ و ابطال الباطل لان ذلك يشلّ حركتهما فى الحياة، فما آمن لموسى بعد هذه المناورة المهمة الأفریق من قوم فرعون، و أمّا بنو اسرائيل فأيمانهم بموسى قطعى للأحراز دين الله بل لأحراز انفسهم فقد كانوا يعانون اشقّ الأحوال و أمرها من الأقباط، على حد ر من فرعون ان يببطش بهم وملأهم ان يتكاثروا عليهم فيفتنوّهم عن ايمانهم بموسى ان فرعون كان عاليا فى الأرض و مسرفا فى سفك دماء الناس و توجّه حينذاك موسى للمؤمنين به وقال يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا اى فوضوا اموركم اليه فأنه لا يعمل مع عباده الا ما هو الأصلح لهم وان لم يتفق مع اذواقهم بالفعل ان كنتم مسلمين له قيادكم فأجابوه الى ما اراد فيهم و قالوا على الله توكلنا و توجهوا الى ربهم ان لا يجعلهم مفتونين بمكاشرة الظلمة لهم و ازعاجهم ايّاهم و ان ينجيهم برحمته من القوم الكافرين فرعون و اشياعه و اوحينا الى موسى و اخيه هارون بعد ان وطدنا امرهما أن اتخذا لقومكما بمصر التى انتم فيها بالفعل بيوتا و منازل و اجعلوا بيوتكم قبلّة لبيوتهم حتى تكونوا فى الطليعة تصدّون عنهم كل طارئ و وارد و اقيموا جميعا الصلاة و بشرّ المؤمنين بأنهم هم المنتصرون و أنّهم هم اهل

الدار .

* (و قال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة
واموالا فى الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيلك
ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم
فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم : قال قد
اجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل
الذين لا يعلمون : و جاوزنا ببني اسرائيل
البحر فأتبعهم فرعون و جنوده بغيا وعدوا حتى
اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى
آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين : الآن
وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين : فاليوم
ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا
من الناس عن آياتنا لغافلون) *

و قال موسى وهو الرأس فى هذه الرسالة و يشفعه اخوه هارون
بعد أن قاما بجميع ما اوتياه من حجة و برهان و آية فلم يطع فرعون
ولا اصاخ ولا آمن ملأه ولا اسلموا ربنا انك اتيت فرعون وملأه زينة واموالا
فى الحياة الدنيا و الزينة هى كل ما يورث صاحبه ابهة و جلالا و جمالا
و قارا بين الناس ، ليضلوا عن سبيلك ، ليس المنظور بظاهر هذا
التعبير انه تعالى انما اعطاهم ذلك ليكون سببا الى ضلالهم وانحرافهم
فان ذلك غير جائز قطعا بل المقصود به انك اعطيت هؤلاء و اشباههم
الأغيار الآخرين ما يكون سببا لشركك و الخضوع لك لكن الحربة التى
اعطيتها لهم ليصنوا بها انفسهم و يذودوا بها عن حريم عبادك
و جهوهالك ولأتباعك فاللام اذا هى لام العاقبة اى كان عواقب انعامك

عليهم الضلال و الانحراف، ربنا اطمس على اموالهم اى خذها منهم كما اعطيتهم و اشد د على قلوبهم اى زد هم اعراضا منك فانك اذا فعلت بهم ذلك انقطع توجههم عن الايمان فان توجههم فى اذ ناب اعماهم الى الحق يفيت حقوق الآخريين الذين عاشوا مظلومين مهضومين لهم — وما يجدى ايمانهم بعد استد بار اعماهم و فعلهم كل قبيح ان هوءلاء يجب ان يروا العذاب حتى يذوقوا مغبة فسقهم و فجورهم و ظلمهم و بغيهم و تعدد يهم على حقوق المخلوق، قال الله على اثر دعوة موسى و اخيه قد اجيبت من ناحيتى دعوتكما فاستقيما على ما انتم عليه من الدعوة الى الحق و المبارزة فى سبيله ولا تتبعان، النون للتأكيد و من حقها ان تكون مفتوحة لكنها كسرت تشبيها لها بنون التثنية — سبيل الذين لا يعلمون و طبعا سوق هذه الوصايا للأنبياء من باب اياك اعنى و اسمعى يا جاره و الا فمقامهم اجل من ان يتصور ذلك فيهم، و كان من نتيجة اجابة دعوتها ان امرهما الله بأن يسيرا بنى اسرائيل حتى يعبرابهم النيل فسارا و ووطد الله لهما البحر فكان المعبر كأحسن جادة قاصدة فعبر بنو اسرائيل فأتبعهم فرعون و جنوده بغيا و بغيهم انهم اتبعوا اناسا خارجين من اوطانهم تاركين كل ما عندهم لفرعون و اتباعه ومع ذلك لم يكتفوا منهم بذلك بل قصدوا مقاتلتهم و اتلافهم و استئصالهم بالمرّة حتى اذا توسط فرعون و اتباعه تلك الجادة القاصدة التقت اطراف الماء عليهم و فى آخر نفس يقوم فرعون بلفظه قال آمنت انه لا اله الا للكون و الكائنات الا الأله الذى آمنت به بنو اسرائيل و انا من المسلمين له فنودى الآن تؤمن يا فرعون بعد ان قضيت عمرا عسب بالخنايات و فاض بالسيئات و ترابطت حلقاته على الخطيئات، و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين، لا توبة لك و ان الفناء محقق لك ولكن نفعلك

دون قومك فعلا وهو انا ننجى جثتك عن الرسوب فى الماء بل ندعها طافحة لتكون لمن بعدك آية و علامة على انك هلكت وان كثيرا من الناس عن آياتنا هذه وامثالها لغافلون .

* (ولقد بوأنا بنى اسرائيل مَبْؤَ صدق و رزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جائهم العلم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ؛ فان كنت فى شك مما انزلنا اليك فسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق فلا تكونن من الممترين ؛ ولا تكونن من الذين كذبوا بايات الله فتكون من الخاسرين ؛ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ؛ ولو جائتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ؛ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الدنيا ومتعناهم الى حين ؛ ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا فانك تكرر الناس حتى يكونوا مؤمنين ؛ وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون) *

يقال بوأه مكانا اذا اسكنه و جعل له مباءة اى مكان رجوع ياوى اليه و يكن فيه و مَبْؤاً صدق اى مكان استقرار مريح وامكنتهم التى سكنوها براحة بعد احباط فرعون وملاءه هى ، مصر و الشام و فلسطين

و رزقناهم من الطيبات اى ما اشتهووه على الله فى التيه فأجيبوا اليه بعد انتهاء محكوميتهم منه وما اختلف بنو اسرائيل فيما بينهم على شريعة موسى الا بعد ان أضلهم العلم الذى حصلوه من الشريعة بتحويله عن مسلكه الواقعى فصار هذا العلم الذى هو مدعاة للخير و للاتفاق و للتقدم و الترقى معكوسا فيهم فانهم اتخذوا منه اداة لتضليل و تغيير و تحويل ومن هنا جاء فى الأمثال رب العالم نفعه علمه او يكون معنى الآية فما اختلف اليهود فى انه يجىء بعد موسى محمد لوجوده . عند هم فى كتابهم السماوى و ذكره على السنة علمائهم الا بعد أن جاء الحق وهو ارسال محمد و طفحت كل العلام المضبوطة عند هم عليه فحينذاك اخذ الحسد و التعنت المبعوث عن الخبث الباطنى يعمل فيهم عملا سيئا حتى نأوته الأكثر و آمن به الأقل فالمنظور من العلم هنا هو العيان ، ان ربك يقضى بين اهل الكتاب يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من قضايا محمد او ما هو اعلم من ذلك من تفرقهم المديد بدوافع الطمع او الحسد او الاغراض الشخصية الأخرى ، فأنت كنت فى شك مما انزلنا اليك ظاهر الخطاب للنبي و لكن المراد به اى مكلف يفرض غيره لان النبي وهو يدعو الى نفسه و يبارز و يناجز دون دعوته لا يعقل فيه ان يكون شاكا فيما انزل اليه وهو يسرده آية آية على الناس و يستلمهم بالوحى من رسول الوحى و المنظور ان اى مكلف فرض و تبلغه دعوة الأسلام و يتشكك فيها فأنت اهل الكتاب موجودون بأزائه فأنت لم تصرحوا له بمحمد نفسه فأنهم يعترفون بمجىء نبي فى هذا المحيط من وصفه كذا و كذا و ان لم يطبقوه على محمد بن عبد الله فان هذِهِ الكليات لا ينكرونها وان انكروا تطبيقها ، لقد جاءك الحق وهو النبوة و الدعوة الى الاسلام من ربك فلا تكونن من الممترين الشاكين الممارين

المجادلين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله القائمة على الحق
الناصة عليه فتكون من الذين يخسرون ضمائرهم و مصائرهم ، ان الذين
حققت عليهم و ثبتت كلمة ربك وهى انهم لا يؤمنون بالواقع باختيار انفسهم
لقيام اللجاجة و العناد فيها حجر عثرة امام المطالب الحق يستحيل
عليهم مع ذلك ان يؤمنوا ولو شاهدوا كل آية معجزة و بيّنة واضحة
ولا تكع انفسهم عن مجارة الخبث الذى يدفعها حتى ترى العذاب
الأليم رؤية حسية يمس بها المة ، فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها
الآ قوم يونس بمعنى فهلا آمنت قرية من تلك القرى التى انزلنا عليها
العذاب ايمانا صادقا قبل توجه العذاب اليها حتى تستفيد من
ايمانها وهذا الحث بالنسبة الى الماضى لا اثر له و انما اثره للحاضر
و القابل على الآ يكونوا مأيوسين من انفسهم و على ان يكون طريق التوبة
و الأناة مفتوحا امام وجوههم - وهو مفتوح لكل احد بشرائطه - فقد
افادت التوبة قوم يونس لما توجهوا الى ربهم توجهها صادقا من كل
قلوبهم فدفعت عنهم العذاب و الخزى و ابقت لهم الحياة الى حين
آخر ماتوا فيه موتا عاديا ، ولو شاء ربك ايمان المكلفين بالقسر و الألجاء
لآمن من فى الارض جميعا لان قسر التكوين لا يعدم اثره لكن القسر
و الألجاء فى عالم التكليف لا مجال له لمنافاته للتكليف المأخوذ فيه
الأختيار و الأختيار و القسر متدافعان لا يعقل تمركزهما فى عرض واحد
و ان كان المكلف حافظا لاختياره فأنت ليس باستطاعتك التشريعية ان
تكرههم على الأيمان الذى تريده لهم و تريده منهم حتى يكونوا مؤمنين
فيرتاح ضميرك منهم ولهم ، وما كان لنفس ان تؤمن الآ بعاملين العامل
الأول العقل و الشعور و تمييز الحق من الباطل بوسيلة القوة العقلانية
و العامل الثانى ارادة الله التشريعية الايمان منهم بأمر بتوجيه التكليف

اليهم به فإذا تمّ الأمران و رغب المكلف في انجاز ما اريد منه فقد تحقق المطلوب و المراد بأذن الله هو ذلك الذي اعربنا عنه ، ويجعل الرجس وهو الأثم و القبح على الذين يزمون بأنفسهم عن الحقيقة ولا يخلّون بينهما حتى تتعرف النفس عليها فتعتنقها و هذا هو المنظور بالذين لا يعقلون .

* (قل انظروا ماذا في السموات و الأرض و ما تغنى الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون: فهل ينتظرون إلاّ مثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين : ثم ننجى رسلنا و الذين آمنوا كذلك حقّا علينا ننجى المؤمنين : قل يا ايها الناس ان كنتم في شكّ من دينى فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم و أمرت ان اكون من المؤمنين : و ان اقم وجهك للدين حنيفاً و لا تكوننّ من المشركين : و لا تدع من دون الله مالا ينفعك و لا يضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين : و ان يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له الاّ هو و ان يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم : قل يا ايها الناس قد جائكم الحقّ من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه و من ضلّ فانما يضلّ عليها و ما انا عليكم بوكيل : و اتبع ما يوحى اليك و اصبر حتى يحكم الله و هو خير

قل يا محمد للكفرة من مشركين و منافقين انظروا نظرا اعتبارا ودقة
 ماذا - و ذا زائدة هنا - فى العوالم العليا و عالمكم الذى تعيشون فيه
 من عجائب قهارة و اوضاع جبارة فانكم بالتفاتة واحدة اليها و تحكيم
 مشاعركم فيها و خلو ضمائركم من ظلمة حابسة و خبث قابض تعودون
 مؤمنين بالله ايماننا عاليا و معتقدين بذاته و شريف صفاته عقيدة راسخة
 لكن اذا قعد بكم جهلكم و تراجع بكم حقدكم و انكمش بكم حسدكم
 و ردتكم الى ظلمة اليأس خبثكم فلا يعود يؤثر شىء من ذلك فى ضمائركم
 و ماتغنى الآيات ولو كانت فى عداد اوضح الواضحات ولا النذر - جمع
 انذار - ولو كانت تهز اقسى العواطف عن قوم ليسوا حاضرين لأن يكونوا
 مؤمنين ، فهل ينتظر امثال هؤلاء المتحجرة عواطفهم الا مثل ايام الذين
 خلوا من قبلهم حيث اصرروا على التمرد و قاوموا فى العناد و استمروا على
 اللجاجة مع رسلهم فحاق بهم ما اهلكهم قل فانظروا ذلك انى معكم
 من المنتظرين لوقوعه بكم و توجهه لكم ثم ننجى رسلنا من بين اقوامهم
 الذين حكموا بالفناء و الذين آمنوا بهم ننجيهم معهم حقا علينا ننجى
 المؤمنين من رسل و اتباع ، قل يا ايها الناس و المراد بهم عتاة الكفرة
 الذين لا يزدادون مع الآيات الا تشككا ان كنتم فى شك من دىنى الذى
 دعوتكم اليه و اقمتم بليغ الحجج عليه فانا لا انزع يدى مما انا فيه ولو
 اطبقتم على خلافى ولا اعبد الذين تعبدون من دون الله و لكن اعبدوا
 الله الذى يتوفاكم اليه و ليس بكم قدرة على الامتناع عليه و امرت ان اكون
 على كل حال من المؤمنين به ، و أن اقم يا محمد و الخطاب فى هذا
 و ما بعده من باب اياك اعنى و اسمعى يا جاره و من باب سوق ابلح

الانذار للأغيار فاذا كان لا هوادة لله مع اعزّ و اطهر مخلوق له فمع من دون ذلك اولى ان لا تكون له هوادة - وجهك للدين - اى اجعل دينك دائما تلقاء وجهك لا وراء ظهرك - حنيفا - مائلا عن كل نزعة سواه - ولا تكوننّ من المشركين - برّبك فان كل مادون ربك مصنوع له و كيف يقف المصنوع فى صفّ صانعه - ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرّك - كما يصنع اغبياء البشرية و جهلاؤها من اتخاذهم للانصام شركاء لله - فأن فعلت - و اشركت - فانك اذا من الظالمين - لنفسك ولعقيدتك برّبك، و اعلم يا محمّد ويا غير محمّد ايضا ان قدر الله عليك ضرا يمتحنك به فلا يستطيع كشفه الا هو وان يردك بخير يفيضه عليك فلا رادّ لفضله بل يصل اليك على كل تقدير يصيب بفضله من يشاء من عباده و من فضله على عباده غفرانه لذنوبهم اذا تابوا ورحمته لهم اذا انابوا، قل يا محمّد و اعلم الناس اعلاما عاما انه قد جائكم الحق من ربكم وهو الاسلام فمن اهتدى به فانما يهتدى لنفسه و نفعه لخاصة شخصه و من ضلّ و انحرف فانما يضلّ عليها ولا يتصل عذابه بغيره و ما انا عليكم بوكيل اتحمل مسؤولياتكم بعد أن قمت بواجب الأعدار و الانذار، و اتبع يا محمّد ما يوحى اليك سهلا كان ام صعبا شاقا كان ام لامشقة فيه و اصبر على مؤلمات الحياة حتى يحكم الله بينك و بين من يقف امام دعوتك وهو خير الحاكمين .

و اخيرا فالنظر الى ما فى السموات و الأرض يتكفل نظرتين نظرة الى ما فيهما من عظيم الصنعة و نظرة الى ما فيهما من المجارى الحيوية لزاقة الناس .

(١) اما النظر الى ما فيهما من عظيم الصنعة فيعطينا يقينا قاطعا بأن هناك صناعا لا تبلغ العقول درك كنهه فان العقل قد يدهش

للأقمار الصناعية من حيث صنعتها لكنه بعد التأمل يرى ان دورانها حول الكرة الأرضية بعوامل ضمت اليها وقد كدّت دراسات العقول فى خلق تلك العوامل من الطبيعة وضمها اليها احقابا طويلا من الزمان وقامت الدول القهّارة ردة لها أما الأقمار الطبيعية معظمة جثتها وفقدتها للعوامل الصناعية وعدم دخالة العقول فيها ترى لها دورانا حول الشمس فى ابعاد متزنة عظيمة جدا لا تزول ولا تحول عنها فجّل من افرغها فى هذا النصاب المدهش و مسألة القمر فى الكائنات وما هو اعظم منه كالشمس و المجرّة وما هو اقلّ حجما وليس بأقلّ دهشة كالنملة و الفراشة ذات الأجنحة المخططة و الأصابع الأخاذة غيظ من فيض ممّا فى الكون و ذلك ممّا يدعونا الى الاعتراف بصانع عظيم عليم حكيم .

(٢) أما النظر الى ما فيهما من المجارى الحيوية فالذى يدركه الناظر فى مجارى الحياة لوان لون يُرى الانسان لعين الناظر المعتبر انه من اتعس خلقة تتصور فهناك تهجّم و تعدّ و ابتزاز و انتهاز و دجل و تدليس و غش و لصويّة و اراقة دماء و تضيق لنفس الحياة على الأطلاق و هذا هو ما يدعو المتأثر الى الاعتراض على الخالق بل ربّما جرّبه الأستيحاش من مسير الحياة الى انكار الخالق رأسا و الأعتقاد بأن هذا الكون ليس له راع يرعاه اصلا و لون يرى الانسان من المثاليين البررة الصالحين انه من احسن ما يمكن تصوير خلقته فيرى تعففا و حلما و علما و سخاء و حياء و عدالة و احسانا و مواساة كما يرى الحياة الى جنب هؤلاء من انعم ما يتصور و اذا حصر نظره بهذا الفريق اعجبته الحياة ايما اعجاب و تراه يحكم حكما باتا بان الحياة ولو كانت ضئيلة المادة فى جنب هؤلاء هى اثرى من الحياة فى باريس تحت ركام هذه اللآبالية المائعة و التوحش المقيت و الازعاج فى ظلال الجمال و لكن

مع الأسف المقيم المقعد ترى الناس الذين يحيون بعقولهم هـذـه الشخصيات الموقرة يوسعونها تبريحا بأيد يهم وجوارحهم استجابة الى مادة مشفوعة بأذى و دنيا مملوءة بالهنات و الزفرات و جاه موصول بالذلة و الحقارة ان شخصية الانسان على ما يريد الله من التخلق بأخلاقه تتحطم الأقلام دون الوصول الى تخومها فنظرة الى حياة على امير المؤمنين فى شتى جنباته من علم و حلم و سخاء و وفاء و بطولة و رجولة و هممة عالية و عبادة و زهد و تقوى و فصاحة و بلاغة و حنكة و حكمة ممّا تدع الاقلام عاجزة و الألسنة فهمة و العقل متحيرا هذا الانسان الذى نظر الى ما فى السموات و الأرض فأكسبه نظره معرفة بخالقه تامة حتى عبر عن ذلك بقوله لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا و هذا الانسان الذى نظر ايضا الى مسيرة الحياة بين الأحياء فوجد لها غلطا و انحرافا فاضحا فرسم من نفسه صورة رسمت على خارطة العالم شكلين بعيدين عن النيل عريقين فى الحقيقة هما معرفة الصانع و الهدف من الصنعة فكان بذلك احسن معرف لمضمون هذه الآية قل انظروا ماذا فى السموات و الأرض وما تغنى الآيات و النذر عن قوم لا يزنون الحقائق حتى يعرفوها فهم لا يملكون الايمان بأى شىء لأنهم لا يعرفون اقل شىء عن الواقع الراهن و لذلك تراهم لا دنيا معهم ولا آخرة لهم .

هذا وقد لاحظت فيما سبق ان النظر المأمور به من ناحية الله على نحوين احدهما من ناحية عظيم الصنعة و ثانيهما من ناحية الميسر الحيوى و ان الأول وهو الاعتراف بالصانع انما دعى اليه ليكون ركيزة الى قيمة النظام الذى يقرره لمسير البشرية و قيمة نظمه تعالى انما يكون لها اهمية لداعيين الأول انه تعالى واقف على حقيقة مخلوقاته فهو الطبيب الذى يشخص الداء بدقة و ما اهم هذه النقطة فى واضعى

القوانين و اطباء النفوس و الأبدان الثانى انه تعالى غير متحيز لفريق دون فريق ولا يدعوه هوى نفسى كغير المعصومين من الناس و مسيرة الدين حتى فى مستحباته و مكروهاته لها اثر ثمين فضلا عن الواجب كالأمر بالمعروف و الحرام كالغيبه و النميمه فمن مستحباته مثلا ماورد من استحباب تعليم الآباء لبناتهم سورة النور المحتوية على مثل قوله تعالى قل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ولا يبدين زينتهن ولا يضربن بأرجلهن و ان لا يعلموهن سورة يوسف لما فيها من حديث المعاشقة و المغالبه على فعل الباطل و من مكروهاته انه يكره للرجل ان يجلس فى مكان المرأة قبل أن يبرد وفى كل هذه الأهداف آثار قيمه و بعد هذا الرصيد امر تعالى نبيه ان يقول للناس قد جائكم الحق من ربكم وهو ما اشرنا اليه مختصرا فمن اهتدى و سار على النظام فأنما يهتدى لنفسه اى انه ينوش اثر ذلك و ضعا و من ضلّ فأنما يضلّ عليها و تترتب آثار الضلال عليه طبعاً و فى هاتين الفقرتين ابان سبحانه ان الدين انما اريد لصالح الحياة صرفاً حتى يستطيع ان ينهى الانسان حياته بكرامة و كما تتطلب الحياة الصحيحه منه وقد تطوّر هذا المعنى عند العوام الى ضدّ حقيقته فتخيّل المغمورة عقولهم ان الدين معناه صرف لقلقه اللسان بالصلاه و صرف الأمساك عن الطعام و صرف الذهاب الى مكة و صرف الانتساب لمحبة اهل البيت و نصب المآتم فى مصائبهم و العمل بالأحراز و الأدعية و لا يمنعهم ذلك عما يزاوله المنحرفون من الناس الذين جمعوا بين ترك الصلاه و اكل الربا و عدم الصوم و الأججاف بحقوق الناس و عدم الذهاب الى الحجّ و الغيبه و النميمه و كما انّ هذا الخيال فى ادغمتهم خطأ فى الواقع خطأ فى نظام الدين قطعاً ، و ما انا عليكم بوكيل ، يعنى لا ارانى ملزماً بالدفاع عنكم محقّين كنتم ام

مبطلين كما يفعل الوكلاء عن الناس تحقيقا لمنافع وكالتهم المادية، ثم اوصى تعالى نبيّه بقوله و اتبع ما يوحى اليك كما يجب على عامّة المكلفين ذلك لكنّهم لا يصيخون لما هو بصالحهم ركضا وراء الشهوات الآنيّة و الفرق بينك و بينهم انك داعى دين فيجب عليك ان تمضى الى الامام على كل حال و اصبر على عنت حتى يحكم الله بحسن العاقبة وهو خير الحاكمين لا يحيف ولا يتجاهل بحقّ المستحق .

** (سورة هود) **

هى مكية كما يلوح من مضامينها وفى قول الأكثرين ايضا وعدد آيها مائة وثلاث وعشرون آية وفى فضلها وردت آثار كثيرة فقد جاء فى الأثر انه قيل يارسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود واخواتها الحاقّة والواقعة وعمّ يتساءلون وهل اتاك حديث الغاشية .

* (بسم الله الرحمن الرحيم : الر كتاب احكمت

آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : الآ تعبدوا

الآ الله اننى لكم منه نذير وبشير : وان

استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا

الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضلهم وان تولّوا

فانى اخاف عليكم عذاب يوم كبير : الى الله

مرجعكم وهو على كل شىء قدير) *

تقدّم موجز من الكلام عن الحروف المقطعة والأحكام هو الأتقان والتفصيل يقابل اللف والأجمال والأمتاع والتمتع هو وضع المتعة تحت اختيار الطرف وارتفع كتاب على انه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب والآ تعبدوا والآ الله مصدر مسبوك منجرور بحرف جرّ محذوف تقديره على الآ تعبدوا واحكام آيات القرآن معناه انه قد اتخذ فى تقنينها متن الواقع فليست قائمة على تخرض وتخمين او ميل نفسى او غرض شخصى كسائر قوانين البشر والحق كذلك فان كل من يتدبر قوانين الاسلام بدقّة وامعان يدرك انها نسخة عن الواقع ليس فيها تلاعب ولا هى قائمة على رمز ، والمنظور بقوله ثم فصلت بعد قوله احكمت آياته

ان آيات الكتاب احكمها الله تعالى جملة ثم فصلها على الناس بالنزول حسب سنوح الدواعى والحكيم هو الذى يضع الهناء مواقع النقاب والخبير هو العالم وفرق بين العالم والحكيم فربّ عالم ضليع يفوت عليه التطبيق وأول ما دعت اليه هاته الآيات المحكمات هى عبادة الله وحده وذلك يستلزم امرين الأول ان العبادة لا تجوز ولا تحقق الا للخالق الذى بيده مقدرات مخلوقه من عامة نواحيه والثانى ان الشرك فيها يستلزم ايقاع التقارب بين الناقص والكامل وهو محض الجهل ويساء المتكلم فى اننى راجعة للنبيّ المتحدث عن الله والنذير هو المخوف والبشير هو الباسط للنفس الشارح للصدر المدخل للسور على الطرف والأستغفار هو طلب المغفرة وهى ستر الذنب والتغطية عليه والتوبة هى الاقبال على الله بعد الأعراض عنه والأقبال عليه انما يكسبون بالطاعة والأعراض عنه انما يحصل بالمعصية وايقاع الترتيب بين التوبة والأستغفار معناه ان طلب ستر الذنب من الله لازمه التوجه الى الذنب وانه بئس العمل فاذا حصل هذا التوجه تعقبه الرجوع اليه تعالى بفعل الطاعة وتلافى آثار المعصية والأمتاع الحسن فى الدنيا حسن الأحدثه بين الناس وتحصيل الشخصية وكلاهما مما يبذل له الناس بذلا واسعا فى المال والسعى والأجل المسمى هو الموت ومعنى ايناء كل ذى فضل فضله ايتاؤه ما يستحقه فضله لا ما هو ادون منه والاضافة عليه لو حصلت من الله فهى تفضل محض ، ويجوز فى قوله فأن تولوا ان يكون اصله فأن تتولوا بتأئين حذف احداهما تخفيفا ويجوز ان يكون بصيغة الماضى وعلى هذا الاحتمال يكون قوله فأنى اخاف عليكم من باب الألتفات من الغيبة الى الخطاب، الى الله مرجعكم كلمة جىء بها للتهديد بمعنى انه لا مرجع لكم الا الى الله فخافوه اشدد

الخوف ومنتهاه خصوصا وهو قادر على كل شىء فأقصى ما يتصور من الأمانة متيسر له سهل عليه بسيط لديه وهكذا اعلا ما يمكن من الأمانة من بعض مقدراته .

واخيرا احكام الشىء اعطاؤه القوة وقوته تكون باعمال الفـنـ الصحيح والمادة الطبيعية الخالصة وبذل التوجه التام والنصح الصادق فى العمل فمتى تحقق فى الشىء هذا الأحكام يثبت ولا يعود ينخدل امام جبهة مناوئة وماشى العقول والأجيال كلها فمثلا القوانين التى تلوح لنا على صفحات القرآن نجدها بعد ان ننظر اليها بعين البصيرة والدقة والتأنى من احسن ما يمكن تطبيق حياة البشر عليه والتعبير بالأحسن يعدّ من ضيق البيان اذ ما سواه لاحسن فيه اصلا مثلا من قوانين القرآن قوله احلّ الله البيع وحرم الربا ومعنى البيع هو بذل النشاطات الجسمية والفكرية لأجل ادارة المعيشة العامّة وتحسين المعيشة الخاصة وبعبارة اخرى يرى القرآن ان الانسان لا بدّ ان يُحدّد بجنبتيّن احدهما انه كعضو من المجتمع وثانيهما انه موضوع بنفسه وانه لا بدّ من خلط الجنبتيّن فى المسير الحيوى مثلا بـد ن الإنسان ينظر اليه باعتباره وجودا واحدا يراد تحصيله بمجموعه بحيث يحسّ الإنسان من نفسه انه مُرتاح فى كافة اعضاءه وينظر الى قـرـادى اعضاءه باعتبار انها عين بما هى باصرة وانف بما هو شام ولسان بما هو ذائق وجهاز جنسى بما هو جهاز له خصوصياته ولا يعيش الانسان مرتاحا الا اذا راعى مجموعته وجوده لاشتات اعضاءه يعنى انه لا يستطيع ان يستعمل الا ما يلبس جميع اعضاءه لاما يلبس بعضها دون بعض فلو كان العطر يـمـريح شامته لكن يؤذى بصره لما جاز له استعماله وهكذا جنسياته تريح جهازه ولكنها تؤذى قلبه لما جاز له اعمالها الا بقدر دفع

الضرورة وهكذا اكله وشربه يروقان لذائفته لكنهما يؤذيان معدته لما
جاز له استعمال ما فيه اذاء وعلى هذا المنوال متى اراد راحة نفسه
والأبقاء على حياته أما اذا راعى امتاع العضو بما هو عضو فانه يجمع
لنفسه عاقبتين سيئتين (الأولى) عدم الأرتياح بعد الاستعمال فأنه
اذا ارضى ذائفته فى دقائق فانه يغضب بدنه ليالى واياما وبالآخرة
يقوده ذلك الى فناءه وهكذا عضوية الفرد للمجتمع ولنفسه فأنه اذا اراد
نفسه فقط دون مجتمعه تفوته هى ومجتمعه كلاهما وهذا المعنى نراه جليا
فى المجامع الخائنة لنظام الحق والقرآن حتى فى البيع والشراء مثلا
القصاب المجحف يلد له ان يبيع متاعه بأضعاف قيمته متخيلا ان غيره
لا يفعل ذلك لكنه بطبيعة الحال أما لداعى التشفى او لداعى الموازنة
بين هذه الحاجيات يرى غيره من الباعة مجحفا مثله فـ اذا اراد ان
يشترى سمكا واجه اعتاتا فى القيمة وعلى هذا المقياس اذا فالشذوذ
عن خطط الحق نتائجه الأنهيـار وعليه فالبيع الذى احلّه الله هو
العمل الذى يثمر للمجتمع الراحة مع حفظ الأمانة بلاغش ولا تدليس
ولا غبن ويثمر لشخص البائع المعيشة بمقدار ما يستحقه الكد، وأما جهة
تحريم الربا وهو اخذ الفضل من الطرف بلا سعى فان المال لا يجوز
اخذه من دون عمل يقابله ولا ينقض علينا بالمضاربة فان مال المضاربة
وان كان صاحبه لا يعمل الاّ انه كما تحتمل فيه الزيادة تحتمل فيه
النقيصة بالخسران فى التجارة بخلاف مال الربا فانه فضلا عن حفظ
رأس المال فيه محفوظ فيه النفع ومحفوظ فيه نفع على النفع اذا لم يؤد
النفع فى وقته وتلف اصل مال القراض لا بتفريط او تعدى غير مستلزم
للضمان أما تلف اصل مال الربا ومنافعه فأنه فى عرف اهله لا ينقصه اقل
شئ فهذه حقيقة واحدة من حقائق القرآن .

* (الا أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا
حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما
يعلمون انه عليهم بذات الصدور) *

ضمير منه يجوز ارجاعه للنبي المنزل عليه الكتاب وثني الصدر طيه
والاستخفاء التستر واستغشاء الثياب التغطى بها والأسرار مقابل
العلانية ، تشرح الآية موقف المنافق من القرآن الكريم حيث لا تلتئم مع
ارواحهم مضامينه فان المنافق دجال والقرآن فضاخ للدجالين ومعنى
ثنى صدورهم طيها على بغضه والتنديد به حين يتسع المجال وان
كانوا يتظاهرون بالتسليم له احرازاً لظاهرهم فأنبهم الله على ذلك
بأنهم حتى لوتناجوا فيما بينهم تحت اغطيبتهم كان ذلك مكشوفاً لله
سبحانه لأحاطة علمه بكل شئ وذات الصدور قرارها ومكنها وكمينها
وكل ما يكون فيها ويقتنص من الآية عنوان الصراحة والتدليس والصراحة
معناها ابانة مافي الضمير وتطبيق الظاهر على الباطن ومن هنا يقال
صرح اللبن عن الزبد بمعنى ان جميع ما كان منتشراً في ذرات اللبن
واجزائه من دهن و دسم عند ما قلب اعطاه اللبن من نفسه فعلم كمية
ما فيه من دهن والتدليس مأخوذ من الدلس وهو الظلمة ومعنى ذلك
ان الإنسان يخفي الواقع الذي يتبطنه بجر غطاء عليه يستره فلا يرى
الناس ما تحت غطاءه وموقف الحياة الجماعية والفردية من الصراحة
والتدليس موقف حياة واقعية وتشعشع وعدالة وحياة مرهقة ضائعة
مبتلاة بالوان العذاب - ذلك - لان الحياة الواقعية لا تقوم بالقشور
اذا لم يكن تحتها لب مثلاً قد يغتر الإنسان بالمرءة المطللة المزركشة
في اصابعها وملابسها ويبذل لها كل مافي وسعه ولكن اذا كشف

عنها و وجد عيوبها المغطاة بغطاء الطلاوة والتزركش لا يعود يقر له قرار ويأخذ فى الوصول الى التشفى بكل ماوتى من حول وطول وتدبير وطبعا ذلك مايجعل الطرفين فى بؤس وشقاء ولا يستطيع ان يقول قائل ان التدليس لا ينكشف فان الواقع ملازم للإنسان فى نومه ويقظته والفعل المدلس به لا ملازمة له الا بمقدار التوجه للنفس والتوجه للنفس فيه تعب مضافا الى انه خلاف مقصود المدلس فان هدف المدلس الاستفادة من تدليسها والا كانت مواظبته على ما هو مخالف لسليقته تسخيرا له وامر السخرة واضح مكشوف فى انها مبعوضة للنفس .

والقرآن ندد بالنفاق والمنافقين تنديدا ماله نظير ليستتقذ الحياة الجاهلة من اهم ورطاتها واهم ورطاتها كان هو التلون بغية استحصال الهدف المنظور فأبان القرآن ان الهدف المنظور لا يتأمن بالتدليس والخديعة فان المخادعة اذا انتشرت فيما بين الناس تعلمها كل احد و وقع الجميع فى أسرها ولذلك ابطل الاسلام كل عمل ريائى ولم يرتب عليه اثرا لافى الدنيا ولا فى الآخرة بل جعله هـو الشرك الخفى وامر باستئصاله واستئصال اهله وايدت الاجيال المفكرة ان الحق ما عليه دعاة السماء من صراحة واتقان عمل فأخذ مفكروا كل امة لا يألون وسعا فى تثبيت الحقيقة فيما بين قادتها وعلمائها واهل صنعتها ووجدوا ان فى ذلك ثروة هائلة من القوة بسبب استعمال الصراحة واعمال الحقيقة وثروة هائلة من المادة بأتقان الصنائع التى ينشرونها فى الأسواق فتتهافت الناس عليها ونظرة واحدة الى ما عليه الدول العظيمة اليوم من قوة ومنعة وثروة يكفى للتدليل على ماتعطيها الحقيقة المأخوذة فيما بينهم من آثار عظيمة ودرس هؤلاء بالضبط ان

الاخلاص فى حفته رجال عزّل قادهم انسان صريح كيف ولّد دويّاً فى العالم له اثره وخطره وما ذلك الاّ لاستعمال الحقيقة نفسها كما درسوا ان هذه الكثرات الهائلة فى الشرق على قدمها فى التاريخ واستعداد ارضها وناسها للترقىّ انما بقيت فاشلة متعثرة فى الحياة نتيجة للنفاق السائد بين افرادها سواء كانوا فى زمرة الحاكمين ام فى زمرة المرشدين والهادين ام فى الباعة والشراة فلما شخصت امراضهم هذه اغرتهم بأمراضهم فيما بينهم حتى يرتاحوا من تفلّتهم عليهم وحتى يكونوا لهم حميرا منقادين هكذا فهم هؤلاء الحياة فعملوا على ما فهموا على انهم لا يدينون بصلاة ولا بصوم ولا نصب مآتم ولا حضور مساجد امّا اهل المساجد والمآتم لما كان عملهم قشرياً لم تؤثر مساجدهم فيهم عزّة لأنّهم لم يفهموا الحياة بالصراحة ولو انهم فهموها لم يعملوا بها ويرون ان ذلك فيهم منتهى اللباقة اذ يعيشون على التختل ولكنهم خسروا كل شىء بالعيان الجاهر .

* (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها
 ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين :
 وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة
 ايام وكان عرشه على الماء لِيَبْلُوكُمْ ايكم احسن
 عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت
 ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين :
 ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة
 ليقولن ما يحبسها الا يوم ياتيهم ليس مصروفا
 عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤن) *

الدابة هى الموجود الذى يطوى المسافة بالذبيب على وجه
 الأرض فيشمل ذلك كافة انواع الحيوانات والرزق هو الفائدة الحاصلة
 لمن هو فى حاجة الى القوت وتوابعه والمستقر هو محلّ القرار والمراد
 به ما قبل الموت والمستودع محلّ الوديعة والمراد به ما بعد الموت وهو
 المكان الذى تودع فيه الجثة وتلحد وتقبر وكلمة الأيداع اشعار بالبعث
 من بعد الموت حتى كأن الانسان وديعة فى قبره وليس هو قراره
 الأبدى وما نافية ومن حرف جرّ زائد لأفادة التعميم بمفاد انه لا توجد
 دابة تستطيع ان تحفظ كيائها بنفسها بل كيائها وبقاؤها منسوط
 بخالقها فهو الذى يرزقها ويهيأ العوائد والفوائد لها كما يعلم
 مجالها ومكانها وفى اى ارض مثآلها كل ذلك ثابت فى علم الله وعلمه
 هو الكتاب الذى لا ابهام فيه ولا ايهام ، والمراد بالسموات والأرض هى
 الموجودات التى تسبح فى الفضاء والستة الأيام كناية عن الزمن والآ
 فالיום انما يتكوّن من مواجهة جهة من الأرض للشمس باعتبار آفاقها

وتنورها بنور الشمس فبياض النهار يوم والأرض والشمس من جملة كائنات الوجود والمنظور بعرش اللّه هو الكون كلّه والمنظور بالماء هو المادة السائلة يعنى ان الكون أول ما بسطه اللّه بسطه من مادة ذائبة ثم جمّد منه ما اراد تجميده وابقى منه ما اراد بقاءه ذائبا وانما خلق السموات والأرض وكافة ما فى الكون من طبائع وغرائز تدعو الى الشهوة او الغضب او اى خلق آخر لتكون هذه الخلقة بما فيها عالم اختبار واعتبار ايكم احسن عملا بحيث لا تغريه المغريات ولا تستغويه الضلالات، ولئن قلت يا نبى الأ سلام لهؤلاء الطغمة الذين لا يعرفون لأنفسهم من كيان سوى ما تتقاضاه شهواتهم وانهم على اثر الحوادث يصيرون هباء يتصرف به الهواء فلا يبقى منه عين ولا اثر انكم تعودون احياء كما كنتم فى الدنيا لتحاسبوا على ما عملتم ان خيرا فخير وان شرا فشر ليقولن الذين كفروا ما هذا الذى يقوله هذا الأنسان الا سحراى شىء لا حقيقة له كما لا حقيقة للسحر، وكان هناك سؤالا تحريره ان الأعمال السيئة والحسنة اذا كان عليها ولها جزاء عند اللّه فلم لانرى من ذلك اثرا فكم احسن محسن وفات عليه عمله واساء مسىء فلم يلق ما يسوءه وجوابه اننا ان اخّرنا عنهم العذاب الى امد محدود فى علمنا او بعد مجىء ام الى هذا الوجود و ذهابها عنه الى غيره وقيام الجميع لله تعالى فى يوم يجتمعون فيه فلمصلحة الاختبار ومتى جاء ذلك اليوم لم يكن العذاب مصروفا عنهم وحق بهم ما كانوا يستهزؤن ويرونه سحرا واضحا من شدة استغرابهم له .

هذا والآية الأولى فيها جنبتان جنبية تعبدية شرعية وجنبية طبيعية وضعية والآية الثانية فيها جنبية عقائدية متركزة على العقل واخرى سمعية، اما الجنبية التعبدية فى الآية الأولى ففادها ان كل

ذى روح يدب على الأرض سواء كان من العاقلين ام من غيرهم فقد اوتى من الرشد والقدرة ما يستطيع معها ان يحفظ وجوده من ناحية المؤمن لوجوده فالرشد بمنزلة القانون له والقدرة بمنزلة اجراء القانون ولا شك ان الهدى والقوة الموجودين فى كل ذى روح كلاً بحسب ما فيه من رشد سعة وضيقا وما فيه من قدرة سعة وضيقا من الأدلة المهمة القاطعة على ان هناك عاملا فعل هذا الفعل فهذا الأجمال فى العقيدة ضرورى فى كل عامل فرزق الله لها معناه ما سلفناه وهو ان ذا الروح يملك هدى فى التعرف على ما يحرزه ويملك قوة بها يستطيع التوصل الى ذلك الذى يحرز الحياة له واما علم هذا العامل الصانع المعطى للهدى والقوة بمقرضى الروح وهو محل قراره اى دار معيشته وهكذا علمه بالمستودع وهو المكان الذى يؤل اليه من ارض تكفنه او حيوان يتبطنه فذلك امر تعبدى محض يدرك الشعور منه شيئاً ضعيفا ولولا طرق التعبد الموحية بذلك لما ادرك العقل تفاصيله والكتاب المبين هو علم هذا العامل الصانع المفروض .

واما الجنبه الوضعية الطبيعية فيها فان كلمة الله معناها القدس والطهارة وجميع صفات الخير وتعليق الرزق والقرار فى الحياة على هذا الرمز (الله) كتعليق الحكم على الوصف فى الموضوع نظير السخى يكرم واللئيم يذم مما يعطى دوران الحياة الصحيحة مدار الحق فتوجد ومدار الباطل فتنهار ونظرة واحدة الى حياة المقلين فى الممدن البعيدة عن ضوضاء البوادي وطقوسها وعاداتها والأثرياء فى الريف والبدو كافية للتدليل على مجارى الحياة الصحيحة والفاصلة مثلا هذا المقل الذى منتوجه اليومى مثلا درهم واحد من شغله باعتبار بعده عن المخاصمات والمنازعات يوزعه توزيعا فنياً على بياض يومه وسواد

ليلته ويتخذ لنفسه من ذلك عادة يطمئن اليها فلا يرى على نفسه عوزاً ولا فى روحه اضطراباً أما القروى البدوى فباعتبار شيوع الانحرافات فيه من تلصص وتعدي لا ترى ميزانا لحياته فقد يعطى ثروته ليوم واحد يغار عليه فيه او يقتل شخصاً او يغير على شخص فيقتل فى غاراته فتشت أمواله وتذهب عليه سدى وسرّ قرار الأول بنيان حياته على نظام صحيح وسرّ انهيار الثانى تبليل اوضاعه وعدم جريها على قانون عادل وهذا المعيار الصغير به تقاس الدول والممالك فى قيامها وانهيارها فاذا مشت على النظام الصحيح عاشت واذا جارت وظلمت انهارت .

واما الآية الثانية فالجنية العقائدية المتركزة على العقل فيها هى ان هذا العالم المشهود فضلاً عما لم يشهد منه فيه اوضاع محيرة للعقول واقل ما فيها انها اجرام عظيمة جداً فيها من الوزن مالا يحدّ بحدّ ومع ذلك فهى حافظة لوجودها ولوضعها فى الفضاء على احسن طرز ممكن فأننا بالشهود المحسوس نرى ان الوسائل الفنية على طول الاستعمال لها قد تتعثر فى سيرها وتقلق محاورها وتعطى اتزانها من يدها فى حال انها صنعة عالم محنك فكيف بتلك الاجرام المهمة العظيمة الشأن واما حديث الستة الأيام فهو كناية عن الفواصل الزمنية فى الخلقة اشعاراً بأن نظام العالم قائم على التسبب والتسبب ليعلم البشر ان الحياة لا تكون بدون نظام وترتب معلول على علّة واثراً على مؤثر واما الأيام بمعناها المتداول بيننا فلا موضوعية لها قبل خلقه الأرض والشمس ودوران الأرض حولها وعرش الله هو الكون كله والماء كناية عن الذرّ (الأمّ) بمعنى ان العالم كله كان ذرّات منتشرة ثمّ سوّيت بعد ذلك كما عليه العلم الحديث وغاية الخلقة فى اهمّ مواليدها اختبار البشرية فى مجاريها الحيوية وفى السمعيات آثار عديدة تؤيد

هذا المطلب ولا تأباه .

* (ولئن اذقنا الأنسان مآ رحمة ثم نزعناها منه
انه ليؤس : كفور ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء
مستة ليقولنّ ذهب السيئات عمنى انه لفرح
فخور : الا الذين صبروا وعملوا الصالحات
اولئك لهم مغفرة واجر كبير) *

الأذاقة معناها ايصال طعم الشيء الى ذائقة الطرف سواء كان ذلك محبوبا للأنسان ام مبغوضا له والرحمة هي الترفيه والنزع هو الخلع واليؤس مبالغة فى اليأس والكفور مبالغة فى ستر النعمة وجدها والنعماء والضراء متقابلان كتقابل التضييق والترفيه والفرح هو المأنوس المسرور والفخور هو الذى يباهى غيره بما اوتى من مال ومنال واولاد ومتاع وجاه والعمل الصالح هو العمل النزيه السالم من الرموز يريد سبحانه ان يبين فى هذه الآيات هوية الأنسان وانه مع ما اوتيه من عقل وتفكير يسحق عقله وتفكيره وينساق مع اوهامه وخيالاته فالأنسان فى نوعه كما عبر عنه سبحانه اذا سلبته الحوادث ماله ايسر وقنط واخذ يلعن الفلك والملك وان شبع واثرى تخيل ان شبعه وثرائه لا يتصرف ولا يزول فهو يضحك هازئا بالحوادث مفتخرا على غيره بأنه شبعان فلا يجوع ومعنى ذلك ان طرفه الجائع جائع الى الأبد لا يشبع نعم اولئك الذين لا يبارحون عقولهم ولا يفارقون تفكيراتهم لا تخضعهم القلة ولا تخرج بهم الكثرة الى حدّ البطر ومثل هؤلاء حتى لو بدرت منهم بوادرت تقع مغفورة كما انّ لهم عند الله اجرا وذكرنا .

* (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به
 صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز او جاء
 معه ملك انما انت نذير والله على كل شىء
 وكيل : ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور
 مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون
 الله ان كنتم صادقين : فأن لم يستجيبوا لكم
 فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو
 فهل انتم مسلمون) *

فى بعض استعمالات لعلّ انها تأتى للأشفاق فيقال فى مقام
 الخوف والأضطراب لعلّه هرب او مرض او مات وضيق الصدر كناية عن
 الجزع وقلّة الحوصلة والكنز هو المال الغزير المدفون تحسّت الأرض
 والأفتراء تعمّد الكذب ، كثير اولئك الذين لا يهتزعوا طفهم سوى المال
 والجاه من اى طريق حصلا وتراهم لا يعيرون العلم ولا العمل ولا
 الفضيلة اقلّ طرف سواء فى ذلك دور الحجر او القرون الوسطى
 او العصور الذهبية كما يقال ، نعم يوجد للفضيلة لفظ وللمثالية اسم
 وللعلم سمة الا ان كل ذلك فارغ من التطبيق وهذا ما ووجه به محمد
 من وجهاء قومه حيث قالوا له وما فائدة الفلك والملك والصلاة والصيام
 والوعد والوعيد فى الآخرة وطبعا لا يؤثر ذلك فى محمد تأثير روح وانما
 يؤثر فيه تأثير عاطفة وتوجّع على مثل هذا البشر المنحط وليس تخوّف
 الله من ذلك مثل تخوفنا بعضا من بعض لأنّ الله ونبيّه ليسا من هذه
 الأسناخ ولكنهما ربّما نزلاّ انفسهما هذه المنزلة حتى يثيرا وعي الناس
 لأنّ الناس انما يعقلون ما يجدونه فى انفسهم وفى بعضهم البعض ،

فلعلك تارك اى انا اخاف عليك ان تجرّ يدك من مواصلة تلاوة القرآن على الناس والتذكير بآياته القائمة على الخلق الفاضل والمثالية الراقية وضائق به صدرك كراهية ان تسمعهم يقولون هلاً انزل عليه كنز بدل ما ينزل عليه من آيات متواترات او تجيء معه ملائكة تؤيده وتشدّ ازره وتكون له جندا يخاف من سطواته وجيشا جريئاً يخشى من هجماته فقل لهم يا نبيّ الإسلام انا لست من رجال المادّة ولست من دعائها فأنّ المادة لا تحتاج الى داعية لأنها ملاءم الأفواه والأسماع والنفوس وأنّما انا رجل مثالية وقدس وفضيلة هذه العناوين التي تفقد الأنصار وتهنّ عندها ارادة الرجال أنّما انا منذر للبشرية من تطويح الانحرافات بها واللّه هو الموكّل عن عباده فى مراحل التكوين يفعل معهم ما هو الأصلح بهم والأحسن فى عواقبهم ، ام فى قوله ام يقولون افتتراه لأنقطاع والأضراب فهى بمعنى بل يعنى ان هؤلاء الاقوام مادّيون لا يعرفون لما وراء الطبيعة كيانا واذا كانوا بهذه المثابة انكروا اللّه ومع انكارهم له يسقط القرآن وغيره عن درجة الاعتبار فيرون ماتسردّه عليهم من آيات من خلقة لسانك لكنك استدلّ عليهم بأننى بشر مثلكم ولا ازيد ان اكون الاّ من كملكم وما اكثر الكمل فيكم فأتوا بعشر سور مثله مفتريات يعنى حتى لو نسبتموها الى السماء قبلتها منكم ويكون ذلك منكم تكذيبا لمزاعمى وراحة لأنفسكم وتقاضوا من الناس مساعدتكم فى ذلك ان كنتم صادقين فيما تدعونه بالنسبة الى القرآن وانه من صنعى لا من صنع اللّه فأن لم يستجيبوا لكم يا محمّد ويا اصحاب محمّد ولم يقدوا على انجاز طلبتكم فاعلموا جميعا انما انزل القرآن بعلم اللّه اى ان معلومه هو علم اللّه كما يجب ان تعلموا وراء علمكم بوجود اللّه أنّه لا اله فى الوجود الاّ هو فهل انتم بعد هذه التحديات واقامة

وتشعر الآية بعنوان مطوى - ماهى الحياة - ونقول لا يرى
الكثيرون سوقة كانوا ام ملوكا للحياة مفهوما سوى نعاشر البنية البدنية
بجميع ما تصبو اليه الرغبات النفسية فمن القديم نرى الناس يعتركون
على الفرس الفاره والدار الواسعة والملابس الأخاذة والنساء الجميلة
والمأكل النفيسه والأشربة اللذيذة والفراش الوثير والجاه الذى
يخولهم التعدى على الاغيار واخافة الحيوان والأنسان ولا شك ان
الارواح التى تثور بهذه الرغبات ارواح وحشية منحطة ومهما تعالت فى
ازيائها واشيائها ومقاماتها لأن هذه الرغبات تبتز جميع ما فى ضمير
الانسان من مشاعر عقلانية واحساسات انسانية وتكثر من نزاع البشرية
والأطاحة بجميع ما تصبو اليه وعن هذه الارواح مشى فى الناس اغارة
الاموال وتهديم البلدان وتحطيم القائم وامانة العامر وتخريب المشيد
وسبى النساء والذرارى والتطويح بالمجتمعات وابادة المخلوقات ومن
هنا ترى البشرية مثقلة الكاهل باعباء الحياة يحسبها الحساس وغيره
نقمة وليست بنعمة كلها الم وملاها سأم وعلى طولها وعرضها حرارة
وكدورة ووحشة ولوان الانسان قرأ تاريخ الأمم الماضية دورا بعد دور
لرأى من اتعس الوان الحياة ما يشمئز له خياله فضلا عن سمعه وبصره
وجملة حواسه ومن هنا نرى بشرية العصور الحديثة تسب تلك
الوحشيات وتراها نتيجة لجهل عارم بل لحيونة محضة ليس للإنسانية
عليها مسحة وترى نفسها مسؤلة عن تعديل تلك الخطى وقلب تلك
الحياة رأسا على عقب لتعيش كأنسان يعيش لا كحيوان ضارى يغير من
جانب الى جانب حتى يصيبه كلب من كثير ما يعتاد عليه من الأيذاء
والتخريب فلنر ماذا جاءت به عندما نهضت لتقلب تلك الحياة وتبدل
تلك الأدوار نعم جاءت فكّدت عقولها وبذلت جميع قواها فأبدلت العصا
بالصاروخ والخيول بظائرات الميك والفانتوم والسيوف بالقنابل الذرية

فاذا كان بطاقة السيف ان يجرد عَشْرَ رقاب فى طول اليوم والليلىة
فقد جاءت القنبلة الذرية تتحدّى القارات بأسرها واذا كان الأسر
والسبى فى الفترات يهتك حجاب عشر او عشرين او مائة امرأة فتستباح
سفاحا فقد جاءت الثقافة فيما يدعون فسبت بأصرارها على مساواة
المرءة للرجل من ناحية وانها تسير معه كتفا الى كتف لتخدم المجتمع
بمعارفها وبما هيأت لها من كماليات ودعت الى تجرد وتعزى وابرزت
المرءة كالبلورة الشفافة وشوقتها الى جميع ما تصبو اليه بتعام النـزق
والأندفاع لاشكّ انها سبت بذلك كل امرأة واغرت بها كل ذكر وحملت
الناس جميعا بما وفّرت لهم من سلع واجهزة على انواع التلصص لدرك
كل احد ما يدركه المقتدرون فان كانت قدرته محدودة بطبيعتها وجد
من اللازم نهضته للسلب بشتى الوانه فأذا بهذا الجديد الذى جاء
يتحرّق من القديم اصبح من اعظم البلاء واشدّ مواقع الشقاء على
البشرية كلّها هذا ماتراه العيون من وجهة بشرية ظاهرة قد يمسأ
وحدثا وعلى هذا الأثر يسأل فيقال انتم يادعاة الروح والقائلون بما
وراء الطبيعة وان هناك خالقا حكيمًا رؤفا بعباده ما هو موقفكم تجاه
هذا الشقاء فى قديم البشرية وحدثها فهل انتم متفرجون فقط ام لكم
سطوة واثر فى هذه الميادين فنقول ان من اعظم نعمة الخالق ورأفته
بالخلق انه شفع كل مخلوق منذ خلق الخلق بمعلمين عظيمين ورسولين
امينين من ظاهره وباطنه فقد عجن فى طين خلقته عقله وضميره وكَيْفَ
من ظاهره بأنبياء على طول الخطّ يؤيدون ابحاث عقله ويشرحون له
صوره ويفصلون ما اجمل فى خزانة ذهنه وقد تكفل القرآن صورا عديدة
عن منطلق الانبياء مع اممهم وكان عصارة ما فيها — بعد الدعوة الى
المبدأ الاعلا الذى لا يريد منهم شيئا ولا الدعاة يريدون منهم شيئا

سوى الترسيم لخطوات ماجاؤا به ممّا هو ضامن لسعادتهم ان عملوا به—
 ان الانسان لا يجوز له ان يعطى عقله من يده اطاعة لرغباته المتنزّية
 وانما لا يجوز له ذلك لان الرغبات لا تثمر الاّ الأطاحة بالذات كما هو
 مشهود مجرّب فمن اغرق بالأكل والشرب والشهوة الجنسية والسهرات
 المائعة والأشربة الكحولية واعطى نفسه للمهوّ واللعب فنيته بنيته واستنفد
 قواه وهو فى دور الشبيبة هذا اذا تهيأ له ذلك من دون مكافحة
 وما اقله واما اذا كافح من أجله فهو الجانى المحض ومن طريقه حصلت
 وتحصل التنازعات والحروب العالمية والسبى للأطفال والنساء
 والأطاحة بالعامر والتخريب للقائم المثمر ومن ذلك حصل الجور والظلم
 وتبلبل الأوضاع والاستهتار المشهود والتهتك المحسوس .

أمّا اذا اعتدل الانسان وزهد فى الحياة زهدا قائما على عقل
 ومنطق لاعلى جفاف وعدم فهم فاز وسعد بنفسه واسعد غيره بكونه ليس
 طرف نزاع مع احد ونفس النماذج التى ابرزها الخارج من انبياء
 ومثاليين وصلحاء ومعنويين دليل جاهر على ماقلناه واصحنا به واليه
 تنظر الآية المعنونة التى صبر الله بها نبيه على مواصلة الأرشاد
 والتبليغ وان قلّ الأثر وضعف الثمر واصحر فيها ان مقالة الناس لك
 مواجهة او قول بعضهم لبعض ماذا جاء به هذا الانسان أهى اموال
 نتقاسمها حتى تغنينا عن الكدّ فنتبعه عن اخلاص او كفل بالملائكة
 يد رؤن عناّ وعنه مشاقّ الحياة وتعديات المتنزين حتى نستريح من هذه
 الجهة — غلط وباطل .

* (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون : اولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) *

الحياة الدنيا هى الحياة القريبة الفعلية التى هى فى متناول اليد وزينة الحياة هى ما تشتهيهِ النفوس والبخس هو انقاص الحقّ والحبوط هو المحقّ والسقوط، ومفاد الآيتين ان كل من اقتصر بأرادته على هذه المعيشة الحاضرة عازبا بنظره عن الآخرة ولكنه عمل فى هذه الحياة للضمير والوجدان كما يقال فواسى واحسن واعان ضعيفا وردع متهمجا فان عمله لا يذهب عليه ضياعا لانه لا يعتقد بحسب ولا كتاب ولا جزاء بل توفى له اعماله فى نفس هذه الحياة بسعة فى الرزق وطول فى العمر وصرف للمكارة عنه ونظير ذلك وهم فى هذه الحياة لا يبخسون ولا تذهب حقوقهم بلا مجازاة وان كانوا لا يدركونها لانهم لا يعتقدون بمفيضها وانما يقولون نحن نعمل للضمير وما نحصله من مال وجاء ان حصلا فبمحض الصدفة او الجدّ والكّد وهؤلاء ليس لهم فى الآخرة الا النار جزاء على الكفر واما الذى صنعوه فى الدنيا من خير فقد سلف انهم ينالون جزائه منقودا فى نفس الدنيا وليس له فى العاقبة اثر وهذا معنى حبوطه، وباطل ما كانوا يعملون اى لا يثمر لهم ثمرة عند الله فى العقبى لأنهم لم يقصدوا وجه الله به .

وبالمآل فالحياة الدنيا تراد لواحد من داعيين الداعى الأول التلذذ بمادياتها والداعى الثانى اشادة معنوياتها وكلتا الطريقتين محفوفتان بالتعب والثانية خير من الأولى بجميع جهاتها واساس

الحياتين ومحورهما قائم على التوليد والتوالد فبمجرد ان يتوجه
الإنسان الى نفسه من طريق بلوغه ورشده يحاول توليد المنافع لنفسه
بلا ميز للمهتدي على الضالّ غايته ان الأوّل منهما يتحرّى المعيشة
والسمعة من طريق شريف والثانى لا يهّمه الطريق مستقيماً كان ام معوجاً
فكلا الطرفين يكدحان ولا يهوى الخمول من جميع جهاته الاّ الناكِر
لنفسه تماماً وما اقلّه فى افراد البشرية وكلّ الناس الاّ من لا شعور عنده
تراه فى باكورة عمره وشبابه يعطى كلّ قواه لتوليد زحماته حتى يهيأ
لنفسه داراً وقراراً ورأس مال معيشة لصنعة او غيرها حتى يقترن فيكون
قد آمن شهوته من ناحية واستعدّ لمستقبل ما يكون منه من ذرية من
ناحية ثانية ونرى ان الوليد اذا جاء حتى الحيوانات العجم تبدي
جميع عواطفها له وتفصح معه المجال فى ارضاعه واكثانه وحراسته وبما
اننا نحن البشر لاندرك ما فى ضمير الحيوانات لانستطيع ان نتكلم عمّا
نحسّه من انفسنا فأنا نجد حتىّ الحمالين المجهدين فى الحياة اذا
استقبلوا اطفالهم فى الميلاد وبشروا بهم تهللت وجوههم وانشرحت
صدورهم وما ذلك الاّ لحسانهم ان هذا الوليد سيكون لهم عكاز عجز
وشيخوخة وقد يكون ممّن يحظى بحياته فينعشهم بعد حفنة سنين من
بلوغه ورشده واما الأغنياء فيريدون من اولادهم ان يكونوا وارثين
لنتائج زحماتهم والسلطين يريدون ان يكون اولادهم ماديّن لحبل
سيطرتهم قائمين بوظائف تيجان آباءهم متنعمين بنعيمهم واذا كان
هذا طرفاً من القول فى التوالد البشرى فنظيره يقال فى توليد
المنافع فان الذى يعانى احضار الحبّ وحرث الأرض ومعاناة السقى
والسهر على مصلحة الزرع من كلّ آفة انما يبغى بعد مرور ستة اشهر
مثلاً ان يحصد من المنّ الواحد امناً كثيرة يريش بها نفسه ويمون

عياله ويقوم صلب حيوانه وهكذا كل ذى مشغلة بطيئته الأثمار او عاجلة
وينظير من ذلك يقال فى طالب العلم الذى يحاول الوصول الى مقصد
عالى يحاول نيل درجة الاجتهاد او الطبابة العالية او الهندسة
الراقية او نظير ذلك والملاك نفسه يتمشى فى الأنبياء والأوصياء .

مثلا لما اراد الله انقاذ بنى اسرائيل من براثن فرعون ذاك
الطاغية الذى اغدّ فى قتل ذكورهم واستحيا نساءهم اغدّ فى قتل
الذكور حتى لا تأخذه واهمة من قيامهم عليه واستحيا نساءهم
ليستخدمها فى مصالحه ويهينها بالخدمة اللهم تعالى أم موسى ان
تستتر فى حمله وانها اذا وضعت من بطنها وضعت فى صندوق والقتنه
فى النيل وليس عليها ولا على وليدها من شىء فكان ذلك منها
استجابة لأمر الله فمشى به جريان الماء فوقعت عين امرة فرعون عليه
وبما انه لقطه واللقطة هزازة لكل نظر هرّ ذلك من نظر الملكة فأشارت
على زوجها بالتقاطه فالتقطوه فلما وجدوه طفلا تام الخلقه وهو صغير
والصغير له محبوبة فى النفوس اخذوه ليكون لهم قرّة عين فبقى تحت
عنايتهم مخفورا بكلائتهم حتى كبر ومشى لسبيله فكان منه سقى لبنات
شعيب وازدواج بواحدة منهن وحركة بأهله لدا ياره وجاء الطلق امرته
فى الصحراء والمرءة النفساء احوج ما يكون الى النار لتدفئ بها فشهد
فى جانب الطور نارا فسعى اليها ليقتبس منها فنودى بالنبوة ومنها
اخذ يواصل تبليغاته اشواطاً عديدة فى الزمان حتى تمكّن فى نهاية
المطاف ان يهلك جبابرة مصر وفراعنتها ويستنقذ بنى اسرائيل
ويوصلهم الى نصاب حقهم .

وهكذا لما اشتد جهل الجاهلية وزخرت ارضها وسماؤها
بالباطل تعلقت ارادة الله بأخراجها من ظلمة الجهل والكفر والضلال

الى نور المعرفة والأيمان والهداية فألقح بين عبد الله بن عبد
المطلب وآمنة بنت وهب فجاء محمد فمشى فى الحياة عالما بين جهال
ومهتديا بين ضلال ومتوجها بين غافلين واخذ يماطل الزمن عمرا حتى
استطاع فى نهاية المطاف ان يتغلب ايمانه على كفر الناس وهديه على
ضلالهم وسعادته على شقائهم اذاً فزينة الحياة المادية متوفرة لمن
ارادها وزينتها المعنوية كذلك ولا تكاد تخفق مساعى الأنسان نعم
تارة تتيسر مطالبه واخرى تتعسر حسب انقشاع الموانع امامها او وقوعها
فى وجهها ولكن فرق بين الزينتين المادية والمعنوية فان المادية
تفنى والمعنوية تبقى وهذا قليل من كثير ما اراد الله بهذه الآيـة
نعم قد يقال ان الله قادر على تيسير هذه المطالب دفعة واحدة فلم
لم يفعل ذلك قلنا ان الله جعل خلقة العالم على نظام التسبب حتى
تكون المقاصد العالية ذات قيمة وحتى يكون نيل الرغائب بجد واجتهاد
لا بدافع الصدف .

* (افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة اولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يؤمنون : ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين : الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون : اولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من اولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون : اولئك الذين خسروا انفسهم وذلّ عنهم ما كانوا يفترون : لاجرم انهم في الآخرة هم الأخسرون) *

البينة هي الشهادة المقبولة والحجة القاطعة وانما سميت بينة لوضوحها وبيانها والمرية هي الشك لان موردها مما يتماهى فيسه ويتجادل عليه واللعن هو الطرد والأبعاد والتضاعف هو التكرار والضلال هو الضياع ولا جرم بمعنى قطعاً ولا بدّ ، الهمة في قوله افمن لأنكار والأستغراب والمعنى اي مكلف يكون على بينة واطلاع من ربه يعني انه متحقق منه قاطع به ويتلوه ما هو فيه من البينة والأطلاع بعنوانه

مؤيدا ومسّدا شاهد منه اى من الله الذى هو ربّه وقاطع بوجوده والمراد بالشاهد هو القرآن لأنّ مضامينه فى اثبات الصانع متوفّرة وبصيغ عديدة ومن قبل القرآن شاهد عليه تعالى ايضا كتاب موسى اماما لمن يأتّم به ورحمة لمن يستشفّه ويتخذّه ملاك عمل ، وعدل قوله افمن كان على بينة من ربّه — قول — كمن كفر بالله والشواهد القائمة عليه ، اولئك وهم المتحرّون للوقوف على الصانع والأيمان به يؤمنون به فان الأدلّة القاطعة تلجأ الى هذا الأيمان ، ومن يكفر بالله من الأحزاب والطوائف فان ملته مع النار يوم الجزاء فلا تك ايّها المكلف فى شكّ من القرآن انه حقّ ثابت من الله وليس صنع انسان ولكن اكثر الناس مع انتصاب الأدلّة القاطعة لها لا يؤمنون بالحقّ تعنتا وعصبية ، ومن اظلم اى لاحد اظلم من انسان يتعمد الكذب على الله وينسب له ما هو برىء منه ، اولئك المفترّون على الله الكذب يعرضون على ربّهم يوم القيامة ويقول الأشهاد من ملائكة وانبياء واوصياء وعلماء ومؤمنين عرفوا موقف هؤلاء المفترّين من التزوير والكذب والدجل هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم الا لعنة الله على الظالمين لأنفسهم وللحقيقة بتعميتها وللناس باغوائهم الذين يصدّون عن سبيل الله وسبيل الله هو الحقّ وكلّ ما ينشعب منه ويبغون سبيل الله عوجا اى انهم يحرفون الحقيقة بما تعود معه باطلا وضلالا وسبب ظلمهم وصدّهم عن سبيل الله وابتغائهم بها العوج هو كفرهم بالمعاد وربّ المعاد وما يكون فى يوم المعاد فان الاحاد من العوامل المهمة للظلم والفساد ، اولئك الظالمون لم يكونوا مصونين بقواهم من الله ولا معجزين له بل هو اقوى واقدر وانما لم يجازهم فورا وعاجلا لان الدنيا مجال اختبار والآخرة محطة جبراء وليس لهم يوم القيامة اولياء يدافعون وينافحون عنهم .

ويومذاك يضاعف لهم العذاب بمقدار معاصيهم التي ارتكبوها فى الحياة ووظائفهم التي اهلوها ولم يعملوا بها وبمقدار ما كانوا يستطيعون السمع للحق ولد لا تله فيتشردون عنه فيخسرون انفسهم التي هى بضاعة سعادتهم ويضيع عليهم ما كانوا يزورونه لأجل صالحهم ومنافعهم ولا شك انهم فى الآخرة اخس من كل احد يفرض .

والآية افمن كان على بينة من ربه تشير الى عنوان موضوع هو العلم والجهل والعلم هو انكشاف الواقع والجهل انستاره ومعنى انكشاف الواقع ان حجب التزوير والتعمية تنكشف عن الشئ مثلا ظاهر الأنسان اذا كان غارًا بحسبه فقد يكون له واقع وقد لا يكون فبعد التجربة ان طابق باطنه ظاهره واستبان حقيقته كان نافعا واخذ به وان لم يتطابق بأن كان فى باطنه خبيثا وفى ظاهره نظيفا فهو مضرّ تباعد عنه واجتنبه والمجهول تارة يكون فى الطبيعة واخرى يكون فى الشريعة وثالثة فى تطبيق الشريعة على الطبيعة ومعنى ذلك فى الجاهل بهذه المراحل الثلاث انه لا مؤمن عنده لمعيشته وان اتلف عمره بالكّد مثلا كدّ الجاهل بوسيلة انه حمال لعدم معرفته بأكثر من ذلك يتساوى فيه عنده حمله للخمر وحمله للماء والكراء واحد ولجهله لا يفرّق بينهما فى حال ان كدّ الأوّل حرام واعانة على باطل وكدّ الثانى حلال واعانة على مادة حيوية فلو كان عالما بالحكم الشرعى لما حمل الخمر وتوجه الى حمل الماء وهذا معنى انه جاهل بالطبيعة لان زحماته من طريق جهله بالمعارف تذهب عليه سدى اذ لو كان عارفا بالهندسة والطبابة لما تعب بدنه هذا التعب ولا استفاد من طريق تعب وجهل بالشريعة ايضا لانه ارتكب الحرام وجاهل بالتطبيق ثالثا لانه لو كان عالما بالحكم الشرعى لطبّق على زحماته عنوان حمل الماء لا حمل الخمر

ومثال آخر العامّي من كافة جهاته اذا كان مبتلا بمرض السكر مثلاً ويجهل الاغذية المساعدة والمنافية بحكم جهله بالطبيعة وبحكم ذائقته تكون الأغذية المساعدة بعيدة عنها والمنافية كالسكر والحلواء قريبة منها وحتى لو عرف شيئاً عن المساعد والمنافى اذا فقد علمه بالشريعة استسهل ارتكاب المنافى بخلاف ما لو تعبد بها فان التعبد بها مانع يقف امامه وان تراخى في مراعاة عاقبته فهذا العامّي المذكور لجهله بالطبيعة وبالشرعية يتناول المنافى لسيلانه مع ذائقته وحينذاك تضخم علته فيموت اذاً فأقلّ ما في العلم انه حافظ للطبيعة وطارد للأوهام عن الشرعية ومؤاخ بينهما وجامع بين الدنيا وبين الآخرة وعلى هذا الأساس جاء قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون يعنى ان كفتى الميزان لا تتساويان اصلاً بين عالم وجاهل .

ونحن نوازن بين عصرى الجاهلية والأسلام على افلاس الطرفين من العلوم الطبيعية الآ ماقلّ وروده في الدين فترى المسلم المؤمن بعقيدته العامل بها ابعد عن الخطر من الجاهلى المشرك ذلك لأن من قوانين الاسلام حرمة القاء النفس في التهلكة وان الأضرار بالنفس حرام نتيجه في الدنيا الأنهيار وفي الآخرة الخسران فاذا حصل له الظن بالضرر بل الاحتمال فيه امتنع منه احتراماً لعقيدته فسلمت نفسه اما المشرك فحيث لا يؤمن بهذا المبدأ ويجعله بالمرّة فإنه يرتكبه اذ لا وازع له عن الارتكاب فيقع في هوة التضرر اما المسلم فلا يستطيع ان يجهره لأنّ دينه يحتم عليه ذلك مثلاً نرى عوام المتدينين يعالجون صعوبة فهم صور الشك والسهو واحكامهما بما لا يعالجون به الكدّ احياناً خوفاً من المسؤولية في حال ان الفهمه من اللاّ اباليين لا يزاحمون انفسهم طرفه عين ابداً لأنهم لا يتخطرون المسؤولية بذلك .

وأول مرحلة للتعلم هي مرحلة العقيدة بأن يتفهم من طريق الآفاق والأنفس انه ليس بكائن جزاف فكما اذا شاهد ماكنه محكمة الصنع لا يحكم عليها بأنها جزاف كذلك لا يجوز له ان يحكم على نفسه بأن مخلوق جزاف لم يرد به شيء اذ افهو في خلقه قد اريد لأن يسعد نفسه ويسعد به الأغيار ولأن يكون مجتمعا لا ثقا به البقاء والسلامة فان تنازع البقاء لا يليق الا بالحيوانات المهمة فاذا فهم انه اريد للسعادة والأسعاد اخذ يتتبع مظان الحكمة حتى يقوى عقله ويبعد عنه وهمه ومظان الحكمة هم الأنبياء والأوصياء والكتب السماوية الحافظة لنفسها من التلويت كالقرآن الكريم وسلسلة الأنبياء منبسطة على سلاسل البشرية لم يخل جيل واحد منها او من سلاسل نوابها واما حظها من الطبيعة فيجب ان يكون ما به بلغة تقوم بواجب ما عجن فيه من شهوة سواء كانت جنسية ام شهوة بطن ام غير ذلك فان الإفراط في الماديات يوجب التزاحم عليها أولا كما يمتلك الوجود البشرى كله ثانيا واذا كان كذلك خرج الإنسان من رتبة المعرفة ووقع في ورطة المزامنة افمن كان على بينة من ربه اى انطوى على عقل فطرى سالم او دعه الله فيه ويتلوه شاهد منه اى من ربه ايضا وهو النبى وكتابه السماوى ومن قبله كتاب موسى اماما يقتدى به ورحمة يستفاد منها اولئك يؤمنون بالله وبنبيه وكتابه وذكر كتاب موسى للمثال فان سائر كتب السماء نظيرة له .

* (انّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا
الى ربّهم اولئك اصحاب الجنّة هم فيها
خالدون : مثل الفريقين كالأعمى والأصم
والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا
تذكرون) *

الأخبارات هو الخضوع عن طاعة للمولى لاعن امتهان وتقابل الأعمى
والبصير والأصم والسميع تقابل اضرار والمثل هو الكلام المطرد بين
الناس لخصوصية قوية فيه ومفاد الآية انه لا يستوى الظالم الذى يصدّ
عن سبيل الله ويبغيها عوجا والمؤمن العامل للصالحات المخبت الى
ربّه فان الظالم مأواه جهنّم والمخبت الى ربّه من اصحاب الجنّة والظالم
متخبط لا هدى معه ومعطل لمشاعره وحواسه فهو اعمى لا يرى واصمّ
لا يسمع وبفوات هاتين الحاستين تفوت الحياة بأسرها والمخبت الى ربّه
بصير لا يزيغ بصره وسميع لا يتجمّد وعيه فهل يستوى ذاك وهذا قطعاً
لا - واذا كانا لا يستويان فلم لا يتذكر اولوا الألباب .

واصول الأيمان بالشىء معناه رضوخ النفس له واذعانها به عن
تفهّم دقيق قد طردت عنه كافة الشبهات فأصبح محضاً لا يتزلزل او
يتحوّل او تتموج به الشكوك والأوهام نظير ما اندفعت به روح عمّار فى
يوم من ايام صفّين حيث قال والله لو هزمونا الى سعفات هجر لعلمنا
انّا على الحقّ وانهم على الباطل فانه لما درس هوية معاوية وروحيات
دراسة متقنة عن تدبر ودرس عليا عليه السلام دراسة متقنة عن تدبر
تشبعت روحه بلا ان تتقاضى مزيداً بأنّ معاوية حتى لو ساعدته الصدق
بجميع ما فيها من وسع فانصر على الملك والملوك لكان هو معاوية

المشرك الخامل الذكر السىء النية الخبيث الطوية وان عليا حتى لو انكسر انكسارا يبيده ويبيد اتباعه لكان هو عليا اول المؤمنين وقائد الغر المحجلين ونظير ما قاله على عليه السلام بالنسبة الى معرفته بالله لو انكشف لى الغطاء لما ازددت يقينا فان غاية ما يتطلبه الماديون ان يروا الشىء بأعينهم كما يرون مواجهم من انسان وغيره فقال وفرض المحال ليس بمحال لو تجسم لى ربى فرأيت به حدقة عيني كما ارى مواجهمى من الناس لما ازددت يقينا بوجوده يعنى اننى احمل روحا بالنسبة اليه تعالى قد تفهمته تفهما ماورائه غاية ومدى اصلا .

ولاشك ان الايمان بالحقيقة هو الايمان الصادق واما الايمان بالأوهام فهو عبارة اخرى عن الجهل والفارق بينهما هو المقياس العلمى لا ميول النفس ، مثلا عندنا فريقان فى العالم فريق يؤمن بان الصدق حق ولازم ولوقلت منافع الأنسان من طريقه وفريق يؤمن بالمصلحة الشخصية سواء تأتت من الصدق ام الكذب مدعى ان تأمين المصلحة غاية ما يقصده الأنسان فى الحياة فاذا كانت الحياة على هذا المبنى فلا داعى للأنسان ان يلزم محورا واحدا بل يدور حول كل محور يؤمن له مصلحته الحيوية وهذا الكلام بظاهره اخاذ لكنه فى واقعته هدام فان المصلحة الشخصية انما تكون معتبرة اذا لم تدس مصالح الآخرين تحت اقدامها وبعبارة أحق لا تدوس حقوق الآخرين لتجعلها كرسيا لمصالحها الشخصية ولا شك ان الكذب الممقوت ما كان موقعاً للطرف فى الجهل حتى يجعله الكاذب ذريعة الى تمشية مقاصده فيحلف له ان هذا المتاع راق لأعلا ما يتصور حتى يستلب بسببه مالا لا يستحقه متاعه ومن هنا كان الصدق قائما على واقع والكذب

وعليه فقد تميّزنا معنى الأيمان الذى يجدر بالأنسان العاقل ان يعتنقه وهو ما كان معرفة بالحقيقه عن مقياس علمى فاذا عرفنا ذلك عرفنا ان المؤمن لا يعمل غير الصالحات فقله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليس معناه ان المؤمن قد لا يعمل الصالح لان عمل غير الصالح مناف للايمان ومخالف له ولا يستطيع الأنسان ان يحمل روحيّتين متناقضتين لكن قد يحتكّ الانسان بالأيمان ويحبّه ولا يعطى نفسه للتعرف عليه والوقوف بين يديه على وزان قول من قال .

احب الصالحين ولست منهم

ولى قلب يهشّ الى الصّلاح

والخضوع الى الله الذى هو معنى الأخبات من لوازم الأيمان الصحيح ولا شكّ ان الحامل لوصف الأيمان دائما هو فى جنّة من عقائده وان كان معذبّ البدن والجوارح لمطالعتة لما لا يهوى . كما لا شكّ ان مثل المنحرف مثل الأعمى الذى هو لفقد حاسّة البصر لا يأمن الوقوع فى المهاوى ومثل الأصمّ الذى قد يهيج على الطرف لأنه بزعمه يراه سآبا له مهينا آياه ذلك لانه يعيش على الواهمة لاعلى الحسّ كما ان المنحرف يعيش على الواهمة لاعلى العلم والبصير هو العالم والسميع هو العالم كذلك لانهما يمشيان على طريق موصل للحقيقة كما ان المؤمن هو من كان كذلك اى يمشى على طريق متصل بالواقع .

* (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير
 مبين : ان لاتعبدوا الا الله انى اخاف
 عليكم عذاب يوم اليم : فقال الملاء الذين
 كفروا من قومه مانراك الا بشرا مثلنا ومانراك
 اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأى
 ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين :
 قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى
 وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها
 وانتم لها كارهون) *

تفيد هذه الآيات ما يلزم به العقل من لزوم البعثة فان البشر
 ومهما فرض ذكيا فان ذكائه قد يغيب عنه بحجاب الشهوات فيحتاج
 الى مذكر معصوم وذلك هو النبى وفى طليعة الأنبياء نوح فان الله
 ابتعثه الى قومه ليلفت اذهانهم الى ما استقر فيها والنذير هو المخوف
 من سوء العواقب المبين هو الذى لا يداجى ولا يداهن واول ما ذكّر
 به هو الفات نظرهم الى خالقهم ومن مقدراتهم بيده وهو الله وان كل
 ما سواه فناقص عاجز محتاج وتوعدّهم بأن انصرفهم عن الله يورطهم فى
 مهالك دنيوية واخروية وذلك هو العذاب المؤلم للروح الموجه للنفس
 فقال اشراف قومه فى جوابه كيف نطيعك فيما تقول وانت بشر مثلنا فى
 نوع الخلقة والخواص الجنسية والنوعية وكيف نتبعك مضافا الى ذلك
 واتباعك فيما بيننا يفقدون الميزات التى يتمتع بها الخواص من شرف
 ومال وقوة وما نرى لكم مائزا علينا حتى نقدّمكم من اجله بل يتخالجنا
 منكم ريب بأنكم اناس دجالون تريدون ان تعيشوا على اكتافنا من

طريق اذاليلكم فقال يا قوم لا اريد ان اسخركم حتى اتسود عليكم واجبيكم مالكم واستعبد رجالكم حتى تجيبوني بما اجبتم وانما انا معكم على مطالب علمية وفضائل اخلاقية بها تسعدون في الحياة فانا على بينة ودليل من ربي الذي ادعوكم الى عبادته وقد آتاني هذا الرب رحمة النبوة لأفيض من خيراتها عليكم ولكنكم لتسرعكم الى تكذيبي لا تفسحون المجال لحواسكم حتى تتجول فيما اقوله وادعوكم اليه فمن اجل هذا عميت عليكم هاته البينات افيمكنني ان الزمكم العقيدة الصادقة وانتم متجافون عنها فان العقائد لا تكون بالأكراه .

ومن هذه الآيات يستنبط عنوان هو (سر انحطاط الجوامع وما هو الطريق في علاجها) ونقول فيه البشر بحكم الطبيعة والشريعة جهول كما عبر القرآن بذلك حيث قال وكان الإنسان جهولا لانه عندما ينشأ بجموعة استعدادات وصلاحيات تحتاج الى تنمية وليست الصلاحية بنفسها ذات مفعول بالمرّة اذاً فالإنسان البدائي حيوان مهممل يفقد كل شيء فمن هنا لم يهمله الله تعالى اتكالا على صلاحيته ومن هنا قال وما كنا معدّبين حتى نبعث رسولا فقد صرح ان من لم تبلغه الدعوة لا تتنجز عليه التكليف الا بمقدار ما يدركه بالصرحة من عقله ويخالف ما علمه من نفسه فقال بالنسبة الى جيل نوح ولقد ارسلنا نوحا الى قومه وخصوصية الأرسال الى الأقسام يعنى اولى اللحمة والقربانة النسبية قائمة بعدة دواعي .

(١) تقارب الطبائع ولذلك رتب الشارع بالنسبة الى المبتدئة التي يطغو عليها الدم ويتجاوز عشرة ايام انها تأخذ بعبادة نساءها واذا تقاربت الطبائع تقاربت سطوح الفكر واللهاجات وتقاربت العبادات والأخادات .

(٢) عدم احساس الوحشة والغربة بين عالم العشيرة وجاهلها لأنه يحسب ان العواطف الغريزية ومهما بلغ الانشمار بين افرادها لها عرق ينبض بخلاف الأجانب بالمرّة .

(٣) ان دواعى العصبية لها اثر فقد يفتخر الإنسان بابن عنصره ولو كانت بينهما جفوة وتقاطع فيقول فلان منّا اما الأجنبي فهو بعيد عن هذه الخاصة .

ومضافا الى كل ذلك فان نوحاً لم يكن فى امة حاشرة بل فى جماعة محدودة هم قرابته وعشيرته ولذلك ذكره الله بالأرسال الى قومه فقط، وان كان هو من اولى العزم غايته ان العموم فى زمانه لم يزد على مجموعته قومه، فقال لهم انى لكم نذير مبين، وانما لم يقل انى لكم بشير ونذير لان البشارة انما تكون للمؤمن المطيع بأ ن ائعاب طاعته لا تذهب عليه سدى ونذير بمعنى احدركم من فعل السوء لان الفعل السيء عاقبته وخيمة ولم يذكر البشارة لانه لم يجد فيهم خيراً يذكر حتى يبشرهم عليه بل كلما وجد فيهم السوء والانحراف ومبين معناه اننى لاجمل لكم فى البيان بل أبين لكم البيان الشافى لأتمّ الحجة عليكم وفى الطليعة من انذاراته نهيسهم عن عبادة غير الله يعنى الخالق المدبر الذى بيده ازمة كل شىء فان عبادة غير الله خطأ محض وجهل مفتضح .

انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم، فان عبادة غير الحق مدعاة الى الوقوع فى المهاوى والارتطام فى الجهل ونتائج الجهل كلها وخيمة اما عبادة الله فانها نتيجة علم والعلم كل نتائجه ثمرة وبناءه، هكذا كان منطق نوح معهم وليس فيه تعنت بل كل ما فيه رافة وحنان وعظمة وتبيان فماذا ليت شعرى يكون جوابهم وهم قد غطوا عقولهم بسجاف

من جهل سميك من اجله كانوا كفرة بالمبادء الصحيحة مانراك الآ بشرا مثلنا تأكل وتشرب وتنام وتمرض وتعرض لك الحوادث ونحن كذلك فما ميزك علينا حتى تريد ان تأمناً وتكون علماً لنا وهذا أول بواد ر جهلهم فان جوابهم هذا ليس جواباً لكلامه فانه لم يذكر لهم انه موجود غير طبيعي ولا انه خارج عن حدود البشرية مترفع عليها بل كلامه الآنف لو سمعوه من غصن شجرة لكان حجة عليهم فان البرهان له وزنه ومن اى انبوب صدر ولو كانوا عقلاء لأنسوا به اكثر من انسهم بالخارج عن البشرية لانه منهم يدرك حاجاتهم ويدركون منطقهم والجهل الثانى انهم يزنون شخصية الشخص بالشرف الاعتبارى الذى ملاكه القشور ولا يزنونها بالمنطق والساد والجهل الثالث هو وزنهم للفضل بالشكليات الظاهرة من ابدان جسيمة واموال كثيرة ويرون نوحاً واتباعه يفقدون ذلك ومن اجل ذلك اعتبروهم كاذبين فى دعوى العلم والأيمان والنبوة فلما رأى نوح ان جوابهم ساقط من ناحية وان تفنيد اقوالهم يحتاج الى زمن وملاحة من ناحية ثانية عدل بهم الى ما هو اشرف بهم وبه من بيان مطالب قد تكون تنورهم اكثر وتميل بقلوبهم اليه ازيد فقال لهم يا قوم اننى متيقن مما ادعوكم اليه وهو ان هناك خالقاً ومصرفاً لهذا الكون العظيم بدليل ما اراه فى خلقه نفسى وخلقاً انفسكم من هذه الأجهزة القهارة التى كل جهاز منها يكفى للتدليل على عظيم الصنعة مثلاً انظروا الى خزانة الحس المشترك فبعد مرور خمسين او ستين بل مائة سنة من عمر الإنسان ترونها قد احتوت على شريط لا تبلغ تحديده ملايين الأمتار ذلك الشريط الذى ضبط كل ما رآه الإنسان فى دنياه او سمعه او ذاقه او لمسه او شمّه او دار فى خلدّه من مطلب وخزانة الحس المشترك واحد من خزائن متعددة فى رأس الإنسان افترى ان

كل ذلك جزاف لا مصدر له هذا ما لا يعقل تعقله وانا لما تعقلت هذا المطالب
تفتحت جميع منافذ حواسي فعرفت ربي معرفة ما عليها مزيد ومن ذلك كلفت
بتفهمكم وذلك هو ما عناه بقوله وانا انى رحمة من عنده فعميت عليكم لأنكم
لستم فى طريقها واعراض قلب الانسان عن شىء يجعله مظلما متحجرا
لا بصيص فيه لنور المعرفة ومع هذه الحالة غير معقول للأنسان ان
يتقبل ما لا يتعقل انلزمكموها وانتم لها كارهون .

* (ويا قوم لا اسألكم عليه مالا ان اجرى الآلى

اللّه وما انا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا

ربهم ولكنى اراكم قوما تجهلون : ويا قوم من

ينصرنى من اللّه ان طردتهم افلا تذكّرون :

ولا اقول لكم عندى خزائن اللّه ولا اعلم

الغيب ولا اقول انى ملك ولا اقول للذين

تزدرى اعينكم لن يؤتيهم خيرا اللّه اعلم بما

فى انفسهم انى اذا لمن الظالمين) *

وهذا من تنمة جواب نوح لقومه فأنه بعد ان ابان لهم انه انما
يريد منهم خضوعهم للحجة لا له بما هو انسان يسمّى نوحا اتم ذلك
بما يدل على صدقه وهو انه ليس بطالب مال حتى يتهم واما بالنسبة
الى الذين اتبعوه اولئك الذين يرونهم اراد لهم فى بادء الرأى
وباديه فمن المستحيل عليه ابعاده لهم لأنهم اناس اتبعوا المنطق
ومتبع المنطق لا يطرد مضافا الى انهم مربوطون بمبدءهم الخالق لهم
لا به بما هو رئيس وزعيم اذاً فهذه الطلبة منكم تدل على جهلكم لا على
علو مقامكم وشرفكم ثم انشد عريق المعرفة باللّه وبسطواته على المعتدين

فمن ينصرني على الله ان طردت المؤمنين به استجابة لطلب الكافرين
 افلا ترجعون الى ذاكرتكم ، ثم انى رجل علم ومنطق لا رجل ثراء ومال
 ولا عالم غيب حتى امدكم بمالى وبما يجرى عليكم فى مجارى حياتكم
 ولا انى ملك ولست ببشر ولا ازدرى من الناس من تزدرون لقله ماله
 وضعف جاهه انى اذا ادعيت واحدة من تلك الدعاوى كنت من
 الظالمين لأنفسهم بالتزوير عليها .

والآيات المعنونة بها الفصل تشير الى عنوان - النزاهة -
 والمداجاة - فنقول ان كانت الصراحة هى ابداء ما فى تخوم القلب وايا
 كان موافقا لأدب الاخلاق ام مخالفا فان النزاهة اخص منها واشرف
 لما فيها من مراعاة الأدب القائم بمتانة الناطق وشخصيته فان ابداء
 بعض ما فى تخوم القلب وان كان حقيقة الا انه قد يضر اكثر مما ينفع
 فان المتستر بالمعصية لا يجوز اظهار معصيته وان لم يكن فيها تقوّل
 وكذب عليه الا انها توجب الهتك حيث لا يريد صاحبها ان ينهتك ومن
 هنا حرمت غيبة المتسترا ما النزاهة فمعناها مراعاة الواقع بشرف
 والنزاهة فى الدعوة الى الحق يقصد منها هداية الطرف وابعاده عن
 الرذائل بلسان شريف ومن دون طمع اما المداجاة ومعناها القاء
 الستر والظلمة على الرذيلة والأغماض عنها تغليبا لجوانب نفسية على
 جوانب واقعية فهى من اخبث صفات الأنسان لأنه فيها يقدم الباطل
 على الحق وكل من ينتصر للباطل فهو قدر فى نفسه ومضيع للحق فى
 مجتمعه ومن نتائج ذلك فساد المجتمع ومن هنا نرى ان المنشأ فى
 تركيز الباطل دائما وابداء هو اخفاء الحق والأغماض عن الباطل لأجل
 تمشية المصالح الشخصية من توفير مال او تحسن حال او كسب صداقة
 فاسدة وما الى ذلك ولولا هذا المعنى لما استطاع الباطل ان يقاوم

الحقّ هذه المقاومة وان يكسره احيانا كثيرة .

ونوح ونظراؤه من اهل الواقعيات والنزاهات قاموا بدورهم فى انعاش الحق فلم يجاملوا فاسقا مغدّا فى فسقه على فسقه كما جامله الكثيرون ممّن يعيشون على اسم الدين اولئك العاقون لمصـدر معيشتهم ومنبع رزقهم فنوح عليه السلام ابدى مافى ضميره للأقوام الذين يريد جرّهم الى صوب السعادة وتفنيدهم على ارتكاب الشقاوة حيث قال لهم ويا قوم لا اسألکم على التبليغ مالا لان المال اذا كان هو الهدف فى مبارزة تكون بين الحق والباطل فلا شكّ فى انكسار الحق لان مجارى الحق على ميزان والباطل لا ميزان له ان اجرى على اللّٰه فانه مامن كائن الاّ وله منبع رزق ولو كان قليلا فاذا كان حىّ الشعور حرّ الضمير قنع بالسير يتبلغ به والنفس راغبة اذا رغبتّها واذا تردّ الى قليل تقنع ولقد ردّ على قولهم آتفا وما نراك اتبعك الاّ الذين هم ارادنا بادى الرأى بأبلغ ردّ حيث قال وما انا بطارد الذين آمنوا لا لانکم لاترونهم فى آفاق شخصياتکم لنواحي ثلاثة (١) اننى اريد من كل انسان ان يؤمن وهؤلاء قد آمنوا فكيف اطردهم (٢) ان عواقبهم مربوطة بموجود غيرى وهو اللّٰه الذى يجازى على الاحسان احسانا وعلى السيئة سيئة وانا لست من اهل الأثابة كما اننى لست من اهل المعاقبة ولا اراکم بسؤالکم هذا الاّ اناسا تجهلون مواقع الصواب (٣) ثم اننى كيف آمن من اللّٰه ان طردتهم استجابة لكم وتقربا منكم وانا الذى اهدد المنحرفين به واصول بصولته واسطو بسطوته افلا ترجعون الى عقولکم ، واننى لما جئتکم لم اعدکم بمال حتى اكون قد كذبت عليكم ولا ادعيت علم الغيب حتى افيدکم من طريق علم الغيب بما يضرّ وينفع فى مجاريکم الحيوية ولم اقل لكم اننى ملك ولست ببشر فوجدتمونى بشرا

لا ملكا ولا اقول للخاملين الذين تزدريهم اعينكم انهم لا ينالون من الله خيرا لانهم لا قيمة لهم عندكم فلا قيمة لهم عند الله ان ربهم اعلم بما يكونون فهو يعاملهم بما يعلم منهم لا بما تشتهونه انتم انسى اذا ازدريتهم لأجل ان ارضيكم اكون من الظالمين للحق ولنفسى ولهم ولن ارتكب هذه المساوى والردائل ابدا .

* (قالوا يانوح قد جادلنا فأكثرنا جدالنا فأتنا

بما تعدنا ان كنت من الصادقين : قال

انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين :

ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان

كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه

ترجعون : ام يقولون افتراه قل ان افتريته

فعلى اجرامى وانا برىء مما تجرمون) *

الجدال هو الكلام الطويل الفارغ من النتيجة والقوم لما رأوا

انفسهم محكومين لطرفهم فى كل فقرة فقرة تعرّض لها احبوا ان يقطعوا

عليه الكلام بنسبته الى المجادلة والأسفاف وتنجز ما وعدهم به من

العذاب الأليم حاسبين ان ذلك اليوم المؤلم عذابه بيد نوح والى

ارادته فأجابهم بان ذلك ليس اليه وان الذى يأتى به هو الله القادر

على كل شىء وانهم ان اعجزوه هو فانهم ليسوا بمعجزى الله كما ان

نصائحى التى اسوقها اليكم لا تنفعكم مادتم متصاممين عنها جافير

لها واغواء الله لهم انما هو بأعراضه عنهم لانتباذهم عنه ، بل يقول

هؤلاء القوم ان نوحا افترى دعوته وانه ليس رسولا عن احد وانما هو

مدعى رسالة قل ان افتريته فعلى اجرامى وآثامى لا ينوشكم منها شىء

- كما لا ينوشنى من اجرامكم شىء فانه ليس للأنسان الا ما سعى
 * (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من
 قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون : واصنع
 الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين
 ظلموا انهم مغرقون : ويصنع الفلك وكلما مر
 عليه مألأ من قومه سخروا منه قال ان تسخروا
 منّا فأنا نسخر منكم كما تسخرون : فسوف
 تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه
 عذاب مقيم) *

وبعد ما قام نوح بالوظيفة واتم على قومه الحجّة وبقى منتظراً
 لأرادة الله فيهم اوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن
 ولن هنا كما تفيد بلسانها النفي تفيد بسياقها التأييد اى ان قومك
 لا مطمع فيهم اصلا فلا تحزن يا نوح من كلمتى هذه ومن هذه الكلمة
 يستدل على ان نوحا انما حزن للحكم على هذه المجموعة البشرية
 بالشقاء الأبدى وذلك ما يحزّ بعاطفة الأنسان الغيور، وتهياً من الآن
 لصنع سفينة تقلك وتقلّ من معك من المؤمنين وما نأمرك بحمله معك
 والصنع هو اعمال الصنعة والفلك اسم جنس للسفينة يطلق على المفرد
 والجمع، وبما انه تعالى كان يعلم حنو نوح على قومه باعتبار انهم بشر
 لو طواع الداعى لا استفاد من وجوده اتم استفادة اصحر له بأن القوم
 قد ابرم الحكم عليهم بالهلاك فلا تخاطبنى فيهم شافعا بهم انهم
 مغرقون، وانشأ نوح يصنع الفلك واستمر على عمله امثالاً لأمر به وكلما
 مر عليه مألأ من قومه ورأوه يمتهن النجارة وليس بنجار ويصنع سفينة

ولا ماء سخروا منه قال ان تسخروا منّا اليوم فأنا نسخر منكم فى القريب العاجل كما تسخرون و هناك و عندما تتقارب بكم الأمور الى التلّف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يشوّه سمعته بين الناس و يحلّ عليه عذاب مقيم لا يزول منه حتى يببده اباده لا مطمع ورائها .

* * *

والآيات الآنفه يستخلص منها عنوان (الرجاء واليأس) والرجاء معناه الأمل فى الحصول على المقصد من الطرف القابل واما الأمل فى المتعذر فهو امنية مثل تلهف الانسان فى حال شيخوخته ان تعود له شببته وهو من الأغلاط الفاضحة و يوجد بكثرة عند الخرافيين الذين يتشبثون بالأوهام ويقضون حياتهم أبأس ما يكون كأولئك الذين ينيطون آمالهم بالقرابين للنصب وما ينحتونه فى اذنانهم من انسان حىّ او رفات عظام او غير ذلك من هامد و متحرك كما هو مشهود بكثرة فى اعراب البوادي و عوام الحضرة الذين بسببهم كثر اكلة المال بالباطل من المشعوذين نعم التوسل لله بآل الله اولئك الذين برهنت التجارب الحقّة على قربهم من الله واقعا بطهارة ضمائرهم وقيام معتقداتهم على المقاييس الصحيحة و مطابقة اعمالهم لمعتقداتهم حقا و واقعا كالأنبياء والأوصياء والعلماء الربانيين صحيح بشرط ان يكون بنحو معقول لان تناط القضايا كلها بهم ويعزل الله عن سلطانه فى كائناته والأمل فى رجوع الأنسان عن الجهل الى الاعتدال طريقه جسّ نبض باطن الأنسان من حركاته وسكناته فاذا كان ينفعل لسماع الحق ويخضع له اذا صادف مؤمنا حقا و واعظا متعظا وانسانا مخلصا دلّ ذلك على

ان مواصلته بالنصيحة تستثمر منها ثمرات واقعية كأولئك الذين كانوا مشركين فلما وجدوا الداعية الواقعية أصبحوا مسلمين واقعيين، بهم قام الأسلام وانتصر وانخذل الكفر وانكسر واذا كان باطنه مظلما لانه بنى حياته على الأقتناص فى كل اشياءه ومع كل احد دل ذلك على انه لا مطمع فيه لطامع كأغلب مسلمة الفتح الذين اسلموا بعد ان تعالسى قدر الأسلام ولكنهم ترصدوا بالأسلام كل معرة وهم الذين هدموه بعد بنيانه كأبى سفيان ومعاوية وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن الى اولئك .

ونوح عليه السلام ماطل الزمن بحوصلة عظيمة وصبر منقطع النظير واستمر يعارك ضمائر قومه ويقلبها ذات اليمين وذات الشمال حتى ان الله الحليم قطع حلمه عن قومه فأوحى الى نبيه نوح انه لن يؤمن بعد هذا غير من آمن بك على طول هذه الفترة فلا تبتئس ولا تحمل على نفسك البؤسى مما فعل هؤلاء معك بل مما فعل هؤلاء بأنفسهم فأن المكلف المنحرف يسىء الى نفسه لانه يفسد عليه مجتمعه واهله ونفسه ومن الآن تقدم الى صنع سفينة تملك وتقل المؤمنين معك كما تقل ما لا بد منه لهم فى حياتهم القادمة افعل ذلك فان رعايتنا مخيمة عليك ترعاك ولا تهملك او تنسك وكيفية ما تصنع منوط بنظرنا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا، هذا للفظه مشعرة بان لله فيهم وقعا عظيما ونكايه مهمة، فكأن نوحا سأل ربه فقال وماذا يجرى عليهم فقال له انهم مغرقون اى يأخذهم الطوفان ويصنع نوح الفلك على الأرض اليابسة من غير ان يكون على ساحل بحر او نهر وبطبيعة الوضع كلما مر عليه مأل من قومه سخروا منه واتهموه بالتخبيط لان فعله يدل على ذلك لكنهم لم يدروا بما يزوى الزمان لهم من مكائد .

باطنه ان تسخروا منّا اليوم فأنا نسخر منكم غدا فسوف تعلمون من طريق اعينكم من يأتيه عذاب يخزيه ويذلّه ويهينه ويحلّ في داره عذاب غير زائل وهلاك ليس بحائل .

* (حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا حمل فيها من كلّ زوجين اثنين واهلك الآ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الآ قليل : وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها انّ ربّي لغفور رحيم : وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين : قال ساوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الآ من رحم وحوال بينهما الموج فكان من المغرقين) *

مجيء الأمر تنجزه والتنور يستعمل لمحلّ الخبز ولفوهة البركان ولقمة الجبل الفوارة والمجرى محلّ الجريان او زمانه والمرسى مكان الأرساء وهو وقوف السفينة فى اى موضع ارادت ان تقف فيه لأمد وحتّى للغاية يعنى ان غاية صنع السفينة والحكم على القوم الكافرين بالدمار هو تنجز امرنا فى حقهم باغراقهم فأمرنا السماء بالأهطال وينابيع الأرض بالفوران وكنا اسلفنا الى نوح انه متى احمرّ البأس فاحمل فى سفينتك من كل ما حضر لك يك زوجين اثنين انثى وذكر لأجل بقاء التناسل واهلك من جملة الذين تحملهم الآ من سبق عليه القول بالمحكومية مع الكفرة لانه منهم وليس منك وهو زوجته واحد ابناؤه وكذا

احمل فيها من آمن بك ولم يؤمن معه على طول شقة التبليغ الآ نفر قليل وقال نوح لمن اعدّ السفينة لهم اركبوا فيها بسم الله كلمة تقال للتيمن والتبرك مجراها ومرساها اى فى جميع حالاتها من حركة وسكون ان ربى لغفور ذنوب عباده اذا تابوا وانا بوا رحيم بهم عطوف عليهم ، وهى اى السفينة تجرى بركابها فى موج والموج من اهمّ وسائل الرعب والخوف والأطاحة كالجبال حتى كأنّ الموجة عندما تجىء جبل يركض لعظمتها وحينذاك وفى غضون هذا البلاء المخيمّ نادى نوح ابنه وكان فى معزل عن السفينة وعلى قطعة يابسة من الارض فى ذلك الحسين يابنى اركب معنا لتسلم ولا تكن مع الكافرين حتى تغرق فأجابه متبطننا عصبيّه حاسبا ان هناك مواضع للّجوء كثيرة والجبال حواليه منتشرة ساوى الى جبل يعصمنى من الماء فأجابه ابوه بأنّه لا عاصم اليوم لأحد وبعد ما حكم الله على هؤلاء الكفار بالفناء الآ من رحمه الله فأنقذه من البلاء وباعد بينه وبين البأساء وحال بين الأب والأبن الموج فكان من المغرقين .

ويستخلص من الآيات الآنفه ، عنوان النجاة والهلكة ، تقال النجاة لحالة الارخاء بعد اضطمام حلقات البطان والهلكة لحالة الأختناق باضطمام الحلقات ، والنجاة تتصور عقلا فى اشخاص ثلاثة .

- (١) من توجه لنفسه منذ أول ازمته التكليف الى نهاية الحياة .
- (٢) من ارتكب الخطيئة عن جهالة قصورية وتلافى منها ما يمكن تلافيه بعد علمه ممّا هو لازم عليه شرعا كالضمانات للمتلفات او تقصيرية واقلع عنها بتوبة نصوح مع تلافيه ايضا لما هو لازم عليه تلافيه وهذا يفترق عن القاصر فى عدة نواحي منها ان ذاك فى مدة جهله معذور تماما بخلاف المقصر ومنها ان ذاك لا يقضى جملة ما فاتته عن قصور لأن

القصور عذر بخلاف التقصير فإنه ليس بعذر ومنها ان ذاك بحكم
الساقط عنه التكليف بخلاف هذا .

(٣) من ارتكب الخطيئة عالما عامدا ولكنه تراجع وتدارك وغطى
على سيئاته بحسناته - كما ان الهلكة تتصور عقلا ايضا فى اشخاص
ثلاثة - .

(١) من اعرض عن عقله ودينه من اول ازمته تكليفه الى ان وسد
فى ملحودته .

(٢) من تعرض للطاعة رياء وسمعة وتبطن منوياته المادية لبا
وجوهراً وهذا الثانى اسوء حالا من الاول .

(٣) من اطاع اولاً واغذ فى المعصية حتى مات .

وانجاء الله لعبده واهلاكه له قائمان على ركيزتين (الاولى)
هو ايمته واقعا للحق ولكن سلوكه رب الحق عليه عسير ووعر كأصحاب
الكهف مثلا - انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى (الثانية) اعراضه
عن الحق رأسا فضلا عن التعرف على طريقه كالمتعنتين الذين يحسبون
انهم اشرف من الحق حتى يتبعوه وهؤلاء هم المترفون الذين يتخذون
الترف قنطرة للضلالة واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا
فيها فحق عليها العذاب فدمرناها تدميرا .

ثم دائما وابدا للحسنة والسيئة اثر وضعى فضلا عن الاثر
التكليفى فكما ان المحسن فى عالم الشرائع يثاب من ناحية الله تعالى
كذلك اثر احسانه من صدقه ورفقه وورعه واحتياطه ومواساته لمستحق
المواساة يظهر جليا فى المجتمع واذا توفى المجتمع لكثرة المحسنين
فيه ازدادت معاليه وتجسّمت معانيه وعلا قدره وارتفع امره وكذلك
المسئء يجازى على سوءه من ناحية ربه وينحط به مجتمعه دنويا لكونه

كذابا يحب الكذبة ويروجهم غدأراً دنيئاً حقيراً لا طئساً فى صفاته قدراً فى حركاته وسكناته وكلتا هاتين الحالتين متجلتتان فى الجوامع الخيرة كعصر الرسالة والجوامع المرذولة كعصر معاوية ويزيد والحجاج .

هذا واثراً الحسنه والسيئه فى قوم نوح هكذا كان، ان غاية اصرار الكفرة على الكفر والمؤمنين على الأيمان ان يأمر الله السماء بالمطر الغزير ويطلق فوهات العيون بالفوران فيلتقى ذاك بهذا وتأتى السفينه لفائدة خلاص المؤمنين وما يحتاجونه لأدامة الحياة بعد ذلك حتى اذا جاء امرنا اى تحقق وتنجز فأمطرت السماء بالمطر الغزير وفارت عيون الأرض وقم الجبال قلنا لنوح احمل فى سفينتك من كل مما يريد ه البشر لحياته زوجين ليكونا بذرة للتناسل والتكاثر واحمل اهلك ايضا الآ من سبق عليه القول بالأغراق للتمادى فى المعصية وهم زوجتك وابنك كما تحمل المؤمنين بك وما هم فى العدد الآ قليل وقال نوح للمؤمنين اركبوا فى السفينه وتيمنوا بذكر الله على كافة ما يكون لها من حركة وسكون ان ربى لغفور لمن يعصى لَمَأً ويعقبه ندماً رحيم بهم وبالمحسنين ، والسفينه تجرى بالمؤمنين فى موج والموج له اثران ارباب البصر والقلوب واتعاب الاجسام بالعلو والهبوط وبالآخرة الهلاك والموت كل موجة كالجبل فى ضخامتها ونادى بدافع الرأفة نوح ابنه وكان فى معزل عن موقف المؤمنين لانه لَمَأً فارقهم فى روحه صار مجبوراً فى مغارقتهم ببده لانه الروح حاكمة على البدن يا بنى اركب معنا حتى تنجو ولا تكن مع الكافرين حتى تغرق، قال مغرورا بالطبيعة التى اخلد اليها فأفسدته سأوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لاعاصم اليوم من امر الله الآ من رحم واراد له البقاء وحيث لم يكن بين هذا المغرور وبين الله رابطة حال بينهما الموج فكان من المغرقين

• الهالكين

* (وقيل يا ارض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى
 وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على
 الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) *

البلع هو حذر الماء او اللقمة فى البلعوم الى الجوف والأقلاع هو
 السكون يقال اقلع فلان عن العمل اذا اجتذب يده منه والأستواء
 الأعتدال والطمأنينة والجودى جبل بعينه يعنى بعد ان تمّ اهلاك
 الكفرة واكتساحهم من على ظهر الوجود امر الله لأعادة حياة اخرى
 للمحيط الطوفانى قشرة الأرض بأن تبتلع الماء الى جوفها فوراً كما امر
 السماء بالأقلاع عن المطر فمن اقلع السماء وبلع الأرض غيظ الماء وجفّ
 وقضى الله ما اراده بالقوم واستقرت السفينة بعد عومها على جبل
 الجودى واختلف فى محلّه وان اتفق على ان محلّ الطوفان هو العراق
 وما والاها قطعاً وقيل سحقا وبعداً للقوم الظالمين الذين لم يعيروا
 الناصح سمعاً ولا الواعظ وعياً وهذه الآية بصنعتها اللفظية ومقاصدها
 الجوهرية من ابلغ كلام سميع •

وتعطى الآية عنوان — الأصرار والأستمرار والثبات — فنقول ارادة
 كل من يريد الوصول الى مقصد تتصوّر على قسمين ارادة تشريفوارادة
 جدّية اما الأرادة القشرية فهى ليست فى الحقيقة من عالم الأرادة وانما
 هى شهوة تحدث أنا وتخدم فى الفور كالذى يرى جماعة منظمة فى
 صفوفها حسنة الهيئة والمكان فتأخذه نظراته للأصطفاف مع صفوفها
 من غير تمييز لأهدافها ولذلك لا تراه يهتزّ لجماعة قليلة العدد فى
 مكان متواضع فمثل هذا لاقيمة لارادته صلاة الجماعة لانه سرعان
 ما ينقلب الى ضدّها فتراه يهفو الى جلسة غناء وطرب لانه وجدّها

بمظاهر تلك الجماعة في اخاذيَّتها للنظر ومثل هذه الارادات الجوفاء هي المستولية على جماعات البشرية في كل شيء ، واما الأرادة الجدّية فهي القائمة على تبطنّ المطلب ودرّك جوهره فتري الذي فهم معنى الجماعة وانها فيها الفة وصدّاقه وتعارف مع الناس وتشكيل جبهة واحدة للحق امام الباطل وتعظيم شعائر الله يقصد صلاة الجماعة من مكان بعيد ولو الى مكان متواضع بل مختنق كما كان يقصد ذلك المؤمنون برسول الله في مسجده المتواضع .

فالله سبحانه في مثل هذه الآيّة ندب الأنسان الى ان يكون هدفاً في سيره وسلوكه لاعاطفيا حتى يستطيع ان يستثمر حياته بصحة واتزان واره شواهد على ذلك من مخلوقاته مثلا هذه النملة لما تميّزت بدقة انها لاتعيش بدون طعام وانها لا بد لها في حمارّة قيظ او شدة برد من الأنجحار وان هذا الأنجحار لا بد له من قوت مبلّغ وان القوت لا يتيسر الا بتحمل مشقة وثبات تراها اذا سحبت حبة قد توازنها من مكان منخفض الى مقصد مرتفع تبدى من الصبر ما يقيم عجب الأنسان ويقعده فهي تماطل المناسبات والفرص والقوة حتى توصل تلك الحبة الى جحرها وهناك ترى نفسها قد أمّنت مقاصدها فكل انسان اذا لم يكن في سلوكه مثل النملة يستحيل عليه ان يتصل بمقاصده ومهمها تظاهر بأنه هدفي ورجل وبطل فان انهزامة امام المقاصد الواقعية برهن على كذبه وانحطاط شخصيته والله كما حبب للعقلاء هدفة السير والسلوك فقد عمل بذلك في نفسه لأنه اعلا حكيم يتعقل في الحكماء ومن هنا لما اهلك قوم نوح لم يجريده من مواصلة المسيرة ببنى آدم هذه المادة القابلة لأن تستثمر لصلاحها اتم استثمار فبعد ما اكتسح جامعة قوم نوح هيا الحياة لجامعة تكون بدلها وخيراً منها

فكانت السفينة الحاملة لبذرة ناشئة اخرى غير صالحة لأن تحتضن حياتهم على الواحها فلذلك امر الأرض ببلع الماء الغامر لقشرتها حتى يفرغ وجه الأرض من موانع حياة الأنسان والحيوان عليها وحتى يكون مافي بطن الأرض خزاناً لمنافعها بفوران العيون وكثرة مياه الآبار وزيادة التبخر كما امر السماء ان تقطع موالاتها بأرسال الماء وان تجف القشرة الأرضية بين البلع والأقلاع وان تستقر السفينة على مكان صلب وان ينزل منها ركبها ليستجدوا حياة اخرى ويقدموا بنشاطهم الأنسانی وان يكون مامر عليهم عبرة لهم فى عدم معاودة المآثم وارتكاب الجرائم .

* (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين : قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم انى اعظك ان تكون من الجاهلين : قال رب انى اعوذ بك ان اسألك ما ليس لى به علم و الا تغفر لى وترحمنى اكن من الخاسرين : قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سنمتّعهم ثم يمسّهم منا عذاب اليم تلك من انباء الغيب نوحىها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبه للمتقين) *

تقدم فى الآيات السابقة قوله تعالى واهلك الآ من سبق عليه

القول فلما وقع ابنه فى احضان الماء العارم اخذته عليه شفقة الأبوة فقال ربّ ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت اعدل الحاكمين فأن قيل قوله تعالى الآ من سبق عليه القول يشعر بالعهدية وان نوحا كان معهودا بمن سبق عليه القول فكيف مع هذا يعود فيقول ربّ ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين قلنا على هذا التقرير يصح الأيراد لكن يحتمل ان لا يكون معهودا بأشخاص مخصوصين يعرفهم من اهله وان يكون علم ذلك عند الله وحده وعلى هذا لا مانع ان يقول ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين ، فأجيب نداء نوح من ناحية الله بأنه وان كان ابنك الآ انه ليس من اهلك فان اهلك من يعمل الصالحات وهذا عمل غير صالح لكفره فلا تسألنى ما ليس لك به علم بمعنى انك تحمل الأهل على الأقارب ولا تعلم اننى لم اقصد بهم الآ الأخيار الأطيب فلا توجه سؤالك من طريق ما تعلم وانما لك ان تسأل من طريق ما أعلم وهو الحق فان قيل السائل انما يسأل عمالا يعلم لاعما يعلم قلنا ليس المنظور من كلام الله ذلك بل المنظور انك انما يجوز لك ان تسأل الأجابة عما تحقق لك موضوعه فكان قبل كل شىء يلزمك ان تسأل عن الأهل ما هو معناه وانهم من هم وبعد ما تتميز ذلك تتقاضى منى الوفاء بما وعدت ثم اعطاه ملاكا عامّا هو انه دائما يجب عليه ان يتحرى الشىء ويتحقق منه جهده المقدور ثم يبرز ارادته او كراهته له فتوجه عند ذاك نوح ورأى ان الأحرى به ان يسأل عن الأهل ما هو معناه وانهم من هم ثم يتقاضى من الله الوفاء وانما قلنا ورأى ان الأحرى لان نوحا باعتباره واحدا من اهل اللسان لم يكن عليه غضاظة ان فهم من الأهل مطلق الأقارب الأختصاصيين فان اهل اللسان يفهمون ذلك من اطلاق كلمة الأهل

ومع ذلك انما جاز الله ان يؤتّب نوحا على ما فهم لأنّ لسان الشرع فى هذه المقامات غير لسان العرف كما رأيت حيث قال الله انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح ولهذه النكتة طلب من الله المغفرة والرحمة وانّ طلبته هذه ان لم توافق الأجابة من الله كان من الخاسرين بين اولياء الله المقربين ، وبعد ما اجترف الطوفان من اجترف ونجى من نجى وتمّت الأمور وفق ارادة الله قيل يانوح اهبط من السفينة الى الأرض بسلام منّا وبركات عليك وعلى امم ممّن معك اولئك الذين تتوفاهم ملائكة الله على الأيمان وعلى امم يأتون من بعدك مولودين على الفطرة ثم تبطربهم النعمة فينغمسون فى المعاصى فيمسّهم من اجل ذلك عذاب اليمّ يوم القيامة جزاء بما كانوا يعملون تلك الأنباء التى سقناها لك من انباء الغيب التى لم تشهد لها وما كنت تعلمها انت ولا قومك للفجوة الزمنية الواسعة بينك وبينها نوحيا اليك لتحيط بها علما ولتتسلّى بها فاصبر كما صبر سلفك على ما ووجهوا به من أذايا ان العاقبة والمآل للمتقين من نوح وخلفه الصالح ومثلك انت وسلفك

• المبارك

* (والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله
مالكم من الاله غيره ان انتم الاّ مفترون : يا قوم
لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الاّ على الذى
فطرنى افلا تعقلون : ويا قوم استغفروا ربكم
ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مـد رارا
ويزدكم قوّة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين : قالوا
يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا
عن قولك وما نحن لك بمؤمنين : ان نقول الاّ
اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى اشهد
الله واشهدوا انى برىء مما تشركون : من
دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون : انى
توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الاّ هو
أخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم :
فأن تولّوا فقد ابغتكم ما ارسلت به اليكم
ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرّونه شيئا ان
ربى على كل شىء حفيظ : ولما جاء امرنا
نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منّا
ونجينا هم من عذاب غليظ : وتلك عاد
جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتّبعوا امر
كل جبار عنيد : واتبعوا فى هذه الدنيا
لعنة ويوم القيامة الا ان عادا كفروا برّبهم
الا بعدا لعاد قوم هود) *

وهذه الآيات تتعرض لفهرست دعاية النبي هود ودعوته لقبيلته عاد اولئك الذين جاؤا الى الحياة بوحشية الخيال العارم والوهم الحاكم ففعلوا كل شىء تتقاضاه سبعية الحيوان وتمردوا وعتوه فاخذوا ينحتون امام الخالق الواقعى ما توحىه اخيلتهم من كائن موجد او منحوت لهم مصنوع بأيدى يهيم فبعث الله اليهم مرشدا هاديا ومنبها مذكرا ليعطف بهم عن طريق الضلاله الى شارع الهداية فنهاهم قبل كل شىء عن عبادة غير المبدأ الذى خلقهم وبيده مقدرات كل امورهم فقال لهم يا قوم اعبدوا الله مالكم من الاله غيره وما انتم بتوجهكم الى غيره الا مفترون على الواقع فان غير الله من هاته الماديات التى تحسونها وتلمسونها كائن مخلوق وان يكن من الهوامد فهو اخص حالا من غيره ، واعلموا يا قوم اننى فى دعائى لكم الى بارئكم وما يريد بكم من خير لنشأتكم يد فعنى الأخلص وتحثي الخدمة البشرية فلا اسألكم على هذا التبليغ اجرا حتى تتناقلوا منى وتعرضوا عنى وما جزائى الا على ربى الذى فطرنى وقد رلى رزقى افلا تعقلون من مجارى سيرى معكم وروحى وروحيتى ، فاقلعوا يا قوم عما انتم عليه واطلبوا من الله ان يفيض عليكم حجابا من التوجه يغطى على ماضيكم ويصلح مستقبلكم وارجعوا اليه رجوع اخلاص وحينذاك وعند ما تتوجهون اليه يرسل السماء عليكم مدارا فتنبت زروعكم وتخضر مراتعكم وتكثر مياهكم وتحلو ينابيعكم ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا بعد نصحي هذا معرضين عن تعاليمى متوجهين الى اشد ما كنتم عليه فتحسبوا فـ

عداد المجرمين ، لم يكن الجواب عن هذا المنطق السمين الا ان قالوا يا هود ماجئتنا ببينة ولا يدري ماذا يعنون بالبينة ايريدون ان يلمسوا الخالق بأيدى يهيم كما يلمسون اصنامهم ويروه بأحداقهم كما يرونها اذا

فالبينة عليهم لآلهم وحيث لم تأتتا - كما زعموا - ببينة فما نحن بتاركى
 آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ومضافا الى ذلك نعود ففتتهم
 مشاعرك بالأختلال وان الذى اضر بها بعض آلهتنا لتحديدك لها
 فأجابهم انكم اذا كنتم على ما تتبطنون من عقيدة فأنى اشهد الله ربي
 واشهدكم جميعا على انى برى مما تشركون حتى لا اصاب فى ظاهرى
 وباطنى من الله بسوء وانى بعد ان اعتصمت بالله وحده وتخليتم انتم
 عنه لا يهمنى ان تكيدونى بما معكم وعندكم من قوة ثم لا تنظرون بل
 افعلوا ذلك عاجلا انى توكلت على الله الذى من بعض هويته انه
 خالقى وخالقكم بل هو خالق كل دابة وآخذ بناصيتها فى عالم التكوين
 ان ربي فيما يدعو اليه على صراط مستقيم، فأن تتولوا عنى بعد طول
 نصحى لكم فقد اتمت عليكم حجة الله وابلغتم ما ارسلت به اليكم وان
 يدركم غضب الله فيستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرّونه شيئا ان ربي على
 كل شىء حفيظ اى قائم ناظر حافظ للمصالح العامة، ولما اصر القوم
 على العناد واللجاجة عزلنا هودا والذين آمنوا معه عن حوزة العذاب
 ووقعنا بالمتمردين شرايقاع جزاء وفاقا لما تبطنوه وأظهروه، تلك
 القبيلة المتحدّث عنها - عاد - جحدوا بآيات ربهم القائمة بالفطرة
 من ناحية والساطعة على لسان نبيهم من ناحية ثانية وعصوا رسله هودا
 والسابق عليه وجودا واتبعوا امر كل متجبر معتز بنفسه على لاشىء يملكه
 ويحتضنه معاند عن لجاجة وخبث سريرة، واتبعوا بعد هلاكهم فى
 هذه الدنيا لعنة كما انهم يلعنون يوم القيامة الا ان عادا كفروا ربهم
 وجحدوا انعمه الا بعدا لعاد قوم هود وفى هذه التعقبات اشعار

للظالم ان يرعوى عن ظلمه وللمتهمج ان يتراجع عن تهجمه .

ومن هذه الآيات تدرّك وظائف الفرد والمجتمع :

الفرد و المجتمع من حيث الجوهر و الماهية واحد و هو الأَنسان بما له من هوية طبيعية بعيدة عن الكمال و النقص و لكن من حيث العارض اثنان فالفرد هو الأَنسان بقيد كونه وحده و لنفسه و المجتمع هو الأَنسان بقيد كونه مع غيره و منضما الى من سواه فالأَنسان بقيد الوحدة و الأَنضمام ذو خاصيتين ممتازتين فمن خواص الفرد لنفسه (١) انه يراعى استقلاله فى وجوده (٢) و يراعى طرز تفكره (٣) و يسعى سعيه بمقدار جهده ان شاء و ان احبَّ الخمود و الجمود كان له ذلك ايضا و هذه الخواص تتنافى بالضبط مع خواصه منضما الى من سواه بما يتولد من هذا الانضمام عنوان المجتمع .

(١) فالفرد اذا راعى استقلاله فى وجوده و انه وجود ممتاز فى الخلقة مرهون لمساعى نفسه فقد تدعوه الدواعى الى ان لا يجامل احدا و لا يخضع لأحد حيث لا يهوى ذلك لكن اذا اراد ان يكون بنفسه و بغيره هياة اجتماعية كان من لازمه ان يرفع يده عن استقلال نفسه فيجامل و ينطوى على ما لا يروق لنفسه حتى لا ينشمر عنه غيره و يوازن ذلك فى الأَنسان حال كونه مجردا من العيال فأنه ياخذ درهمه و يدور به حيثما شاء و يصرفه فى اى لون و لا يخاير احدا و لا يشاور انسانا اما اذا صار صاحب زوجة و اولاد و هو يريد ان يضبط وجودهم له فأنه لا يستطيع ان يأخذ درهمه و يدور به حيثما شاء لأنه يجد نفسه مربوطا الى اناس آخرين يجب عليه ان يراعى ما تتقاضاه معائشهم و اذ واقمهم حتى يتمكن من قيادتهم و ان يحفظ اعصابه من الانهيار معهم فالقائد الذى يريد ان يلم شعث من يقوده لا يستطيع ان يحتفظ بهذا العنوان حتى يحذف الكثير مما تمنى به نفسه من تعالٍ و انشمارٍ و ترفيه عن عاطفه و توسع فى اعمال الرأى لانه يرى ان احتفاظه بهذه العناوين يوجب

تـفرق افراد ه عنه فهو يعيش على مضض من نفسه ليحفظ اتحاد ه
بمن يقوده .

(٢) والفرد اذا راعى طرز تفكره ابدى كل نشاطه الفكرى سواء

انسجم مع آراء الناس ام لم ينسجم لكن اذا اراد ان يكون بنفسه
وبغيره مجتمعا جرد ه من نشاطه لرأيه الى حدود ما حتى لا يعترك
بغيره فان الاختلاف فى الآراء مدعاة للاختلاف فى الأبدان والأجسام .

(٣) والفرد قد يكون ذا نشاط مدهش وقد يكون كسلا او متكاسلا

وإعماله لواحدة من هاتين الحالتين لفرد نفسه قد يجوز لكن مع مراعاة
الهيئة الاجتماعية التى تحتاج سيرا وسطا بين الأندفاع والخمود يجب
عليه ان لا يندفع كما يجب عليه ان لا ينكمش .

والأنبياء عليهم السلام لما كانوا قادة المجتمعات سحبا ايد يهم

فى المجارى الاجتماعية من كافة حقوقهم الشخصية فجالوا من لاقية له
وزوا من حدة افكارهم بما لا يخنق الحق ولا يبعد عنهم بالفرد وحذفوا

الكثير من نشاطهم مراعاة للسواد الأعظم هذا ما كان منهم امام الناس

اما المجتمعات فقلما توفى منها من اجاب صرخة الداعى لصـلاح

المجتمع نفسه سوى ما شاهدناه من الانصار فى استقبالهم لرسول الله

نبى الاسلام وبعض الشعوب التى ارادت التحرر لمحاولة المنافع

العامه والأنفلات من البؤس فطاوعت قائدها وما هذا التبليل الذى

يشاهد فى المجمع قد يما وحد يثا الا نتيجة الأنكماش للمطـامع

الشخصية والمنفعة الشخصية لا يمكن ضبطها فى اطار المجتمعات الا

بتعب زائد لان الراحة لا تكون الا تحت النظام العام تقنيا وتطبيقا ،

وقوله ان انتم الا مفترون معناه انكم مـزورون تختلقون لأنفسكم آلهة

تعيشون معها بلا مسئولية فأنه لاسئولية مع عبادة الصنم بخلاف عبادة

حود حتى قهار يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وهو الله سبحانه
 ن معها مسؤوليات عظيمة لكن بنفع الناس لا بنفع ذلك المعبود .

* (والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا
 الله مالكم من اله غيره هو انشأكم من الأرض
 واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه
 ان ربي قريب مجيب : قالوا يا صالح قد كنت
 فينا مرجواً قبل هذا انتبهانا ان نعبد ما يعبد
 آباؤنا وانا لفي شك مما تدعونا اليه مريب :
 قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينه من ربي
 وآتاني منه رحمه فمن ينصرني من الله ان
 عصيته فما تزيدونني غير تخسير : ويا قوم هذه
 ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في ارض الله
 ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب :
 فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة ايام
 ذلك وعد غير مكذوب : فلما جاء امرنا نجينا
 صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي
 يومئذ ان ربك هو القوى العزيز : واخذ
 الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم
 جاثمين : كأن لم يغنوا فيها الا ان ثمود
 كفروا ربهم الا بعدا لثمود) *

وعرض آخر لبعض الأنبياء مع اممهم كصالح وشمود فإنه بدوره لما
 جاءهم مبلغاً عن ناحية الله قال يا قوم اعبدوا الله الذي هو علم

لواجب الوجود خالق العالم فاطر بنى آدم مالكم من اله غيره فـأن الآلهة الأخرى أسماء على غير مسميات، الله هو الذى انشأكم من الأرض واعمركم فيها وجعلها بجميع ما تظم عليه تحت ارادكم فتوجهوا الى معرفته وبعد ان تعرفوه ارجعوا اليه انه قريب من عبده مجيب لدعائه اذا كانت المصلحة فى اجابته فكان من جواب قومه له انهم قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً لغير ما ظهر منك فقد كنا نعقد عليك آمالا بعيدة فبئنا بالفشل آتينا ان نعبد ما يعبد آباؤنا ومعنى ذلك انك لم تعد تخطأنا بمفردنا بل جئت تضلل اسلافنا الذين عاشوا دهوراً على هذه العقيدة وعلى هذا العمل واننا ليخامرنا شك فى واقعك ونجد فيك رمزا نسيء من اجله الظن بك قال يا قوم ارايتم ان كنت على حجة قائمة وبينة ثابتة بالبرهان والوجدان تجعلانى على اعتقاد جازم بربى وآتانى منه رحمة هى النبوة فمع هذا كله تحاولون منى ان اعصى الله بالانحراف منه والمتابعه لكم فما تزيدوننى اذاً غير تخسير ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية لخروجها بجسامتها ونتائجها التى تعطىها عن المألوف المعمول الدال على الأعجاز فذروها تأكل فى ارض الله ولا تكلفكم خرجاً ولا مؤنة ولا تمسوها بسوء فياخذكم من ربكم عذاب قريب فعاندوه ونصبوا له الخلف فعقروها فقال حينذاك وبعد ان اصروا على الكفر والمغالبة والمهاترة تمتعوا فى داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب فلما انسلخت الايام الثلاثة وجاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه عن ميدان العذاب وحومته واخذ الذين ظلموا الصيحة فانخلعت لها قلوبهم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين جثوم الحجارة حتى كأنهم لم يكونوا عمارة لتلك الديار الا ان ثمود كفروا ربهم وجحدوا به وبأنعمه الا بعداً وسحقاً لثمود .

ويقتنص من هذه الآيات (عنوان - عالم الخلقه وماذا اريد بها وماهى وظيفة المخلوق) .

(١) الذرة فى الاصطلاح العلمى الجديد المأخوذ من القرآن نفسه والجوهر الفرد فى الاصطلاح القديم هما البذرة الأولى فى تكون العناصر كلها غايته ان بذرة كل عنصر من العناصر لما ابدعت ابدعت بخاصية ان لا يعقل ان تكون هى فى اصلها ماهية مطلسه من الخواص ثم تطرأ عليها الخواص بعد تكتلها كتله نعم لا شك ان البذور المختلفة اذا قبلت الوحدة والتركيب حصل فى خواصها تفاعل فربما يتغلب جانب على جانب كما يشاهد ذلك فى تركيبات الشجر كالفتح بالكمثرى ونظير ذلك .

(٢) والتكهنات بأن كرة الأرض انفصلت من كرة الشمس بدليل بقاء الحرارة العظيمة فى اجوافها تكهنات لا مدرك عليها وان لم تكن ممنوعة بل ظاهرها ينبأ عن انها خلقه بحيالها وهذا الظاهر له قيمته حتى تقوم على خلافه بينة وما يقوله الطبيعىون من ارجاع بعض الأصناف الى بعض فى انها من اصل واحد تخرص كأرجاع الانسان للقرود والهررة الى فصيلة الأسود الى ما سوى ذلك والأمتياز الفعلى قاض بالأنحياز لقيام كل صنف بمميزاته الخاصة به والأشتراك فى بعض الأوصاف لا يلزم منه الاتحاد فى العنصر قطعاً فانه قد يعاشر عنصر بعيداً فى عنصره عنصراً آخر فيفعله او ينفعل به و ما اكثر ذلك كما ان الانشمار فى الأخلاق بعضاً عن بعض لا يلزم منه الانشمار فى الاصل .

(٣) وقد اختار الله لخلق الانسان العنصر الأرضى وهو التراب ومضافاته فأنشأه منها ليقوم بحياة خاصة على ظهر هذه الكرة وتلك الحياة هى السعادة على ضوء موازين الشعور الذى اعطاه له وجعله

ريب ورعب منهم وتساؤل مع نفسه بأن هو^٤ ان كانوا ضيوفا فقد قدّمنا ميزانا لحياته وسعادته والسعادة مأخوذة من السعد وهو الانشراح والأنبساط بما يعود لمجموع الخلقة القائمة بالمادة من ناحية المادة التى خلق منها والقائمة بالمعنى من ناحية الغرائز التى ديفت فى خلقته والتى لها منعمات وراء منعمات البدن المادى غايته ان النعيم المادى رصيد للنعيم المعنوى اذا كان بقدر موزون والقله فيه كالكثرة قد تؤثران على الخواص الغريزية المعنوية وهكذا النعيم المعنوى رصيد للنعيم المادى لا يحصل بدونه كما يرام .

(٤) اما السعادات المادية فهى ماتتطلبه الطبيعة الحيوانية فى الانسان من لذات السمع والبصر والذوق والشم واللمس والجنسيات والقائم بكل ذلك ما يراه الانسان فى عالم المادة فى عصره الحاضر وما رآه فى كل عصر والمنطوق عنها بقوله تعالى فى القرآن قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق .

(٥) واما السعادات المعنوية فهى الكافلة باجراء تلك السعادات على نظام صحيح دقيق وموزون مبتنى على الحلال والحرام من ناحية والأدب الاخلاقى الرفيع من ناحية ثانية كقضايا المواسة بجميع صنوفها فى مادة الانسان ومعناه هذا فضلا عن المعنويات العلمية الخارجة عن اطار الماديات بما به تشعشع النفس والعقل وعظمة الانسان ، ومعنى استعمره هنا طلب منه الأعمار لكن لنفس المُعْمِر لا للغير بخلاف استعمار السياسات فانه طلب الأعمار لذات المستعمر فاذا كان الخالق معكم بهذه الطبيعة اللينة ومع ذلك تتخذون نعمته سببا للجريمة والأثم فاطلبوا منه المغفرة والستر عن مابدا منكم لكن بعد التوبة النصوح والأنابة اليه ، ان هذا الرب لا كسائر الأرباب الذين يزوون الحقد

لمن تبدر منه اقلّ بادره في مقابلهم بل هو مجيب لمن دعاه بالتوبة على انه لا يحتاج الى وساطة لقربه من عبده قريباً لا مجال معه للتوسيط .

* (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما
قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ : فلما
رأى ايد يهيم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم
خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط :
وامرأته قائمة فضحكت فيبشرناها بأسحاق ومن
وراء اسحاق يعقوب : قالت يا ويلتا^٤ انا
عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب :
قالوا اتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته
عليكم اهل البيت انه حميد مجيد : فلما
ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشـرى
يجادلنا في قوم لوط : ان ابراهيم لحليم اواه
منيب : يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء
امر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود) *

لم يولد لأبراهيم من زوجته سارة ابنة عمه قبل مجيء رسل الله اليه
في طريقهم الى اهلاك قوم لوط وكان ابن اخته فلما جاء رسل الله وهم
فريق من الملائكة الى ابراهيم ليزقوا بـشارة الولد له واتصال عقبه الى
يعقوب وكان لا يشخصهم انهم رسل الله قالوا في الورد عليه سلاما وهو
مصد رقام مقام فعله فأجابهم ابراهيم برّد السلام وحسبهم ضيوفا فعجل
لهم بالطعام وجاءهم بعجل مشويّ فلما رأى ايد يهيم لا تصل اليه دأخه

لهم طعاما طيبا وان كانوا اعداء فان العدو ولا يدخل بيت عدوه ولا يسلم عليه فما شأن هؤلاء وكأن الرسل حسوا منه ذلك فقالوا لا تخف من ناحيتنا انا ارسلنا الى قوم لوط ولم يبينوا جهة رسالتهم الى القوم لكن الوضع كان قاضيا بأنهم كانوا رسل عقاب وهلاك كل هذا جرى بين رسل الله و ابراهيم وامرئة ابراهيم كانت قائمة تنظر وتسمع فضحكمت متعجبة من جليل خدماؤها للضيوف وعدم تناولهم مما قدمته لهم فبشرها هؤلاء الرسل هي وزوجها بكائن يكون منهما اسمه اسحاق وممن وراء اسحاق يعقوب ولولا الجرى الخارجى الذى عرفنا بان يعقوب هو ابن اسحاق لا ابن ابراهيم لكان مفاد الآيه ان يعقوب ولد لها ايضا يتلو اسحاق فى الولادة منهما فتعجبت هذه المرأة الشيخة من كونها تلد وقد تصرم عمر اللقاح والولادة فقالت قولة المتعجبين الد وانا عجوز وهذا ابراهيم بعلى شيئا ان هذا فى مجارى العادة لشيء عجيب فقالوا تعجبين من امر الله الذى اذا اراد شيئا قال له كن فيكون رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت الذى محتواه ابراهيم وسارة ابنة عمه كما هي زوجته ان الله يحمد اهل الحمد وانتم منهم ويجود على اهل الكرامة وانتم من اهلها فلما ذهب عن ابراهيم روع الرسل عندما قدم لهم الطعام ورأى ان ايد يهم لا تصل اليه وجاءته البشرى بحصول الولد له ولو لده من بعده جعل يجادل رسلنا فى قوم لوط واستدفاع العذاب عنهم ان ابراهيم لحليم لا يهيبض بالأنهاض الا بعد تأكيد الأسباب وآه اى انه وان تأثر بالعوامل المؤثرة الا انه لا يستسلم لها منيب الى ربه فى كل اموره وشؤنه وقال له الرسل فى عرض المجادلة يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد تحتم امر ربك بأهلاك قوم لوط وانهم قد اطل عليهم عذاب غير مردود عنهم .

ويقتنص من الآيات السالفة عنوان التكليف والتكوين ودواعيهما :

التكليف فى اصل مراعاة الوضع معناه العمل الذى فيه كلفوا التكوين معناه الأيجاد لما لم يكن فى الطبيعة اذاً فالتكليف انما يكون فى مراحل العمل والتكوين انما يكون فى عوالم الخلق والطبيعة والتكوين سابق على مرحلة التكليف لان التكوين اعداداً للتكليف .

(١) وقد تحدثنا قريبا عن فهرست التكوين وبذوره الأولى والذى

نتحدث عنه الآن هو الشدة والضعف والزيادة والنقصان ودواعيهما فى عالم الخلق، الخلق السوى والأعتدال معناه ما كان طالعا بالهدف الذى سيق له كخلق الانسان السالم بحسب ما اريد له من سمع وبصر وذوق وشم ولمس وجنسية ومشاعر باطنية الى غير ذلك ولا شك ان الزيادة والنقيصة تكونان عثرتين فى طريق الهدف الموماً اليه بما يوجد فى صاحبهما عقدة وسلب راحة للنفس وهذه القضايا هى التى اهابت بالمشككين الى ان يتناولوا فى انكارهم للصانع بدعوى ان الخلق نوع من الصدفة وليست قائمة على حكمة ولو كانت كذلك لما برز منها اقل نقض ولكنه اشتباه - اما أولا - فلأن موارد النقض لو كانت من الكثرة بما يعتد به لكان الى النقد سبيل ولكنها مع حسن الصدق اقل من القليل ولذلك اعتبرت من الشواذ والشاذ لا يكون مورد نقض كما لا يكون مورد تأييد - واما ثانيا - فان الجهل بالداعى لا يبرر النقد ولا يجيز التحامل فان مجهولات الطبيعة والى الأبد لا تكاد تحصى وهكذا اهداف العقلاء قد لا تدرك وقد لا يكون مبرراً لأبرازها مثلا الشريف المتزن قد يتلى ببلىة ناموسية يقف عليها تحت حنج الخفاء فيدعوه ذلك بطبيعته الحال الى مقت من تجاوز على ناموسه مع انه الى الأبد لا يستطيع الأصدار بجهة بغضه ومقتة لطرف الجريمة لأنه افتضاح عليه

وهو لا يريد ان يفتضح - واما ثالثا - بناء على لزوم ربط المسببات بأسبابها على الخالق بالنسبة الى نظام خلقته فقد يعلم الله من مجرى الأناسان بنفسه مختارا انه من طريق العبادة وملازمة الفضيلة وفعل صنوف الخيرات والمبرات لا يتصل بالمقام العالى والرتبة الراقية لأن نفسه عزوفة عما يعمله العباد والزهاد واصحاب الفضائل النفسية ويعلمه طيب النفس فيقدر عليه ما يجبر به تلك النقيصة فيبتليه بابتلاء ثقيل يسبب له درجة الشامخين من العباد وتحمل هذه المصيبة فى وقتها ثقيل عليه ولكنه لو التفت الى عاقبتها لاستهونها حين تحملها كمن يعطى نفسه للعمليات الجراحية الشاقة لظنه القوى انه بعد ذلك يتمتع بالبقاء فهذه الغاية تهون عليه ما يبذله من قيمة غالية لما يستقبله من عافية راقية تمتعه حيناً من الدهر بالحياة ولا يشكل علينا بأن الله اذا كانت له رافة بهذا الانسان لتفضل عليه بذاك المقام لأننا نقول تنضله عليه يكون تعدى على حقوق اهل الفضائل وهضما لهم وايقاعا للتساوى بين غير متساويين والتصويرات فى هذا الأمر كثيرة جداً لتكثر امثلتها المتشبهة الأهداف .

(٢) وقد عرفت ان التكليف انما يكون فى مراحل العمل واعرف الآن ان الكلفة المأخوذة فيه لا لأن فيها من نفسها مشقة بل لأنها ثقيلة على العاطفة الحيوانية قيل ان فيها كلفة والافواجبات الشرع كلها ومحرماته كلها ايضا انما شرعت لتخفيف الحياة على الأناسان لا لأيقاعه فى مشقة انما المشقة فى اهماله وتسيبه واجعل لذلك مثالا فى الأمم المنحطة التى لا يسودها نظام صحيح كيف تراها تتعثر فى الحياة لشيوع التلصص والتعدى من بعضها على البعض الآخر والأمم الراقية التى يسودها نظام يمنع التعدى والتسيب فى حال ان الأمم

المترقية لو مشت على النظام الشرعى من تحريم القمار والمسكرات واعمال الخنا لرأيت عليها من حضارتها ومن فضائلها الخلقية مسحة ملكوتية جبارة اذاً فالتكليف من الألفاظ المهمة للخالق على الخلق .

(٣) اما تفسير الآيات ولقد جاءت رسلنا اى الملائكة ابراهيم

بالبشارة وهى انه سيولد له من زوجته سارة ولد فان البشارة هـى الأخبار السار ومعمولا انما تكون بالطريق المعمول النوعى لكن هذه البشارة انما جاءت بمطلب سار اعجازى وهو التولد من امرءة عجوز وبعلمها شيخ اما الشيخوخة فى الرجل فلا تمنع من اللقاح وان ضعفت خلاياه ولكنها فى المرأة مانع طبيعى عن الأنعقاد فلحاقها اذاً اعجاز فى التكوين ، قالوا سلاما قول السلام عند الدخول امارة السلم والأمان من ورود عدو ، قال سلام اى كما انكم سلم فانا سلم لكم ايضا فأنتم ضيوف فجاءهم بعجل مشوى ، وبما انهم فى الهوية ملائكة وليسوا ببشر وان طلوعوا بمطالع البشر والملائكة لا تأكل ولا تشرب كما يأكل الناس ويشربون او لا يأكلون بالمرّة ولا يشربون لم تكن ايدى يهم تصل الى الطعام فأنكرهم حينذاك واعتبر سلامهم عليه حُدّة لأنّ السلم يأكل ممّا قدّم له وهؤلاء بعدم اكلهم من الطعام يظهر عليهم اثر المحاربة ولذلك اوجس منهم خيفة فقالوا له لا تخف من ناحيتنا اننا ارسلنا الى قوم لوط لننوق بهم وامرته سارة حينذاك قائمة تستمع الى ما يدور من حوار فضحكت متعجبة من ابايهم عن تناول الطعام الذى هيأته لهم فبشرناها بأنها ستلد مولودا ذكرا اسمه اسحاق ومن صلبه يأتى ولد ذكر اسمه يعقوب قالت عندما سمعت هذا الكلام من هؤلاء الضيوف ياويلتا كلمته تعجب واستغرب الد وانا عجوز وهذا بعلى شيخا ان ولادتى انما بهذا السن ومن هذا الشيخ لشيء عجيب قالوا أتعجبين من امر الله

اي شأنه ووضعه فانه اقدر القادرين على كل ممكن في نفسه وان كان
 ممتنعا من طريق العادة رحمة الله وبركاته ولطفه وعناياته عليكم اهل
 البيت انه يحمد مستحق الحمد كأبراهيم كريم جواد فلما ذهب عن
 ابراهيم الروح والخوف وان الواردين عليه ليسوا اعداء له وجاءته البشارة
 بما سيولد له جاء يجادلنا في قوم لوط مستدفا عنهم العذاب ان
 ابراهيم لحليم بمعنى ان الحوادث لا تزعجه وان ازعجت من سواه آواه
 كثير التأوه للمظالم تصدر من الظالم على المظلوم منيب الى ربه في كل
 اموره فقال له الرسل يا ابراهيم اعرض عما تجادلنا به في شأن قوم لوط
 انه قد تحتم امر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود عنهم .

* (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ : وَجَاءَهُ قَوْمَهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ : قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَانْكَ لِتَعْلَمَ مَا نُرِيدُ : قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ : قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَاسْرُ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعَدُهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ : فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ مُسَوِّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) *

ولمّا انفصل رسل الله من عند ابراهيم وجاءوا الى لوط بصورة علمان حسنى الهيئه سىء بهم وضاق بهم ذرعا واهتم اهتماما مدهلا لما يعلمه من وحشية وصلافه قومه وانهم لا ينهايون فى سبيل تنفيذ مقاصد هم اى احد كان ويرى ان هؤلاء الأضياف فارغوا الذهن من سوابق قومه وقال يومنا هذا يوم عصيب من عامّة نواحيه وجاءه قومه يهرعون اليه اى يتراکضون بسرعته وعجله يريدون ان يفتكوا بنواميس اضيافه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ويصرون على هذا النوع من الفاحشة فوقف لوط فى صدورهم ونباها عن مزاحمة اضيافه وقال يا قوم هؤلاء بناتى فتزوجوا بهن

هنّ اطهر لكم من هذا القذر الذي تحاولونه حتى من الضيــــــــــــــــوف
والأشراف العازبة اذ هانهم عمّا انتم عليه فاتقوا الله وخافوه من فعل
هذا المأثم ولا تخزوني في ضيفي اليس منكم رجل رشيد ينهاكم عن
فعل ما لا يليق فكان من جوابهم ان قالوا لقد علمت من ديدنا أنّنا
لا حاجة لنا في النساء بناتك كنّ او غيرهنّ وانك لتعلم ما نريد وما هو
سجيتنا في جنسياتنا فلما رأى لوط ان الحديث ومهما كان منطوقاً
لا ينجع بهم تمنى ان تكون له قوة يوقعها بهم او يكون له سند يلجأ اليه
منهم ومن دعارتهم ولما رأى الرسل ما حلّ من الضيق والمحنة بلوط كشفوا
له نقاب الواقع وقالوا نحن رسل ربك اليك ولا يلتفت منكم احد عن جهته
التي هو ما ض عليها فان ذلك اجدّ في سيركم وابعادكم عن هذّه
المنطقة الا امرتكم فلا تحملها معك انه مصيبها ما اصاب قومك وان موعد
الأيقاع بهم هو اول الصبح اليس الصبح بقريب كأنّ لوطا استبعد
ارجاء العذاب الى الصبح وبوده ان يكون في ساعته التي هو فيها
فأجيب بأن الصبح قريب وما المسافة بينك وبينه الا ساعات فلما جاء امرنا
جعلنا عاليها سافلها وهذه الكلمة كناية عن التخريب التام الذي
لا ينتفع معه بشيء وامطرنا عليها حجارة من سجيل وهو الطين الخالص
اليابس فانه اقوى من كلّ حجارة حتى تجهز على من يبقى حياً منهم
منضود اي كثير متواصل مسومة اي عليها علامة من ربك وانها هيأت لهذا
الغرض وليست هذه الحجارة ولا هذا التخريب مختصين بقوم لوط بل
هي قربة من كل ظالم ان شاء الله .

ويقتنى من هذه الآيات عنوان — ماهو الدين —

من معاني الدين الخضوع وهو المراد به حيث يستعمل في باب
الديانات اي العقائد التي يستسن عليها فاذا قيل دان فلان مهذا

الدين فان معناه خضع له والخضوع وان كان له عوامل عديدة منها المجاملة ومنها التملق ومنها خوف السطوة لكن الاله هو خضوع القلب للحق متى شخصه وعلى هذا وردت الكلمة عن علي عليه السلام ان العبادة على ثلاثة اقسام عبادة التجار وهى التى يقصد منها ما يؤتيه الله من الثواب فالعابد فى هذا الفرض إنما يعبد المال لا معطى المال وعبادة العبيد وهى التى يقصد منها دفع الايقاع واعمال السطوة فالعابد فى هذا الفرض إنما يعبد العصا لا مالك العصا وعبادة الأحرار وهى التى يقصد منها عبادة مستحق العبادة لذاته لا لثوابه ولا لعقابه كما قال علي أيضا ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك ولكن وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك وقد يستثمر الاجتماع من عبادة التجار وعبادة العبيد وان كانتا لا وزن لهما علماً الا انهما يعطيان فى النتيجة للمجتمع ما تعطيه عبادة الأحرار عملاً من مشى الجميع على نظام الدين فلا تلصص ولا خداع ولا ارتكاب جريمة مع اداء للواجب الذى يريده المولى .

نعم الدين الذى لا ينفع هو دين المجاملة الجوفاء الذى يتخذه الانسان لتمشية مقاصده تحت هذا الستار المفتضح مثلاً اذا نظرنا الى ارقام مجتمعات المسلمين فى ممالكهم فضلاً عن الازواع المنتشرين فى ممالك الدنيا حيث تكون الغالبية لغيرهم نجدها كتلامن الملايين المكذبة البليغة وكلها تدّين بالاسلام مدعية له بدافع من انفسها لا بسوق العصا ومع ذلك كله لا ترى للاسلام الواقعى (ومعنى واقعيته اعمال نظمه) عينا ولا اثرا الا فى شكلية لا تبرأ علة ولا تروى غلطة وماوزان المسلم من هذا القماش امام المسلم الاخر من قماشه الأوزان خوف جبان من جبان لا اكثر .

وأما الدين القائم على علم مشفوع بعمل فهو وان كان له اتباع الا
انهم منذ القديم فى قلة وهم اليوم اقل ولولا هم لانهارت جوامع الدنيا
خلقيا انهياراً مزعجاً كما تراه فى الأمم الفارغة من الدين بالمرّة .
ومما حرّمه الأسلام وشدّد النكير عليه وجعل جزائه القتل هو اللواط
ولاشك ان اللواط من الاعمال الساقطة وان ارتكبه من له اسم و رسم لأئمه
عمل انحرافى و افراغ للشهوة فى غير محلها وقد اطبق على ذلك عصر
الذهب الى حدود الأسراف مصدقين للكلمة الحرة الواقعية التاريخ
يعيد نفسه فبعد مئات القرون أعيد قوم لوط سكنة البوادي بسكنة
نواطح السحاب .

* (والى مد ين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله
ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان
انى اراكم بخير وانى اخاف عليكم عذاب يوم
محيط : يا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط
ولا تبخسوا الناس اشيائهم ولا تعثوا فى الارض
مفسدين : بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين
وما انا عليكم بحفيظ : قالوا يا شعيب اصلاتك
تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل نى
اموالنا ما نشاء انك لأنت الحلیم الرشيد : قال
يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى
منه رزقا حسنا وما اريد أن أخالفكم الى ما
انهاكم عنه ان أريد الأصلاح ما استطعت
وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيت : ويا
قوم لا يجر منكم شقا فى أن يصيبكم مثل ما اصاب

قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط
منكم ببعيد : واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان
ربى رحيم ودود : قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا
مما تقول وأنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك
لرجمناك وما انت علينا بعزير : قال يا قوم
أرهطى اعزّ عليكم من الله واتخذتموه ورائكم
ظهريا ان ربي بما تعملون محيط : ويا قوم
اعملوا على مكانتكم انى عامل سوف تعلمون من
يأتية عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا انى
معكم رقيب : ولما جاء امرنا نجينا شعيبا
والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين
ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين :
كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا للمدين كما بعدت
ثمود) *

ثم قصّ سبحانه على نبيه قصة شعيب ومد ين فقال وارسلنا الى
مد ين أخاهم فى النسب لافى النزعة العقائدية شعيبا ليتمّ الحجّة
عليهم ويذكّره بربهم ويعلمهم قوانينه وما يريد له لعباده من سعادة
فقال يا قوم اعبدا الله خالفكم ولا تعبدوا غيره مالكم من الاله غيره : فى
معاملاتكم لا تنقصوا المكيال والميزان فإنه لا يفعل ذلك الا فاقد دين
وفاتد مال ايضا فيقوده فقره الى انقاص حقوق الناس لتحسن حاله
والحال انى اراكم بخير من ناحية مال الدنيا كما انى اخاف عليكم يوم
الحساب حين يقتص الله للجماة من القرناء عذاب يوم يحيط بكم

ولا يفلت منه احد وقد يحيق بكم ذلك فى الدنيا ايضا ويا قوم اذا بعتم واشترىتم اوفوا المكيال فكما لا تعطون زائداً للناس لا تنقصوهم حقهم وكذلك اوفوا الميزان حقه فلا تنقصوه ولا تكونوا من المفسدين فى الأرض فان ما انتم عليه افساد واشاعة فساد وما هو مُحَرِّزٌ لكم عند الله خير لكم مما تتكالبون عليه هذا وانى واعظ لكم لا حافظ لوجودكم فان الحافظ هو الله وحده فأجابه قومه بلسان جاهل على طريقة الجهلة وبصورة استهزاء وسخرية فقالوا يا شعيب أصلا تك التى تصليها وتكثر منها تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا ازمانا طوالا او ان نفعل فى اموالنا ما نشاء نزولا على رغبتك فنوفى المكيال والميزان ولا ننقصها انك لانت الحليم الرشيد قالوا ذلك ايضا هازئين به بمعنى انك لا عقل عندك ولا رشدا لك فأجابهم بلسان علمي وحوصلة واسعة وتوادة واضحة فقال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من وجود ربى اكفر به كما كفرتم به واجده كما جحدتموه اذا اعود ضالا بعيد الضلال كما انى لست بصدد مشاقتكم ومخالفتكم عند ما نهيتكم عن عبادة الأوثان وتطيف المكيال والميزان وما اريد بدعوتى لكم الى ما دعوتكم اليه الاّ الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الاّ بالله عليه توكلت واليه انيب ويا قوم لا تكسبكم اجرامكم التى ترتكبونها مشاققة لى وعنادا معى ان يصيبكم من العذاب مثل ما اصاب قوم نوح او قوم صالح وهاهم قوم لوط قريبا عهد منكم فتجافوا عن خطتكم واستغفروا ربكم ثم ارجعوا اليه رجوع مستبصران ربى رحيم بعباده وودود بهم فأجابوا عن مقاله جواب الجاهلين الهازئين ايضا بأن قالوا يا شعيب لا نفهم ما تقول يعنى ما هى التوبة التى تدعوننا اليها وما هو الاستغفار فأننا لانعرف ذلك حتى نعتقد به هذا من وجهة تخويفنا بالله واما تخويفنا بك نفسك فأننا نراك فينا ضعيفا ولولا قومك لرجمناك

بالحجارة وما انت بعزيز علينا حتى نتحاماك لاحترامنا لك فأجابهم شعيب على نمطه العلمى وقال يا قوم أرهطي اعزّ عندكم من الله خالق الجميع ومع ذلك فقد نبذتموه وراء ظهوركم ان ربى بما تعملون من شر وباطل محيط لا يشدّ عنه عمل من اعمالكم ولا قول من اقوالكم وياقوم اعملوا على رسلكم فأنى عامل على رسلى ولكن عن قريب سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب منى ومنكم وارتقبوا انى معكم رقيب لأمر الله ونزول قضاؤه ولما جاء امرنا المحتمّ وقضاؤنا المبرم نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا انفسهم واخوانهم اما انفسهم فبالكفر وتوابعه واما اخوانهم فببخس حقوقهم صيحة قالعة للقلوب وهدة سالبة للشعور فأصبحوا فى ديارهم جاثمين جثوم الحجارة لاحراك بهم ولا حياة معهم يراهم الرأى ويرى ديارهم فيحسبهم موتى من امد بعيد وان مرور الحوادث ابلى ديارهم واطاح بها فى حال ان الأمر ليس كذلك ألا بعدا لمدى كما بعدت ثمود وعاد وقوم نوح ولوط .

ويقتنص من هذه الآيات :عنوان (الطمع وآفته فى المجامع البشرية)

الحياه على قسمين حياة مادى وحياه مجردة عن المادّة اما حياة المجردات فهى حياة علموتعقل وخيرفأن الشرلايتأتى الآمن الغرائز الحيوانية وغرائز الحيوان تابعه لمادّيته من جوعه وشبعه فأن اثرالجوع الحقد و اثر الشبع الغرور و اثر الجنسيات حيث يفقد مابه تفرغ الشهوة عوارض مهمّة كالجنون والتحامل ونظر السوء الى الناس وحيث يكثر مابه تفرغ الشهوة يحصل الطيش اذا فالموجودات المجردة عن المادّة التى يستدل على وجودها بآثارها كالعقول البشرية ليست منشئا للشرّ وانما هى منشأ للخير فقط مثلا انظر الى العقل فأنه يهدى الى الخير وينهى عن الشرّ . واما حياة المادى فهى محتوية على الخير والشر معا فى الأعم

الأغلب والخير لأصل خلقتها والشرّ لسوء تصرف المخلوق بنفسه وتطبيق هذا المطلب على الحيوانات العجم يحتاج الى طول فى الحد يث فلنتكلم على تطبيقه بالنسبة الى الإنسان الذى هو المقصد الأسمى فى هذه الكائنات .

لا شكّ وبالوجدان الفطرى ان الانسان كائن ذو جنبتين عقل وجسم وفى الجسم غرائز غير مربوطة بالعقل كالحاجة الى الأكل والشرب واللباس لأجل الأكنان من حرّ وبرد والمأوى والشهوة الجنسية فى حدود من العمر وفى العقل غرائز غير مربوطة بغرائز الجسم فالعقل من حيث هو لا يعرف الأكل والشرب واللباس والمسكن والجنسيات لكن حيث يقف على ان حياة الأجسام مقرونة بذلك يجعل لنفسه الدخالة بين الجسم ومتطلباته لصالح الجسم الذى هو دليل له ومرشد لصالحه وطول بقائه براحة وطمأنينة وان لا يعيش عيشه معدّبة كما تعيشها الوحوش المهملة حيث نراها شعثاً غبراً شقية تتنازع البقاء شرّ تنازع تفعل ذلك بهدف المعيشة ولكنها لا تستحصلها لأن دروبها عسرة ملتوية معوجة والعقل الناضج بالنسبة الى الغرائز الحيوانية بمنزلة قوة الكهرباء فان قوة الكهرباء اذا وجدت الاجسام الهادية مشت فيها وابتعدت الى فواصل ساحقة واذا لم تجد الجسم الهادى تعثرت فى مجراها فلا يكاد ينتفع بها وهكذا العقل اذا وجد منفذاً فى الغرائز مشى فيها فنورها وهذبها وحذف من فضولها واندفاعها واذا لم يجد منفذاً فيها بقيت تتعثر بين الظلمة والنور على حسب نفوذ صعوبته وسهولة .

مثلا العقل يقول لغريزة شهوة الأكل كل الطعام ليحملك لالتحملة فانك اذا كنت حملاً له اثقلك واقعدك والحق فى ذلك مع العقل فان

البطنه تؤدى الى فساد المزاج وينجرّ ذلك بالأنسان الى الهلاك مضافا الى انه فضلا عن اقامة صلبه يَسْتَطِيع ان يواسى بزائده غيره من المعوزين فيريح بذلك نفسه وغيره من حيث تنازع البقاء وعبثه وبنظير من ذلك يقول له فى اللباس والشراب والمسكن والجنسيات فان زائدها مفسدة والأسراف فيها هادم واصولا فى مقام الطمع يقول له مهيا فرضت لنفسك من تصوير حاجة تدعوك الى جمع الحطام من مرض تفرضه ومعقمت عن الكسب تقدّرها كحرب تنشب وعُطل تحصل وعيال يكثرون تريد لهم الرفاه فان اندفاعك يجب ان يكون طبقا لفروضك الصحيحة مشروطا بأن لا تسلب فى هذا الطريق حقا لغيرك هو مثلك فى فروضه وتقديراته وحاجاته فانك اذا اعتدت لت سعدت روحك بانها غير جانية وجسمك بأنه غير متعب وفكرك بأنه غير مكدود وسعد اخوك بانه لم يجد منك تعديا ولا ظلما وان لم تعتدل كنت جانبا على الناس متعجا فى بدنك مكدودا فى فكرك شقيا بك اخوك وهذا هو منطق انبياء الله الذين من جملتهم شعيب حيث قال لقومه اول هدف يركزه الأنسان لحياته واول حجر يضعه لىبنى عليه اول بنائه وآخره هو اعتقاده بأن موجدا مقدسا منبعا للفضيلة مشرف عليه دائما وابدأ ناظر لكل ما يأتى منه يريد له ولعامة اخوانه السعادة ويبغض له الشقاء والهدف الثانى تأمين المعيشة على اساس الواقع وهو ان الانسان يجب عليه ان لا يحتكر اولا ولا يجحف ثانيا ولا يسرق ثالثا فان انقاص المكاييل والموازين سرقة فيكون قد جمع بين الرذائل كلها مضافا الى ان طرفه حيث يقف على احتكاره واجحافه وسرقته يعود اعدى عدو له ينرصده به الفرص للاطاحة به .

* (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين : الى فرعون وملأه فاتبعوا امر فرعون وما امر فرعون برشيد : يقدم قومه يوم القيامة فأورد هم النار وبئس الورد المورود : وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود : ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما اغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شئ لما جاء امر ربك وما زادهم غير تنبيي : وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه اليم شديد : ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) *

وهذه حلقة اخرى من حلقات الرسل وهى بعثة موسى الى فرعون وملأه بآيات جسام وبراهين فخام وسلطان بالحجة ظاهر فتلك الأقباط عن قبول دعوة موسى واتبعوا امر فرعون وما امر فرعون برشيد فانه يدعو الى عبادة نفسه ويزع الناس عن عبادة خالقهم وكان عاقبة فرعون وقومه انه كما قدمهم فى هذه الدنيا فابتلعتهم وابتلعتهم لجج البحار كذلك يقدم قومه يوم القيامة فيورد هم النار وبئس الورد المورود النار وانما قال فأورد هم بصيغة الماضى والحال ان المقام مقام مستقبل تنزيلا لما يتحقق وقوعه منزلة الواقع واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة عندما أغرقوا ويتبعون يوم القيامة لعنة بئس العطاء المغاض للعنة ذلك الذى اسلفنا بيانـه

وتلونا قرآنه من انباء البلاد والأمم الخالية ما هو موجود الآن وان باد
اهله ومنها ما حصده تحريف الزمان وحادثه وما ظلمنا اولئك الذين
اطحنا بهم ولكن ظلموا انفسهم بأصرارهم على المعصية فما اغنت عنهم
آلهتهم من الله شيئا لما كتب عليهم الدمار وما زادهم اولئك الارباب
غير تنبيذ وتخسير وكذلك الأخذ الذى مرّ بك الحد يث عنه فى التحدث
عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى اخذ ربك اذا اخذ القرى
وهى ظالمة ان اخذه يوءلم القلب والجارحه شديداً وقعه ووطأته ان فيها
اوقعناه لآية وعلامة لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس مشهود
للأجيال المحشورة قاطبة فيه يفتضح الفاجر وينجح الطاهر ومن هذه
الآيات يقتنص عنوان (الحق والباطل) .

تقال كلمة الحق حيث الأمر ثابت واقعا وله قرار من نفس الأمر جزما
والباطل هو الذى لا واقع له ولا قرار والمقابلة بينهما كالمقابلة بين
الحقيقة والسفسطة وقد يلوح التعجب فى باد الأمر بين المطلبين
الا ان مقام القضاة لما كان للأكثرية الزائفة من مرتشوان كان صاحب
معرفة وذى غرضوان كان صاحب علم وعدوّ يجنح للعاطفة او محب يجنح
للصدقة او عامي يدرك ظاهر السفسطة ولا يدرك شيئا من الحقيقة
لبعد ها عن مستوى فهمه ترى ابداً أنّ الحق أما متطامن لا يعرف قدره
الآ احرار الفهمة او انه اذا انتصر يوما فأنه ينخذل اياما ومن هذه
الظاهرة تذرع الذين يحبون الظهور فى الدنيا بالأباطيل والحيل
وظفروا من طريق ذلك وانقهرت لهم الحقيقة عملا وان كانت فى المقياس
العلمى قاهرة لكن اين هذا من ذاك .

وشئ آخر مما كثر هوى الباطل وقلل من اصحاب الحق هو ان
صاحب الحق يجب ان يكون من ابطال الناس فى علمه وبيانه وعزيمته

اولئك الذين يُضَحَّون براحتهم ومالهم وبأنفسهم فى كثير من الأحيان بخلاف صاحب الباطل فإنه لا يحتاج الى تضحية بل هو فى حاجة الى تدليس ونفاق ودجل وشعوذة واشاعة للأكاذيب والأباطيل وسوق هذه المطالب راجحة بين العوام .

مثلاً المقابلة بين علي ومعاوية هى مقابلة الشئ والاشئ فى كافة المفاهيم فلارط لثانيها بالأول فى اصالة النسب ولا فى العلم ولا فى الزهد ولا فى الأيمان ولا فى الشجاعة ولا فى الورع ولا فى المفاداه ومع هذا كله فقد استطاع هذا الثانى ان يسيطر على زمان ومكان الاول ويقلعه عما هو حقه ويدفعه عماله ذلك لانه يغدر ويمكر ويفجر وعلسى يتخرج عن ذلك واذا كان السبب الوحيد لاستجلاب العوام هو الغدر والمكر والفجور والمواعيد الكاذبة والانتصار للظالم للأستفادة من شيطنته وخذلان المظلوم بالملازمة فلا شك ان علياً يفشل فى هذه الميادين ويتقدم معاوية والذين نالوا من الدنيا مالا أوجاهاً او شخصية او تقدماً فان اغلبهم توصلوا الى مقاصدهم من هذا الطريق المظلم المتعفن واستغلوا بدجلهم جهل الجاهل وبجاههم ومالهم رمز المرموز وخبث الفاسد .

وعلى هذا الحساب ترى ان اتباع معاوية فى التاريخ من كافة الطبقات اكثر من اتباع علي لان اتباع الباطل دائماً اكثر من اتباع الحق واتباع يزيد بن معاوية على سقوطه وفر من اتباع الحسين بن علي واتباع كل ساقط ازيد من اتباع كل وزين : و من جملة ذلك قضية موسى وفرعون فان فرعون على عتوه وطغيانه واستبداده بأمر الناس كان الناس اطوع له من موسى على ان موسى ما كان طاغياً ولا باغياً ولا عاتياً ولا مستبداً ولا يريد سلطاناً وانما يريد اقامة الحق واماتة الباطل مع احتشاد

البراهين معه .

ومما يضحك الثكلى ان الناس الذين يُأْنُونُ من عصا الزور يتهافتون عليها كتهافت الفراش على وذيلة السراج مع ان وذيلة السراج تحرقه :
ولقد ارسلنا موسى الى ابناء جيله ليخرج بهم من الأنهيـار الـى الاستقامة والاعتدال بآيات تشفع دعوته وتصدقها كانقلاب العصا شعبانا وسلطان مبين اى حجج قاهرة الى فرعون وافراده واتباعه فأن يكن فرعون يأبى ما يدعوه اليه موسى فذلك للحفاظ على سلطانه وصولجانه ولكن هَلَمَّ الخُطْبُ فى الاتباع اولئك الذين يعانون منه كل اذية ومع ذلك يكونون له رداءً فى قبال داعية رُوحى فاتبعوا امر فرعون وما امر فرعون

برشيد .

* (وما نؤخره الا لأجل معدود : يوم يأت لا تكلم نفس الا بأذنه فمنهم شقى وسعيد : فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد : واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات و الأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) *

ضمير الغائب فى قوله نؤخره راجع لليوم المجموع له الناس يعنى
انما اخرنا يوم القيامة عن اول جيل من المكلفين مات لتستوفى الأجيال
اعمارها فى علم الله بحسب ما ابرم لها من مصلحة يوم يأتى لا تتكلم
نفس الا بأذنه اى لا تتكلم بما تريد حيث يكون هراء لا حاجة فيه انما تتكلم
بما يسألها الله عنه فمن المحشورين شقى محكوم عليه بالعذاب وسعيد
محكوم له بالثواب فأما الاشقياء فمأواهم النار لهم فيها زفير وشهيق اى
اصوات عالية قوية منبعثة عن الألم والتأثر العميق خالدين فيها مادامت
السموات والارض وهو كناية عن التأييد الا ما شاء ربك فينقطع عنهم
العذاب وتنتهى محكوميتهم ويخرجون منها ان ربك فعال لما يريد طبق
الحق وعلى ضوء المنطق وأما السعداء فمأواهم الجنة خالدين فيها
مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك و هو قطعهم عن دخول الجنة
فى الاول فيكون مكلف واحد من اهل النار زماناً ومن اهل الجنة زماناً
آخر وهذه الآيه لا تنطبق على الكفار وانما تنطبق على العصاة من اهل
العقيدة والجذ بالذال المعجمة هو القطع وجذ الثمرة قطعها .

* (فلاتك في مريّة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا
 كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لمفوفهم نصيبهم
 غير منقوص : ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف
 فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم
 لفي شك منه مريب : وان كلا لما ليوفينهم ربك
 اعمالهم انه بما يعملون خبير : فاستقم كما
 أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون
 بصير) *

الخطاب في قوله تعالى فلاتك لنبى الاسلام ومن باب اياك اعنى
 واسمعى يا جاره لان النبى ليس في شك من كون عبادة هؤلاء للأصنام
 عبادة باطلة ساقطة تقليدية للآباء وقد حكم الله تعالى على نفسه بأيفاء
 هؤلاء المشركين نصيبهم يوم القيامة غير منقوص عما يستحقونه وهنا
 اخذ في تسلية النبى حيث قال ولقد آتينا موسى الكتاب وهو التوراة
 فاختلف فيه معاصروه فبعض يرى انه من الله وبعض يرى انه من كيسه
 ولولا كلمة وعهد سبق من الله بان مجازاة الأعمال انما تكون يوم القيامة
 لافى دار الدنيا لفضي بينهم فنصير المصدق وكسر المكذب فاستقم يا نبى
 الاسلام على ما أمرت بتبليغه ونشره ومبارزة اعداء الله وهكذا فليستقم من
 تاب معك من الشرك وتوجه الى الله المعبود بالحق ولا تخرجوا عن
 خطه ما حدث لكم انه بما تعملون عالم وبصير ومراقب .

() ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تتصرون : وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبهن السيئات ذلك ذكـرى للذاكرين : واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين : فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) *

الركون هو الأتحشار بعنوان الصداقة وبالموادة للظالم والآصرف الأختلاط به اذا كان دافعالشره وتهجمه فلا اثم فيه وانما عدّ سبحانه الركون الى الظالم من موجبات دخول النار لان الظالم مفسد مخرب صديق للباطل عدو للحق ومن كانت هذه سماته كان وجودا خبيثا مضرا فاتكا بالمجتمع متلفا للحقوق والأمر فى قوله وأقم الصلاة للنبي لانه فى طليعه المكلفين وطرفا النهار صلاة الصبح والعصر والظهر بينهم والزلف هو الشعر فى مقاميم الرأس اطلق هنا على اول الليل بما يشمل صلاة المغرب والعشاء والصلاة فضلها عظيم من نظر الاسلام ولذلك كثرت فيها الوصايا وحث الكتاب والسنة عليها حثا بليغا فقد جاء فى الاثر عن ابي حمزة الثمالى قال سمعت احدهما عليه السلام يقول ان عليا عليه السلام اقبل على الناس فقال ايه آيه فى كتاب الله أرجى عندكم فقال بعضهم هى قوله ان الله لا يغفر ان يشرك به - الآية -

فقال حسنة وليست اياها وقال بعضهم قوله ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه - الآية - قال حسنة وليست اياها وقال بعضهم قوله قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية - قال حسنة وليست اياها وقال بعضهم هى قوله والذين اذا فعلوا فاحشة - الآية - قال حسنة وليست اياها قال ثم احجم الناس فقال مالكم يامعشر المسلمين فقالوا لا والله ما عندنا شىء قال سمعت حبيبي رسول الله (ص) يقول ارجى آية فى كتاب الله واقم الصلاة طرفى النهار وقرأ الآية كلها قال (ع) قال ياعلى والذى بعثنى بالحق بشيراً ونذيراً ان احدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه الذنوب فاذا استقبل الله بوجهه لم يفتل وعليه من ذنوبه شىء ويكون كما ولدته امه فان اصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتى عدّ الصلوات الخمس ثم قال ياعلى انما منزلة الصلوات الخمس لأمتى كنهر جار على باب احدكم فما يظن احدكم لو كان فى جسده درن ثم اغتسل فى ذلك النهر خمس مرات اكان يبقى فى جسده درن فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتى ولا شك ان هذا الحديث له محلّه ولكن لا بدّ من تطبيقه على القواعد الفقهية العلمية فان حقوق الناس مع التجاوز عليها لا تسقطها الصلاة عن المعتدى وكذلك المحرمات الأخر نعم الحسنة تذهب السيئة فى غير حقوق الناس بشرط التوبة النصوح وعلى كل حال فعمومات ومطلقات هذا الحديث ونظائره وهذه الآية واشباهها لها مخصصات ومقيدات فى الكتاب والسنة فلا يُغفل عن ذلك، واصبر يانبيىّ الأسلام على ما تواجهه فى طريق تبليغ الرسالة فان الله لا يضيع اجر المحسنين وسيعطيك مقاماً محموداً، فلولا كان اى هلاً كان فهى هنا تحضيضية وسياقها يفيد النفى من القرون من قبلكم اى من الأجيال السابقة او لواقية من عقل

ونضوج شعور ينهون الآخرين عن الفساد فى الأرض فإنه لو حصل ذلك لكانت مجارى الدنيا غير مجاريها فعلا ، نعم تصدّر للأمربالمعروف والنهى عن المنكر عدة قليلون تكاثر عليهم الظلمة المجرمون فما تركوا لهم مجالا يجولون فيه وما كان ربك مهلك القرى لمجرد وجود الظلم فيما بين اهلها اذا كان فيهم من يقوم بمحو آثاره عنهم بعقله ودينه وفعاليتته الناضجة لكن لم يكن فى البين شىء من ذلك فحقّ عليهم القول فأهلكوا .

ويقتنص من هذه الآيات عنوان (العدل والظلم) العدل هو التوسط بين الأفرط والتفريط ولازم ذلك ايجاد المعادلة بين شىء ومقابلته كالمعادلة بين عدلى الحيوان فان العدلين اذا تساويا وزنا وكيفية فى وضع وروعى فى وزنهما قوة الحامل مشى الحامل بينهما مشيا لا يشكو فيه تعثرا ولا سأمًا بخلاف مالوزاد الوزن على مقدور الحيوان او ثقل جانب على جانب او لم تراعى الكيفية فى الوضع فأن كل ذلك لما كان وراء الأعتدال وميزان المعادلة لزم منه ان لا يصل الحمل الى مقصده ، والعدالة الاجتماعية هذه مقيستها وهى ان تكون القوانين المسنونة لنظامها قدروعى فيها سعادة النوع ورفاهه وامنه بلا تحميل عليه وبمقدار مقدوره وان لا يبعث فى تطبيقها فان كان فى المقدور كسر وزع على الجميع وان كان اضافة وزع على الجميع ايضا امّا اذا كان سنّ القوانين لم يراع فيه الا مصلحة الحاكم وكان التطبيق ايضا بما يعود له ولو زعته كان ذلك هو الظلم : فالظلم اذا هو اعمال الافراط والتفريط بأن يرفه على واحد الى حدود السرف ويضيق على آخر بلا داع سوى حب الأثرة او اعمال الحب والبغض واذا تحقق الظلم العام تبعه الظلم الخاص فأن الافراد اذا وجدوا ان العدل هو المخيم على

النوع انكشمت الأفراد المتنزية لأنفسها وحبست رغباتها الخاطئة فى بواطنها واذا وجدت ان الظلم هو المخيم على النوع تنزى كل متنز بما فى وسعه من اعمال نفوذه وشيطنته .

والعدل مع مراعاة الحلات الاعتيادية للنفوس محبوب لها بأسرها والظلم كذلك مبعوض لها بأسرها والذي يدعو الانسان الى الظلم هو عدم اعتناؤه بحقوق غيره فيتسبب له من جرأة ذلك تعب زائد لنفسه واتعاب للباقيين لا بازاء شىء معقول ولذلك كان مفهوم العدل له وقع لذيد على العواطف البشرية منذ عهدت البشرية نفسها وكان مفهوم الظلم له وقع سىء على العواطف البشرية ايضا منذ عهدت نفسها كذلك وقد قامت الشرائع السماوية من حين انبثاقها بتأييد العدل - ان الله يأمر بالعدل - والتنديد بالظلم والظالم - ولا تركنوا الى الذين ظلموا - حتى ان الشريعة اعتبرت ان سان السنه العاد له المعمول بها لاجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة وان سان السنه السيئه عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة : ويكفى فى حرمه الظلم وتنزله رجته عند الله وعند العقول تحريم الله للركون الى الظالم بشتى انحاءه ليقع فى وحشه لا نفراد ومضايقا ته يكفى البشرية عارا ان الكثير من ابناءها يتباهى بالظلم والانتساب الى الظالم بل ويغذ فى الأرشاء لينال منه ادنى سبب يتمسك به : والنار التى اشار اليها تعالى بقوله فتمسك النار هى فى الحقيقه عذاب تموج الحياه بأهلها واضطرابها بالأحياء اضطرابا قد تلعن بسببه السماء والمقدرات فى حال انه لا ذنب للسماء وانما الذنب ذنب اهل الارض وعلى هذا الحساب أنب الله اهل الارض بقوله فلولا كان من القرون قبلكم اولوا بقيه ينهون عن الفساد فى الارض وتلك البقيه هى التى جربت مواقع العدل والظلم واثرهما وانهى ذلك بقوله وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون : اى داعمه .

لأصلاح ولازم ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
 * (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون
 مختلفين : الا من رحم ربك لذلك خلقهم وتمت
 كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس
 اجمعين : وكلا نقص عليك من انباء الرسل
 ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق
 وموعظة وذكرى للمؤمنين : وقل للذين
 لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون
 : وانتظروا انا منتظرون : ولله غيب السموات
 والارض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه
 وما ربك بغافل عما تعملون) *

لو اراد الله من ناحية التكوين ان يقسر الناس اجمعين على الايمان
 كما قسر صورهم على الاشكال والالوان لفعل لكن ذلك يبطل التكليف اذ لا
 تكليف مع قسر ولما عرف الوفي لربه من الغدور والمحسن من المسيء
 والصالح من الفاسد ولما أرسل خناق الناس من ربة التكوين واوكل
 امر العقيدة الى اختيارهم تراهم مختلفين فيها بين يهودى ونصرانى
 ومجوسى وغير ذلك الا من رحمه الله بتوفيقه للدين الحق عند ما يتضرع
 اليه فى ذلك ويستجدى منه : انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى
 ولذلك خلقهم بجوزفيه ان يقال ولأن يرحمهم خلقهم او لنتائج التكليف
 خلقهم حتى يسعد العاقل سعادة لا يتصور لها حد : وتمت كلمة ربك
 اى ثبتت وتحققت بالنسبة الى مرتكبي الخطيئة بالاختيار عامد يــــن
 قاصدين من الجنة والناس ان مباءتهم جهنم لان نتيجة ارتكاب

الخطيئة مع الأختيار هو ذلك ونقص عليك من انباء الرسل كل قصص يتعلق بحياتهم التبليغية مع اقوامهم لنثبت به فؤادك ونزيدك به صبورا وحوصلة وجاءك في هذه السورة اوفى هذه الدنيا الحق من كتاب انزل عليك ونظام اوتيته وموعظة تعظ بها المنشمرين عن الجادة وتذكرة للمؤمنين بالله حتى يزداد ايمانهم ويقوى جنانهم ، وقل يانبي الأسلام لأولئك الذين تولوا عن الأيمان وادبروا عنه اعملوا كما تريدون مغرورين بجاهكم او مالكم ونحن نعمل كما اراد الواقع والضمير والوجدان منّا وننتظر بكم وبأنفسنا ما وعدكم و وعدنا الله به ، ولله اى ملكه واختصاصه غيب السموات والأرض اى ماغاب من الحواس وارتهنته زوايا الخبايا لا يشركه فى ذلك احد الا من اطلعه على زاوية منه بوحى او الهام واليه يرجع الأمر كله تكليفا وتكوينا فاعبده يا محمد وياكل مكلف وتوكل عليه وهذا الرب المعبود بحكم عالميته العامة واطلاعه بكل شىء وتجرده عن المادة ولوازمها ليس بغافل عما يعمل الانسان من خير وشر طاعه ومعصية من خطير او حقير .

ويقتنص من هذه الآيات ، عنوان (التكوين والتكليف والعبر) التكوين والأيجاد بمعنى واحد ومفادهما مايتعلق بأصل الخلقة مما لا دخل للمخلوق فيه لا مباشرة ولا تسببيا والتكليف هو الزام البالغ العاقل بما فيه سعاده ولو كان ثقيلاً على عاطفته فى اطار اختياره ليثاب فى آخرته فوق سعاده فى دنياه ويعاقب فى معاده مضافا الى ماجرالى نفسه من سوء فى هذه النشأة والعبرة هى اداة الأتعاض .

ولا تستطيع العقول ان تدرك انخلاق شىء لاعتن مبدأ نعم يجوز لها ان تؤمن بانخلاق الأشياء عن مبادء مجهولة هوياتها لكن مع مراعاة السنخية بين العلة والمعلول بمعنى ان كل صفة جذرية توجد

فى المعلول لأبد لها من منبع فى العلة تستقى منه مثلاً لا تستطيع العقول ان تؤمن بأن أصل الأنسان كان لآعن مبدأ وانه وجد لنفسه من غير علة وان استطاعت ان لا تنكر التحول لكن عدم نكران التحول لا يبرء علة فى مقام التجاهل بمبدأ المخلوق وهكذا لا تستطيع العقول ان تؤمن بان حياة الأنسان او علمه ناتجان عن نفس الأنسان من دون ان يكون لعلته الأولى منشأ لحياته وعلمه .

ثم ان التكوين فى العقائد والتكاليف غلط لان التكوين معناه قسر الخلقة على ما يريد ه القاسر والعقائد معناها ماجاء الى عقل الأنسان بالبحث والفحص والتسأل النفسى ومع الأغيار وعلى ما تقتضيه الملاكات العقلية المتسالم عليها وهكذا التكاليف معناها اراءة الطرق المستقيمة والمعوجة حتى يرى العاقل ماذا يختار وهل يقدم القبيح على الحسن والمعوج على المستقيم ومع الألجاء لا يكون شىء من ذلك فان مقام الأنسان لا يعرف بالتكوين كما لا تمتاز حالتا الجلد المدبوغ بين كونه جلدأ للقرآن عند من يؤمن به ونعلاً يداس بها العذرة .

واما العبر فهى اعظم واعظ ومسلى للأنسان فان الأنسان لا يتعظ برصف الألفاظ ومهما كانت وزينة مبرهنة الآريثما يسمعها بخلاف ماتراه عينه واختبر ذلك فى مقام التعليم على اللوحة وباللفظ المجرد وفرق جلى بين قولك ان الظلم يدع الدير بلاقع وبين اراءته بلاقع الدير وحطام الآثار .

ولو شاء ربك بالأرادة التكوينية لجعل الناس امة واحدة فى اشكالها وعقائدها وما يصدر عنها من اعمال وافعال ولكن لاحظ لعقولهم ولا لنفوسهم ولا لأبدانهم فى ذلك لأنها لم تسهم فى كد ولم تكدح فى عمل حتى تعرف قدر ما انتجت ولا شك انهم مع افلاتهم من

ريقة التكوين يكونون مختلفين فى العقائد والأعمال تبعاً لعيث الجهل بهم اولاً نشمار عقولهم عن جواد الخطأ الاّ من رحم ربك بأنّه اقبل على ربّه مستعينا فيسرّ له والآخرا د برعنه متكبرا فعسرّ عليه بعدم تيسير المطالب له فان التعسير على المدبر ليس فيه مؤنة بل هو نتيجة عدم الأقبال والأستمداد ، ولذا لك خلقهم ، اى وللرحمة بهم خلقهم ولكنهم هم الذين لا يريدون الرحمة ثم عرّج على نبيّه بأن قال له ان ما سردناه عليك فى سورة هود من قصص الأنبياء قبلك لنثبت به فؤادك على المحن التى تلاقيها فى طريق تبليغ الدعوة وهذا من باب اياك اعنى واسمعى يا جاره مما يستفيد منه كل ذكىّ دؤوب على الحق وتحقيق كل عمل مثمر بين مجتمع جاهل قد ضربته الشبهات من كل جانب تقصيرا منه فى حق نفسه .

* (سورة يوسف) *

مكية النزول وعدد آياتها مائة وحدى عشرة آية، وسوقها بعد سورة هود لاستعراض قصص بعض الانبياء حتى تتلون العبرة بلون القصة و يتنوع العلم بتنوع المعلوم و قصص القرآن كله انما سيقت من اجل هذا الغرض و الا فالقرآن ليس بقصاص لاجل تخدير الأعصاب .

* (بسم الله الرحمن الرحيم : الر تلك آيات الكتاب المبين : انّا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون : نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن و ان كنت من قبله لمن الغافلين) *

تلك اشارة الى ما يستعرض من فقرات هذه السورة و انما انزل القرآن عربيا لان اعصى و اعنى امة عاصرت نزوله هي امة العرب لاشتداد نخوتها و اغراقها فى الجهل بالنسبة الى غيرها لعلكم ايها المشركون العتاة تعقلون مضامينه حتى تعيروا حقائقه عيوننا ناظرة و اسماعا واعية و قلوبا غير مغلفة، نحن نقص، اى نتابع لان القصة معناها متابعه الواقع السابق منه وقوعا فالسابق، احسن القصص، بكونه صادقا له واقعها لا يرتجل و عن خيال كما هو شيمة القصة و القصصين، بما اوحينا اى ان قصصنا عليك انما هو من طريق احياء هذا القرآن لامن الخارج عنه ليكون اعتباره باعتبار القرآن نفسه من عامة نواحي اعتباره و اعجازه، وقد كنت من قبل قصصنا عليك لمن الغافلين عن هذا المقصود والغفلة كما يلقى على عدم التوجه الى الشئ يندلق على الجهل به ايضا لاشتراك

الحالتين في النتيجة زمن الغفلة ولا شك ان النبي لم يكن عنده اطلاع من هذه القضايا لا بنحو مجمل ولا مفصّل .

ومن هذه الآيات تقتنص هذه الزبدة (القصة في القرآن) القصة مأخوذة من قصّ الأثر و تتبعه للأستطلاع على ما ينتهى اليه و الوقوف عليه و القصة قرينه عمر البشر في التاريخ وهى على قسمين من حيث الخيال و الحقيقة و كلّ من القصتين يستعمل سلاحا للتعبير عن مقاصد جمّة .

(احدها) إلهاء النفس و استخفافها و جرّها الى صوب الخيال المحض العارى عن كل حقيقة الفاقد لكل خصوصية فقط قتل الوقت بالبطالة و الجهالة كما هو الرائج فى قصص العوام فى التوفاه ولو كان لها اصل فى الواقع ومن هنا كانت حياة العوام حياة قشور وفسطة .

(ثانيها) تهيج الغلظة و الشهوة بسرد صور للمعاشقة و المغازلة كما هو الرائج بين اهل الترف وقد توسعت الراد يوات و التلفزيونات بذلك حتى حملت الأطفال فضلا عن الكبار على الاستهتار و الفساد بصورة مخزية و اسراف ماحق و عموم لا طباق البشرية .

(ثالثها) اثاره الغضب و تربية الحقد و استنهاض روح الفتك و هذا ايضا رائج فى وسائل تبليغ اليوم و فاش فى القبائل و العشائر و سكنه البوادي و شريف هذه القصص شريف و سخيها سخي ف تبعا للموضوع المتحدث عنه فقد يتحدث عن عوالم الأباء الشهامة و الكرامه و وقوف الإنسان وراء عقيدته و عرضه و وطنه فذلك حسن و اخرى يتحدث عن عوالم التلصص و الشحذ و قطع الطرق فذلك باطل .

(رابعها) سوق القصة للتربية و التعليم فى الاخلاق العالیه و الآداب الراقية و هذا السياق تارة يكون ابداعا و اختراعا كما يقرأ

ذلك في كثير من قصص كليلة و دمنة و اخرى يكون تعبيراً عن حقيقة واقعية قد احتضنها العيان بممثلين هم قادة الأمم الى الصلاح والفلاح كما هو شعار القرآن في قصصه و الأحوال على ما هو متحقق واقع ادعى للعظة من الخيال المحض فان الممكن الواقع غير الممكن الذي لم يقع .

فقصص القرآن علوم اخلاقية جليلة لا تتحقق الحياة بدونها ولاغنى للأحياء عنها كما قال تعالى نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن فقارئ قصص القرآن محمّد كان ام غيره ينعم قلبه بالنور نور معرفة الحقيقة و كيف ناضل الأبرار عنها حتى ثبتوها في قلوب المؤمنين و شكّلوا لعشاق الحقيقة جبهة كان اولوا التيجان يخافون سطوتها على قوتهم في انفسهم .

و الحديث في القرآن عن الانبياء و نهضاتهم ليس حديثاً عن فاتحين عظام سخر كلّ منهم دوره و زمانه بسوق الجيوش و اراقة الدماء و تخريب العامر لهيضة نفسية فقط كما فعل جنكيز و تيمور و هتلر ولينين فان عدم ذلك خير من وجوده بل ولاقياس وما اعطى الناس روحياتهم الانسانية الا حين وقفوا على هذه المجازر المغيظة المبيدة المسرفة في السوء و الشقاء ، وانما هو الحديث عن القناعة و المناعة و الشجاعة في قبال من يريد وجود الانسان و حقوقه المشروعة بسوء و الأحسان و المواساة و حذب القوى على الضعيف والغنى على الفقير والمعافى على المبتلى وقد اثرت هذه التعاليم على اهلها بما حورهم و طورهم الى ملائكة بخلاف الروحية القائمة في الفاتحين و زملائهم تلك الروحية التي خلقت من امرائهم امثال مسرف بن عقبة و الحجاج بن يوسف و يوسف ابن عمر من كل مهتوك الى حدود لا توصف ولقد شهد جملة ممّن ادرك دور محمد ما كان يفعله معاوية و زياد و يزيد و ابن زياد و الحجاج

فخفت انفاسه من شديد الغيظ القائم في روحه حيث يرى صدر عمره في احضان المعالي والشرف والحياة الصحيحة و يرى آخر عمره في انعكاس دور و اشقاه .

هذا و الحروف المقطعة توجيهه للانظار بان هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف الهجائية الرائجة ومع ذلك فقد اعجز الناس عن أن يأتوا بسورة من مثله و تلك اسم اشارة لما استعرضه سبحانه في هذه السورة من آيات و انما وصف الكتاب بالبيان ليشعر أن جملة من اولئك المرموزين الذين يحاولون تعمية المطالب على الناس لا يأتون بحججهم واضحة لأنهم تنهت استارهم و اسرارهم بذلك اذ ليس في عياهم اقل ثم و انما مدح القرآن بأنه انزل على لغة العرب لعدة نواحي منها انها لغة بها تظهر موازين الفصاحة و البلاغة و تتجلى معايير اللسان كما انها هي اوقر اللغات و اثراها بالمعاني و الالفاظ و لأجل اقناع اشد و اعنى الناس و اجهلهم اختص من بين اللغات بهذه اللغة حتى لا يبقى لهم عذر وحتى لا يقولوا لا نتعقله .

* (اذ قال يوسف لأبيه يا ابت انى رأيت احد عشر
 كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لى ساجدين :
 قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا
 لك كيذا ان الشيطان للانسان عدو مبين :
 و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل
 الأحاديث و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب
 كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق
 ان ربك عليم حكيم) *

اذ ظرف زمان ماضى متعلق اما بقوله لمن الغافلين اذ قال يوسف
 او بفعل محذوف تقديره اذ ذكر و تتميز رأيت البصرية عن المنامية بمصدرها
 فان مصدر الأولى رؤية و مصدر الثانية رؤيا ورأيت فى الآية من قبيل
 الثانى لا الأول و عالم الرؤيا من عوالم الخلق العجيبة وهى قد تكون
 شبيه الهذرو الهذيان فى الكلام وقد تكون واقعية ومن هذا القبيل
 رؤيا يوسف و الأحد عشر كوكبا كناية عن اخوته الأحد عشر و الشمس
 و القمر كناية عن ابويه و انما جاء بضمير جمع الذكور العقلاء حيث قال
 رأيتهم لان وصفهم بالسجود يتقاضى منه ان يعبر عنهم كما يعبر عن
 الساجدين وهم لا يكونون فى الحقيقة الآمن زمرة العاقلين ، لم يكن
 يوسف يدرك حين رؤياه معناها ولكن اباه ادرك ذلك وفهم من الرؤيا
 معانيها العظيمة التى يتحلّى بها يوسف فيما بعد، واشفاقاً عليه نهاه
 ان يقص رؤياه على احد خصوصا اخوته فان القريب اشد حسداً لقريبه
 من البعيد، فيكيدوا اى فمن الآن يسعون لك سعياً مراً، ان الشيطان
 للانسان عدو مبين و هذه فرصة يجدها فيحرك اخوتك عليك من اجلها،

و كما اراك سبحانه هذه الرؤيا فانه يجتبيك و يختارك خاصة له و يعلمك من تأويل الأحاديث بما تكون به امام الناس كلهم فى هذا الشأن ويتم نعمته بالنبوة و الملك عليك و على من يختاره من آل يعقوب كما اتم نعمته بالنبوة على ابويك من قبل ابراهيم و من بعده اسحاق بن ابراهيم ان الله عليم حيث يضع رسالته حكيم فى كل ما يفعل و يقول .

و يقتنص من هذه الآيات عنوان (الرؤيا و الحسد) الرؤيا مصدر رأى فى النوم و الرؤية مصدر رأى البصرية ولا شك ان الانسان فى غيبوبة حواسه بالنوم احيانا تعرض له صور يحصل بعضها نتيجة لاستعراض ذلك فى اليقظة وبعضها يدل من نفسه على نفسه انه تخييل و وهم و جملة منه يستدل به على انه تكهرب بالواقع ولا دليل عليه الا اشعاع الروح وذلك من الأدلة على وجود الروح المجردة فى الأنسان فانها بخفوت الحواس يظهر لها تلؤلؤ و امتياز عن المادة ولولا الاعتراف بذلك لما كان لهذه الصورة المستعرضة فى النوم مدرك بالمرّة و الرؤيا الصادقة تحصل بكثرة و بعضها يفيد علما عجيبا هذا من الوجهة الوجدانية واما من ناحية الآثار الشرعية فقد ورد فيها انها نوع خاس من الوحي و صيغة من صيغ الألهام و من جملة ذلك ما عرض ليوسف فى بداية امره ما يكون له فى خواتيمه فان الفاصلة بين زمن رؤياه و تحقيق مسأها طويلة جدا كما تقرؤها فى غضون السورة .

و اما الحسد فهو من احسن الصفات فى قسم البشر و معناه تمنى زوال النعمة عن الغير من غير جرم اتاه ولا مزاحمة منه على الأغيار وربما طحى الحسد بصاحبه الى أن يغفل حتى عن نفسه و يلهى بالأطاحة بصاحب النعمة و يصرف فى ذلك كل مجهود و من هنا امر العقلاء بالتكتم لصاحب الفضل حتى لا يتورط فى المهاوى لكن ما يصنع الانسان

بالفضل الطامح وكم فعل الحسد من افعال قدرة وشوش اوضاعا منظمة و اثار الغبرة امام الأعظم ولا يَزَم بالحسد عن الانسان الا الرياضة الصادقة وهى الطبابة النفسية و المعالجة الروحية التى بها يرتقى الانسان من حضيض الجهل الى علياء الفضل وما اخرّ علياً عن مقامه الا اشتعال حسد الأغيار وباقى الصفات الذميمة فيهم امامه و رياضته لنفسه عن مقابلة الخلق الرذيل بالخلق الرذيل مثله ولولا على وامثال على لما كان للبشرية مصداق يتمثل به و اعظم مقلص لظلال الحق هم افراد الخلق الذين لا يزالون يتضورون من الباطل حتى اذا جاءهم الحق بارزوه طبق المثل اريد حياته و يريد قتلى .

و هذا دا٤ الحسد القدر هو الذى نغصّ حياة يوسف فى اطايب سنّى عمره و آلم قلب ابويه سنين طوالا و الذى تشعر به الآية ان يوسف لم يكن ليفهم معنى من رؤياه و انه ما هو المقصود بالأحد عشر كوكبا و بالشمس و القمر ولكن اباه لنضوج عقله و تبريك الله عليه فهم ان المراد بالأحد عشر كوكبا هم اخوته و بالشمس و القمر ابواه و شعر من هذه الرؤيا ان هذا الوليد سوف يكون له شأ و فى الفور حذر عليه من اخوته ان يأخذ بهم الحسد لحوك الد سائس له فيعكروا عليه طرق حياتـه و الكيد هو اعمال الغوائل و المراد بالشیطان رمز الخطيئة وهو كل قدر و دنس روحى .

* (لقد كان في يوسف و اخوته آيات للسائلين : اذ قالوا ليوسف و اخوه احبّ الى ابينا منّا و نحن عصبه ان ابانا لفي ضلال مبين : اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا يخل لكم وجه اببيكم و تكونوا من بعده قوما صالحين : قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف و ألقوه في غيابت الجبّ يلتقطه بعض السيّارة ان كنتم فاعلين) *

الآيات هنا هي العبر و العظات يعنى ان من يقف على هذه الحوادث من مبتدئها الى مختتمها يقف على غرائب تفتح له عقلا و تعطيه شعورا و تخطط له مخططا ينتهجه في حياته ليسلم في كثير من المواقف و مبتدئ القصة ان يوسف و بنيامين من اولاد يعقوب الا صغر في السنّ و كان في يوسف جمال و كمال باهران فكان ابوه يحنو عليه اكثر من غيره فأخذت الغيرة اخوته الباقيين فقالوا ليوسف و أخوه بنيامين شقيقه احبّ الى ابينا منّا و نحن اولاد هـ - فضلا عن يوسف و اخيه - عصبه من الرجال بنا يعتصم و ينتقم ان ابانا في تقريبه لهذين الولدين اكثر من عندنا و نحن لحاجته و خدمة بيته و لزرعه و زرعه فهو اذا في متاهة من هذه الناحية ولا يريدون بضلالة ضلاله عن الدين و انه لادين له فكان قائل منهم قال ماذا نفعل حتى نبطل في ابينا هذه الخاصية فقال جملة منهم اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا جردا^٤ فانه يتلف فيها و اذا فعلتم ذلك خلى لكم وجه اببيكم و من بعد ايقاعكم به تتوبون الى الله و التوبة تمحو اثر السيئة فتكونون قوما صالحين ولا شك ان هذا المنطق غلط وليست كل توبة ممّا تقبل ولما تصور بعض منهم القتل

و بشاعته انكر عليهم هذا الرأى وقال لا تقتلوا يوسف و القوه فى غيابت
الجبّ و الفرق بين الجب و الارض الغلاة ان الصحارى مظنة للتلف
بسرعة لما يكثر فيها من الوحوش و يفقد فيها الماء و الكلاء و المارة أما
الجبّ فانها حاجة ضرورية للناس يومذاك يقصدونها للورود منها و بعد
فهى مأمونه من السباع و حدّ الأقل فيها ماء متى عطش شرب و ليس
فيها هواء سأم كالصحراء بل ظلّها ظليل و ماؤها بارد و منتابها كثير
فيأخذه احد المارة و يذهب به ، و السيارات هى القوافل و الطعمون
التي تجتاز السبل .

و يتصيد من هذه الآيات عنوان (المنطق الغلط و تبعاته) لاشك
ان منشأ الغلط فى الرأى امران كما ان منشأ الصحة فيه امران ايضا فأما
منشأ الغلط فيه فهما التفكير السطحى و اتباع الميول ، مثلا فى مورد
قصتنا يرى الأخوة العشرة ان حبّ يعقوب ليوسف و اخيه بمنزلة الراعى
و الغنم و صاحب المال و المال فمتى تمكن الانسان من تعويق الراعى
عن غنمه و صاحب المال عن ماله فقد تمكن من الغنم و من المال وهو عين
الغلط فان الحبّ أما مطلب ذوقى او ناشئ عن رصيد واقعى لكون
المحبوب فاضلا خيرا ثبتا فأبعاد المحبوب عن المحب بأية و سيلة تفرض
مما يزيد فى الغيظ على المباشر للأبعاد و المسبب له لا أنه يكون مقربا
فهذا هو الغلط فى التفكير و أما اتباع الميل فالغلط فيه هنا ان هواء
الأخوة لو كانوا من هواة تحقيق رغباتهم لتظاهروا بالمحبة ليوسف حتى
يتمكنوا من احراز محبته لهم و محبة ابيهم لهم ايضا لكنهم لسوء تدبيرهم
ابعدوا الطرفين عنهم و بقيت حياتهم قلقة ازمانا طوالا .

و أما منشأ الصحة فهما التفكير الجذرى و اتباع الميل المتأصل
فالانسان العاقل قبل ان يحبّ احدا و يبغض آخر يجب عليه ان

يستعرض الفرد فان وجد فيه مؤهلات المحبة احبه لكونه فاضلا خيِّرا ينطوى على روح سليمة وان وجد فيه ما يجلب التنفر لكونه خبيثا فاسقا شريرا مقته و ابغضه فيكون حبه و بغضه عن داع حقيقى واقعى و ميله متأصل مرگزر .

و قد جاء فى الشرع الاسلامى كراهة اظهار التفضيل فى الماديات بين الاولاد حذراً من ايقاع الطرفين فيما لا تحمد عقباه نعم التفضيل فى المعنويات ضرورى حذراً من بخس الفاضل فضله و ايقاع المقارنه بينه و بين الجاهل و كل من تقدم الجاهل و ايقاع المقارنه بينه و بين الفاضل فيه مؤاخذات جمّة يسقط لها المجتمع ولا يقوم كما حصل ذلك بكثرة و انهيار المجامع تابع لذلك فى الأعم الأغلب .

* (قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و انا له

لناصحون : أرسله معنا غدا يرتع و يلعب و انا

له لحافظون) *

كلمة ما لك تستعمل نوعا فى مقام الأستغراب و التعجب لان يعقوب لما سمع من ابنه يوسف قصته فى رؤياه و علم بتبرم اخوته منه بغياً و حسداً صار ظنينا به و متهما لاختوته عليه ، و انا له لناصحون اى صادقون فى المحافظة عليه ، أرسله معنا غدا يرتع اى يتناول ما يطيب له من نبات الأرض و يلعب اى يمرح فى مراتعها الخضراء و انا بكثرتنا و تفرقتنا حواليه حافظون له ممن يريد به بسوء قيل و كان يوسف حينذاك ابن سبع سنين و جمع بينه و بين ابيه وهو ابن اربعين سنة لكن لضمان له هذه النقول ، و هنا يأتى عنوان ما هو الميزان فى معاشرۃ الناس .

فنقول كل شىء فى العالم له مفهوم وله مصداق و المراد بالمفهوم

ما يستعرضه الانسان بذهنه و يفهمه و بالمصداق ما يكشفه العيان و يحتضنه الخارج و المطالب التى تكون منشأ اثره فى الامور الخارجيه فان اثر الذهنيات ضعيف و الاثر للخارج مثلا الانسان فى باكورة عمره باعتبارها نيا فى كل اشياءه ربما يطيل التفكير فى ترتيب امور على الموازين الطبيعيه العلميه فيرى نفسه من طريق هذه الترتيبات قد وصل الى اوج عال و منتهى غاية السعادة و هذا الترتيب الخيالى يلذ له لدرجة قصوى و يصيره عظيم الأمل فى المستقبل فيشرح و ينسبط ثم يأخذ فى تطبيق خريطته الذهنيه فبعد ما زوى لتحصيل مدرك الثانويه ست سنين اذابه فى الخارج يمرض سنة مثلا و يعرض له موت ابيه او امه فيقعده ذلك زمانا و تصدف لسير دراسته اعتصابات و اختلافات فى المدرسه و نظير ذلك فيرى السنه سنين قد صارت ثمانية او تسعة و اذا بخريطته تلك مع اصراره على تطبيقها لم ينطبق منها الا القليل المنزور و تراه على هذه الفواصل و الصدف كم يصادق انسانا فينقلب عليه عدواً و كم يظن ظنا فيخلفه ظنه اذا فلذة المفاهيم لذة مؤقتة و الوجود الخارجى فى كثير من مجاريه قد يخفق و العاقل بعد تخطيه على تجريبه او تجربتين او اكثر لا يعود مغرورا بخياله ولا بخرائطه التى ينقشها اذ لا ملاك لذلك كله كما انه ليس باستطاعته علميا ان يعتقد بما قال الشاعر :

دع المقادير تجرى فى اعنتها ولا تبينن الا خالى البال

لان ذلك اهمال و تسييب بل من وظيفته ان يرد الحياة على نظام علمى مع تهيب للحوادث يثنيه عن غروره بما زوى لنفسه و لكن لا يقعد به عن السعى و اصولا التيقظ و اخذ الحذر من كل شىء شرط اساسى فى تحصيل العلم و الحياة بلا أن يصل الى حدود الأسراف و الوسوسة

و التشكيك ولازم ذلك ان الانسان اذا اراد ان يقطع حياته براحة
نسبية و قلق منخفض كان من واجبه ان يساير الحياة فى ضميره و ظاهره
مسايرة مأخوذا فيها الحزم و التدبير و اليقظة سواء فى ذلك اهله
و الاجانب عنه بلا أن يبذو على لسانه او ملامح وجهه و حركات بدنه
اقل تنفر من الطرف حتى لا ينفر الناس عنه ولا يقع هو فى شباك غد رهم
و حيلهم ومن ذلك مورد الآية التى ورد فى صدرها ان قالوا لىوسف
و اخوه احبّ الى ابينا منا و نحن عصبة ان ابانا لى ضلال مبين اقتلوا
يوسف او اطرحوه و هذا الحديث الذى تحدثوه فيما بينهم لم يصل الى
يعقوب حتى يتنفر منهم بالنسبة الى ولده يوسف و لكن يعقوب أحسّ
بخطر حسد هم عليه منذ ان قال له ابنه يوسف يا ابت انى رأيت احد
عشر كوكبا و الذى يبطن سوء على احد ربّما يتخيل له ان ملامحه تبدى
ما فى جوفه و على الاساس هذا قالوا لأبيهم يا ابانا ما لك لا تأمنا
على يوسف و اتنا له لناصحون و هذه الكلمة لم تقلع اثر الحذر فى قلب
يعقوب عنهم و لكنه تساهل حين أجاز لهم ان يأخذوه معهم .

* (قال انى ليحزننى ان تذهبوا به و أخاف ان يأكله الذئب و انتم عنه غافلون : قالوا لئن اكله الذئب و نحن عصبه انا اذا لخاسرون : فلما ذهبوا به و اجمعوا ان يجعلوه فى غيابت الجبّ و اوحينا اليه لتنبأّتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون : و جاؤا اباهم عشاء يبكون : قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب و ما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين : و جاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سؤلت لكم انفسكم امرا فصبر جميل و اللّٰه المستعان على ما تصفون) *

فقال يعقوب لأولاده اجد فى نفسى انقباضا حين اعطيكموه لتذسبوا به و اخاف ان يفترسه ذئب من هذه الذئاب الضارية المنتشرة فى الصحراء و انتم لاهون عنه بشأنكم ولا ريب ان تلك الازمنة تكثر فيها الوحوش لقلّة المقاومة من الناس قالوا لئن اكله الذئب من بيننا و نحن عصبه من الرجال و جماعة من الشبان انا اذا لخاسرون لا لأخينا فقط بل لأموالنا و انفسنا ايضا فان المجترئين لا يهابوننا بعد ذاك فلما ذهبوا به من ابيه و خرجوا به الى الصحراء بدت منهم البغضاء فأخذوا يضربونه و يؤذونه شيمة كل حاقد و اجمع رأيهم ان يجعلوه فى غيابة الجبّ هنالك ارتكبوا الخطيئة الكبرى فأدنوه من حافة البئر بالضرب و اللدم وهو يستغيث بهم ولا يغاث و شدوا فى وسطه حبلا و انتزعوا قميصه منه و ارسلوه الى وسط البئر و القوه بعد ذلك بلا رحمة و جاءت

النوبة الى عناية الله به وحفظه من الموت واستقر على صخرة صادفها في قعر البئر وربط الله على قلبه وغذاه بالتكوين ما حفظ به وجوده فلم يشك جوعاً مبرحاً ولا عطشاً وفي تلك الحالة أوحينا اليه بمجمل ما يجري عليه وانه في نهاية المطاف سيكون ملكاً ويكون هو لاء الاخوة في حاجة اليه فيقصدونه على جهل منهم به أنه هو فيحصل ما يحصل بما سيجيء بيانه .

ولما فعلوا فعلتهم وانسلخ النهار وكان لا بدّ لهم من العودة الى ابيهم جاؤا اباهم عشاءً ليكون ليكون بكاؤهم امارة صدقهم فيما يدعونه من اكل الذئب له ، قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأحسّ به ذئب فقصدته لأنه وجدته مفرداً ناشئاً اعزل فافترسه واكله ووجه هذا الاعتذار لقفوه من ابيهم عندما قال لهم و اخاف ان يأكله الذئب فصرّوا تلك الكلمة لموقع المحاكمة ومن هنا جاء حرمة تلقين القاضى للخصوم حججهم بما هو عارف وهم جاهلون ، نقول هذا القول مع علمنا بأنك لا تقبل منا لا تهامك لنا حتى لو كنّا صادقين فى الواقع لكن الصدق عنهم بمراحل فقد جاؤا بقميصه سالماً من التمزيق وعليه لطخات دم متفرقة تشعر بانها مصنوعة ولذلك قال لهم ابوهم بعد ما نشر قميص يوسف فرآه سالماً يا بنى و الله ما عهدت كالسيوم ذئباً احلم من هذا الذئب اكل ابني ولم يمزق قميصه و جاء فى بعض الآثار ان يعقوب لما قال لهم ذلك قالوا لا بل قتله اللصوص فقال لهم هذا اسوأ من ذلك كيف يقتله اللصوص و يتركون قميصه وهم الى قميصه احوج منهم الى قتله اذاً لا هذا ولا ذاك بل سوّلت لكم انفسكم قتل اخيكم فصبر على المصيبة أجمل من الجزع عندها ، و نستعين بالله على ما تصفون من قتل هذا العزيز عند هذه الكلمات تظهر كياسة هذا الشيخ و متانته ومكث يوسف

فى الجبّ ثلاثة ايام، وهنا يجىء البحث عن عنوان، ماذا تصنع الرذيلة:

فنقول يراد من الرذائل ما يوجب السقوط و الامتهان و تنزّل
الدرجة و يراد من الفضيلة ما هو نقيض ذلك اى ما يوجب الرفعة والعزة
و سمو المرتبة مثلاً لا شك ان المتطفل فى دخوله على الناس و على
موادهم محتقر لد يهم ذليل عندهم ولا تراه الا متملقاً خاضعاً بحكم
تطفله ولا شك ان المدعو الذى أصرّ على قبوله الدعوة حتى رضى بعد
الاصرار و الألتماس تراه فى دخوله على الداعى عزيزاً مجللاً ينظر اليه
بنظر الأحتشام و لا تراه الاً على الرأس عزيزاً عندهم اكثر من عزته على
اهله ومن هنا كان التطفل رذيلة و الاعتزاز بالنفس فضيلة و هذا مثال
من عشرات الأمثلة، و الرذيلة بالنسبة الى الانسان كالعدم حيث
لا يحتاج العدم الى علّة و الفضيلة بالنسبة اليه كالوجود و الوجود غير
معقول بلا علّة يعنى ان الانسان اذا ترك لنفسه و أهمل صار رذلاً لان
رغبات نفسه و شهواتها تدنيه من العيوب كلها فتراه كاذباً ولو عن غير
داع معقول زناً ان تهيأ له ذلك لصا غشوشاً مكّاراً مدلساً الى ماشئت
ان تعدّ و يستوى فى ذلك كل جاهل بعلوم النفس و الأخلاق و حتى لو
كان علامة فى علوم الطبيعة واما اذا رضى وادّب بأدب الدين و الاخلاق
الصحيحة صار عزيزاً منيعاً حتى لو كان فقيراً فاقداً لعنوان الدنيا وحتى
لو كان صفراً من علوم الصنائع و الطبايع، و الاهمال قد يكون من الأهل
وقد يكون من المحيط وقد يأتيه من غلط التفكير و الأدب كذالك قد يكون
من اهل الانسان وقد يكون من محيطه وقد يكون من حسن التفكير
و التوجه الى النفس وكل هذه الترديدات فى الرذائل و الفضائل ممّا
لها مصاديق جمّة فى كل الأدوار و ابناء يعقوب من الرديف الذى تردّد
رذائله بين المحيط و بين غلط التفكير و يُصانُ الأهلُ عنها لأن أباهم

نبيّ يحرص على تهذيب الناس فكيف لا يحرص على تهذيب اولاده ومن هنا جنّوا على انفسهم وعلى اخيهم و ابيهم هذه الجنايات المستشرية التي طالت قرابة اربعين سنة و كلّ الرذائل هكذا تكون نتائجها و بالمناقضة التامة تكون نتيجة الفضائل .

* (و جاءت سيّارة فارسلوا و اردهم فأدلى دلوه

قال يا بشرى هذا غلام و اسروه بضاعة و اللّٰه

عليم بما يعملون : و شروه بثمان بخس دراهم

معدودة و كانوا فيه من الزاهدين) *

و السيّارة هي القافلة تجيء على رسلها لأغراضها الشخصيّة فترسل و اردها ليأتي لها بماء فأدلى دلوه في البئر التي فيها يوسف فتعلق يوسف بالحبل فلما اجتذبه الوارد و جده ثقيلًا فالتفت فاذا شاب نظيف قد تعلّق بحبله فقال الوارد لجماعته الذين معه يا قوم بشرى لكم هذا غلام و اختفوا به عن الباقيين حتى لا يشاركوهم فيه وقالوا نبيعه و نتخذ ثمنه بضاعة لنا نشترى بها ما يمونا ولكنهم حذروا ان يكون له صاحب قريب فينتزعه منهم فباعوه بثمان لا يتكافأ مع شبابه و كماله دراهم معدودة و كلمة معدودة تشعر بالقلّة الواضحة و كانوا فيه من الزاهدين السائمين له بأقلّ قيمة، وهنا يأتي بحث بعنوان (الطمع و حب الأثرة في المجتمع) .

فنقول يقال الطمع على حبّ التكثر من الشيء بما يزيد على التكافؤ مع الحاجة و الأثرة هي الاختصاص بالشيء و طرد الباقيين عنه و اثرهما على نفس الطامع و المستأثر و على الباقيين سيّء جدا و باعث للتفاوت الطبقاتي و خلق الرقابات و ايجاد المنافسات و باعث العداوات بالبيان

التالى :

كل انسان بما يجده من نفسه و يحسّه من شخصه يعرف مبلغ حاجته و ان القرص يكفيه لمطعومه أولاً و غرفة الماء ترويه أولاً و البيت ذا المائة متر بحجرتين و مرافقها يكفيه اولاً و الثوب او الثوبين فى هذا الفصل يكفيه أولاً و على هذا المنوال لان استدعاء الحاجة من صميم الانسان الملموس للانسان نفسه بحسب المكان و الزمان طافح لأحاسسه وهو يعلم ان فيه بلغة له و ان الزائد عليه ليس باستطاعة وجوده ان يهضمه فلا يستطيع ادخال قرصين على بطنه لضيق ظرفه عنها ولا شرب غرفتين ولا لبس ثوبين بحسب الفصل الذى يلابسه فسعيه اذاً لتحصيل الزائد اما مبعوث عن الشره و التهمة واما مراعاة لسوء الظن بالمستقبل و انه قد لا يتوفر له يومذاك ما هو بحاجته فى ظرفه المفروض اذا لم يسع له اليوم اما الشره و النهمة فشيمة الوحوش و يجلّ عنهما العقل و العاقل و اما مراعاة المستقبل فهى لحدّ موزون صحيحة و ما زاد عليها فيه عيبان و ضرران إتعاب الجسم و الفكر من ناحية و مزاحمة الأغيار من ناحية ثانية اولئك الذين لهم نفس الحاجة بهذا الشئ و الذى يريد الطامع ان يحويه لنفسه مكرراً و مضاعفا وهم يريدونه لحاجتهم البدائية كالعطار يقتنى مع عطوره وسائل النجارة و البزازة لزعمه ان بيع العطور انما يقوم بواجب يومه و يريد النجارة و البزازة لحاجة مستقبله مراعاة لسوء الظن بالمستقبل فيزاحم بذلك النجار و البزاز اللذين يعيشان على مفرد النجارة و البزازة بل و يسعى السعى كله لتحويل دخلهما اليه بالرقابة الشديدة لهما .

و اما حبّ الأثرة فهو اخسّ من الطمع البسيط بكثير لان الأثرة معناها أنّك تقدّم نفسك على غيرك أعّمّ من ان يكون ذلك الغير قريباً

ام بعيدا و هذا الخلق من لوازمه قطيعة الرحم و جفاء النوع بالمرّة
ولأجل تبرير رذيلته يتشبت بكل عذر باطل مزعوم .

إذا فالميزان العلمى يقضى بحرمة الطمع و يُحظر الأثرة أما ابقاء
على نفس الطامع و المستأثر حتى لا يهلك فى هذا البحر المظلم و أما
تحسينا للمجتمع ان لا تصيبه دواهى الأنهيار من جرّائهما و أما حياطة
للطرفين كما كان المتخلقون بأخلاق الله الرافضون لأنفسهم يفعلون
من الأكتفاء بالحقّ و عدم التجاوز عنه و لكن اذا كانت هذه المدرسة
قليلة الرواد و المشتاقين و المدارس الأخرى كثيرة الاتباع لم يكد علم
النفس و الاخلاق بافراده القلائل يكون مانعا من الانهيار كما هو حاصل
بالفعل سواء فى ذلك المتوحش و المتمدن بالتمدن الحديث .

فالسيرة التى مرّت بهاته الأكناف قد تحقّق فيها عاملاً الطمع وحبّ
الأثرة بما ادّى بها الى فقدان نتائج الطمع و الأستئثار و ذلك ان
وارد يهيم ارادوا الاختصاص بهذه اللقطة عن جماعتهم و المنطقة صحراء
لأكيمين فيها حتى يستروا اللقطة فيها ريثما تسير جماعتهم فيعرضونها
على الاسواق و يبيعونها بيعاً مرتاحاً ان لم يأت بقيمتها السوقية فحدّ
الأقل بما يقاربها لذلك صفقوا على يد من انقدهم دراهم معدودة ربما
لا تساوى عشر قيمته بل الأدون منها فنتائج التخلف عن علم النفس
و الأخلاق فى هذه الواقعة هى :

(١) أنّهم لم يعرفوا بهذه اللقطة و من وظيفتهم الخلقية التعريف

بها .

(٢) أنّهم لم يحفظوها علماً يظهر لها اهل و طبعاً يجيزونهم

عليها .

(٣) ان بعضهم خان البعض فى التستر عليه .

(٤) انهم لم يوفوا المتاع حقه بل ألقوا به وزهدهم في أمثاله
يقودهم الى الزهد بكل حقيقة تصادفهم في حياتهم اذا احتفّ بها
ما يدعو الى التجاهل في حقها .

* (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته اكرمي مثواه

عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وكذلك مكّنا

ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث

والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون

: ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك

نجزي المحسنين *)

بيع يوسف في سوق النخّاسين بمصر وكان الذي اشتراه خازن
فرعون مصر وكان يلقّب بالعزیز وامرّته راعيل و لقبها زليخا فقال العزیز
لزليخا اكرمي مثوى هذا الغلام فانه تلوح عليه آثار النجابة و آبهة
الأصالة عسى ان ينفعنا في حياتنا أو نتبّاه فنتخذه ولدا فأنه كما قيل
لم يكن عنده ولد ، وكما انعمنا على يوسف بالسلامة من كيد اعدائه به
واوصلناه الى هذا المحل فأننا جعلناه متمكنا من ان يطوى مراحل
مستقبله طياً شريفاً له كيانه ومقامه واضفنا ذلك بان جعلناه راسخاً في
تعبير الرؤيا وهو من الأسباب التي شادت بمقامه في الوسط الذي
يعيش فيه ، والله غالب على امر يوسف لا الأغيار الذين يحكون له
الدسائس للأيقاع به ، بلوغ الأشدّ هو البلوغ الطبيعي الذي تصل فيه
أجهزته الانسان الى منتهى نموها باستثناء العلم فان بلوغ أشده في
الانسان قد يتأخر تأخراً محسوساً لان التجارب ومزاولة الامور لها اثر
فعال في البنية العلمية والحكم هو اصابة محرّز الحقيقة والعلم هو

الدرية على تفهم المطالب و بمثل هذا الجزاء الذى جزيناه يوسف على صبره و مظلوميته نجزي كل محسن الى نفسه و الى الناس .
 و هنا يأتى البحث عن عنوان (تنازع البقاء و انتخاب الأصلح)
 فنقول :

تصوير تنازع البقاء بطور جاهر هو ارادة احد الجائعين الفاقدين لكل شىء يسدّ الرمق سوى لحوم انفسهما الفتك بالآخر ليحيى و ابقاء الآخر عليه كما حدث ذلك فى واقعة الزنج اذاً فمسأله تنازع البقاء فى البشر قيلت على التوسع فان اغلب تنازع الافراد على الشهوات و تأمين الميول لا على البقاء و الفناء نعم هى فى الحيوان على الاغلب كذلك و مسألة تنازع البقاء لا تلتئم مع الدين فان مقررات الدين تمنع ممن التنازع مثلاً قرر الدين على الزوج حقوقاً خاصة للزوجة وهى القيام بواجبها الحيوى من كل شىء و حسن المعاشرة (امسك بمعروف) و قرر عليها ان تمكنه من نفسها و لا تريبه من نفسها ما يغيظه فاذا قام الطرفان بواجب هذه الحقوق طبّقاً لعقيدتهما فلا نزاع فى البين (و ليست مسألة تنازع البقاء فى نظر اهلها مختصة بالحيوانات العجم) نعم مسألة تنازع البقاء تكون حيث لا دين فى البين او هناك عقيدة و لكنها جوفاء تقال باللسان و لا يعمل بها و هذا الأصل الرئيسى الذى بنى عليه الملاحدة اساساً و بناءً عقيدتهم ليس كما يتوخونه فانهم يريدون منه نتيجته وهى انه يثمر انتخاب الأصلح فى حال انه لا نتيجة لان ممن لازم تنازع البقاء و انتخاب الأصلح ان القوى الجامع لشرائط البقاء يحذف الضعيف الناقص و يطرده بأن لا يجعل له مجالاً حتى يندثر فلا تكون له بقية فى حال ان الضعف و النقصان و الانهيار و التبلبل مآسى الخلق من مبتدئها و حتى اليوم و سيبقى ابداً ، هذا فى المجال

الطبيعى للبنى و الخِلقَة وَاَمَّا فى مجال الرأى و تبنى العقيدة و المبادئ و الصفات و الاخلاق فهو يطّفق مرّة و يرسب اخرى تبعاً للهـداه النفسيين و جوداً و عدماً كما رأته الجوامع فى المثاليين و اللآ اباليين و من المصاديق المخطّاة لهذه القاعدة قضية يوسف و اخوته فانها لاشك فى تنازع البقاء فيها فان الاخوه العشره انما فعلوا بيوسف ما فعلوه ليخلو لهم وجه ابيهم و مع ذلك انقلب الدور عليهم فلم يخل لهم وجه ابيهم بل قضى عمره حزينا كئيبا و الذى يزعمهم قضوا عليه صار لهم من طريق مثاليته سبب رحمة فى الدنيا و عفى عن جرائمهم و عفوه مؤثر اخلاقا و شرعا ولم يبق عليهم الا الحق العمومى وهو ارتكابهم لهذه الخطيئات، و عصاره هذا البحث تتلخص فى نكات :

- (١) تنازع البقاء على نحو الحقيقة و بصورة جاهرة فى الانسان قليل و فى الحيوان كثير .
- (٢) تنازع البقاء فى البشرية اغلبه على الميول و الشهوات و متطلبات النفس .
- (٣) تنازع البقاء لا يكون مع العقيدة الراسخة بالدين القويم .
- (٤) تنازع البقاء لا ينتج انتخاب الأصل لافى الخِلقَة و لافى الصفة لعقمها .
- (٥) تنازع البقاء فى قضية يوسف و اخوته تعود الى الميول من ناحية و لم تنتج من ناحية ثانية كما قرأت .

* (و راودته التي هو في بيتها عن نفسه و غلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله أنه ربي أحسن مثواي أنه لا يفلح الظالمون : ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء أنه من عبادنا المخلصين) *

المرادة تكرار الطلب مأخوذة من المُرود الذي يكرر على العين حتى يثبت ويعم الكحل جميعها و هيت لك كلمة استدعاء و معاذ الله مصدر انتصب بفعله أي اعوذ بالله و الود به و اتحصن به منك، لما وقفت زليخا بأمعان على جماله و كماله و شبابه هاجت بها غلقة النساء واشتدت حتى اخذت تطلب من يوسف مواقععتها المرة بعد الأخرى وفي النهاية غلقت عليه ابواب المنزل و البيت لتمنعه من الفرار و تتستر عن الأغيار و قالت هيت لك فقال هذا ما لا يمكن أن صاحب البيت احسن اقامتي عنده و اكرمني و ماتدعيني اليه خيانة مني اليه و ظلم في حقه ان اجازى احسانه بالاساءة اليه و مثل هذا القول منه دليل على تبطنه العفة و مراعاة مولاة فضلا عن دينه أما هي فأن غلمتها دفعت بها الى ملاحظته عملاً و أمّا هو فلا عار عليه اذا وجد نفسه تحركا رجوليا لكنه كبتة بالفعل و العمل الصارم و هذا ادل على نزاهته و دينه فان الانسان الصائم يشم رائحة الطعام فيفرز لغاب فمه بالقهر ومع ذلك فهو على تصميمه في الأمساك و برهان ربه هو دينه و عقله و كما صرفنا عنه كيد اخوته ثبتناه بعقله لنصرف عنه السوء و الفحشاء أنه من عبادنا الذين اخلصوا انفسهم من تبعات الشهوة و المادة فكانوا ابراراً بعقولهم

و بمولاهم ايضاً ، وهنا بحث بعنوان (المادة والمعنى) فنقول :

المراد بالمادة هي الطبيعة وغرائزها المدفونة فيها كاستدعائها الأكل والشرب والمكّن والجنس من الحيوان والمراد بالمعنى مقاومة انفلات الطبيعة فالصوم مقاومة لذلك والاقامة على العزوبة مثله والصبر على الجوع والعطش والحرّ والبرد نظيره والناس بظاهرة العقل على اجمالها قسمان قسم يرى من الغلط ان يمنع نفسه عما تيسر لها من المتع بأي شكل كان كما عليه النفاة للصانع فانهم و ان اقرّوا بالمفاهيم العقلية الاّ انهم يبطنون خلافها عملاً كما نراه في هذه الأمم المتحضرة التي ضربت بمقاييسها — كما يزعم لها — المثل العليا لكنها ماتزال تدأب في استغلال الضعفاء حتى تنيمهم الى الموت وقسم وهم المعتقدون بما وراء الشهادة ونظمه فانهم يصرون على مجاهدة انفلات الطبيعة واسترسالها فيرون تطبيق الفضيلة على جميع مجاريهم الحيوية ضربة لازب حتى لا يبرزوا مبرز الحيوان الهامل ولا يتأثروا بدمائمه فيقدون الجوع مع العزّة على الشبع مع الذلة ويشرفون العفة مع العزوبة على الخيانة معها ويواسون مع الحاجة تخفيفاً لضغط الحياة على المحرومين ولا شك ان الحق مع هذا الفريق لان الفريق الأول قد تجاهل بعقله والثاني وقاه حقّه والتجاهل بالحق اكثر جرماً من الجهل به وبما ان يوسف نشأ في احضان مؤمنين بالحق لم يتجاهل بالحق فلم يتخذ شبابه وجماله وسيلة اقتناص لحقوق الآخرين .

* (و استبقا الباب وقدت قميصه من دبر و الفيا
 سيدها لذي الباب قالت ما جزاء من اراد
 بأهلك سوء الا أن يسجن او عذاب اليم : قال
 هي راودتني عن نفسي و شهد شاهد من
 اهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو
 من الكاذبين : و ان كان قميصه قد من دبر
 فكذبت وهو من الصادقين : فلما رأى قميصه
 قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم
 : يوسف اعرض عن هذا و استغفرى لذنبك انك
 كنت من الخاطئين) *

جعل يوسف وزليخا باب البيت او باب الدار مورد مسابقة هي
 تريد ان تسبق اليه لتخلقه عليه و هو يريد السبق اليه ليهرب منها
 و كان هو المتقدم ف جذبته من قميصه لقفاه فقدته من دبر ولما توافيا باب
 البيت او باب الدار وجدا سيدها وهو العزيز لذي الباب فسبقت هي
 بالكلام لتورد الذنب على يوسف و تبرأ هي فقالت ما جزاء من اراد باهلك
 سوء الا ان يسجن او عذاب بالضرب و اللدم اليم فدافع يوسف عن نفسه
 بأنها التي تراودني عن نفسي منذ ازمان و كان مع سيدها قريب لها
 فقال علامة صدقها قد قميصه من قبل و علامة صدقه قد قميصه من دبر
 فلما رأى الحكم او السيد قميصه قد من دبر تحقق لديه صدق يوسف
 و كذب زليخا و توجه اليها باللائمة و قال ان كيدكن عظيم يوسف لا تفش
 هذا الأمر و اعرض عنه و دعه كأنه لم يحدث و انت يا زليخا توبى من ذنبك
 و استغفرى ربك انك كنت فى فعلتك هذه من الخاطئين ، و هنا يأتى

البحث عن عنوان (موقف الانسان من الدين و اللآ اباليّة) فنقول :

الدين معناه هو الخضوع للمقررات الموحاة ممّا وراء الطبيعة مقرّرها الخالق و محطّها المكلف و وسائطها الانبياء و نقطة انبعاثها المجارى الطبيعية للمخلوق و غايتها السعادة فى الدنيا و النعيم او الجحيم فى الآخرة سواء تعقلها العقل كحرمة الزنا و القمار ام لم يتعقلها ككون الصلاة ثلاث ركعات فى وقت المغرب ولا يُعترض بأننا كيف نتعبد بما لانعرف فان جوابه ابسط من كل بسيط فأننا نتعبد بقول الطبيب فيما يدّعيه من مرض فى أبداننا و نتعبد بوصفه للدواء على ما فيه من كلفة مادة و استعمال و انما تخضع عقولنا لذلك لانه من اهل الصلاحيات فى هذا الغرض و نحن فاقدون لها و ليس الدين معناه اننا نسير على ضوء عقولنا فان السير على ضوء العقل ليس ديناً و انما هو التزام محض و لذلك لمّا فقد بعض العقلاء الركون الى الغيب و امنوا من التوعّد على الانحراف لم يبالوا بمخالفة عقولهم بخلاف المتدين فانه ليسوقه الى التزام دينه امران الأوّل سعادته بالعمل و الثانى تأمين عقباه فهو ان لم يعتن بعقله فى دنياه يحذر من مؤاخذته فى أخره لأنه يدّين بما وراء الدنيا بخلاف نظام العقلاء فانهم لمّا امنوا المؤاخذة فى مخالفته لم يمنعم اعترافهم به عن العمل على ضده مثلا هذه الدول المشتركة فى عضوية جامعة الملل ولكل واحدة منها ممثّل هناك تعتبر امضاءه امضاءً عنها نراها قد تصوّب مطلباً بامضاء المشتركين ومع ذلك يخالف الكثير منها ما يمضيه اعضاؤهم فهم يعترفون بالقول و ينحرفون بالعمل لعلمهم أن لا مؤاخذة فى البين اتكأً على القدرة القاطعة التى يأمنون معها عن مؤاخذة اى احد يفرض ومن هنا اخطأ على شريعتى فى كتابه (ياد و ياد آوران ص ١٣) حيث اعتبر الدين هى الظاهرة الاجتماعية

ويراها هي مشيئة الله وهو غالط في فهم معنى الدين أولاً وجهة غلطه انه لا يؤمن بما وراء الطبيعة بل يقوله بلسانه قولا لفظيا فان الظاهرة الاجتماعية تقوم بتعريف ميول الناس واهوائهم كالاتزام بالحجاب مرة والاتزام بالتعري اخرى وكالاتياط من التنعم بنعم الدنيا تارة والانغماس فيه تارة اخرى ولاربط لذلك كله بالدين الموحى واما مشيئة الله تكويناً فهي لاربط لها بالدين كأرسال المطر وقبضه وتسليط الأوبئة على الناس وكفها واما مشيئته في الدين والتكليف فهي ما قرره من واجب وحرام ومكروه ومستحب ومباح وحرام الله روعى به الواقع للإنسان والحياة ولاربط له بالظاهرة الاجتماعية اذا كانت على خلافه مثل هذه الازمنة المنحرفة ومن التناقض على الله ان يحرم شرب الخمر واكل الميتة والدم على الناس ويشاء لهم في بيئة يزخر فيها شرب الخمر واكل الميتة واصولا جعل الظاهرة الاجتماعية مشيئة الله وديناً انما هو لأفلات الدين من يد اهله حتى يتسنى للنافذين ان يلعبوا به وبالمنتسبين له ما شاؤا وكذلك كان الأمر بعد النبي نفسه فكان الحلال والحرام لعبة بيد الالهواء تصوغه كيفما ارادت وتديره كيفما اشتهدت ومن قد يم بررت اعمال يزيد من فقهاء السوء بان الخارجين عليه كالحسين بن على انما خرجوا على حكومة سائدة ووضع راهن ومشى الغناء على ذلك مشى اعمى و اذا كان صدر الاسلام هذا لونه فأحمر بهذه الأزمنة ان يحور فيها الدين طبق الميول والشهوات وتعتبر كل تلك التحويرات والتطويرات دينا سماويا مدركة القرآن والسنة سواء كان على ما يتذوقه العوام الذين يعيشون على سطحي ابصارهم ويرون عظمة الشىء منوطه بظواهره الغرارة ام على ما يتذوقه الجدد الذين يستنكرون التعبد بشىء مالم يفهموا معناه بما يلائم الطبيعة المأنوسين

بها فتفسير الصلاة بأنها ملفتة لنظر العاقل موجهة للغافل الى ما فيه صلاح حياته تفسير باهت عندهم لانه ليس على المجارى الطبيعىة المألوفة لهم لكن ان فسرها بأنها نوع من الرياضة البدنية قبلوا ذلك وهو دليل على انهم لا يتعقلون المعنويات بالمرّة و انما يعيشون على السطحيات .

و اللآ ابا لية معناها التذبذب عن الواقع تأميننا لمصلحة الوقت كما عليه اغلب الناس الذين لا يبالون بمخالفة اى قانون كان بعد ان يكون مرضيا عندهم و هكذا دار الأمر بين يوسف و زليخا فى فراره منها وهو شاب عذب و ملاحقتها له وهى محصنة كهلة فى العمر فيوسف انما فرّ لدينه وهى انما لاحقته لشهوتها و تذبذبها وراء ميولها .

* (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها
 عن نفسه قد شغفها حباً أنا لنراها في ضلال
 مبين : فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن
 واعدت لهن متكئا و آتت كل واحدة منهن
 سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه
 وقطعن ايديهن و قطن حاش لله ما هذا بشراً
 ان هذا الا ملك كريم : قالت فذلكن الذي
 لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم
 ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن و ليكونا من
 الصاغرين : قال رب السجن احب الي مما
 يدعونني اليه و الا تصرف عني كيدهن
 اصب اليهن و اكن من الجاهلين : فاستجاب له ربه
 فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم : ثم
 بدالهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى
 حين) *

من اى مُهَرَّب فرض مشى خبر يوسف و زليخا الى انديّة النساء
 فأخذت الواحدة تلو الأخرى تقول ان امرأة العزيز مع انها ذات بعل
 حاضر معها تراود غلامها عن نفسه حتى لا تستطيع فراقه قد نفذ حبه
 الى شغاف قلبها ولا شك مع هذه الصورة أنا نراها فى متاهة عن الح
 فلما رنت اصداء كلمات النسوة فى سمع زليخا اعدت لهن مادة تليق
 بكيانها و كيانهن و نضدت اطراف مجلسها بالمتكئات و آتت كل واحدة
 منهن سكيناً لقطع الفاكهة و بعد أن استتب المجلس بهن قالت زليخا

ليوسف اخرج عليهن ولا شك انه كان مأمورا عندها للخدمة فلعلها عندما قالت له اخرج الى المجلس قالت ذلك بداعى تهيأة بعض لوازمه ولم يكن عنده اطلاع بما تستهدف فلما خرج عليهن ورأينه اكبرنه وشغلن بجماله والنظر اليه ونسين انفسهن وسكاكينهن وقلن حاشى لله كلمة تقال فى مقام التعجب والاستغراب ما هذا بشراً ممن رأينا ان هذا الآ ملك كريم فى كماله وحسن سمته وهن كغيرهن لم يرين الملك كما لم يرين الشيطان والجن ولكنها كلمات تقال فى بالغ الخير والشـر هنالك قالت امرة العزيز لهن هذا الذى الأم على حبه ولقد أردت منه ما تريد المرأة من بعلمها فاستعصم بالعفة وانى غير تاركة له قالت هذه الكلمة بعد ان وجدتهن اخس حالاً منها وابعدهن صبوة فأن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكوناً من الأذلاء تحت ضغط الضرب والتنكيل فلما رأى يوسف ان موقفه من زليخا وصويحباتها أخذ بالتشدد قال رب السجن احب الي من بقائى مع هاته النسوة واحب الي مما يدعوننى اليه والآ تصرف عنى كيدهن وسلطانهن وابقيتنى فيما بينهن اصب اليهن بدافع الغريزة والجبلة وكن من الجاهلين كما استجهلن بعد متانتهم فاستجاب له ربه كما طلب منه فصرف عنه كيدهن بمحكوميته بالسجن فان العزيز وهواته وزليخا وحامتها وجدوا من اللازم احرازاً لسمعة الجميع وابطالاً لهذه النامة ان يحكموا عليه بالسجن لأمد بما تتناسى معه هذه الأحاديث مع وقوفهم التام على طهارته وعفته وعصمته ولو ان شاباً آخر تهيأ له ما تهيأ ليوسف لقلب مصر رأساً على عقب ولكرع فى اعراض الناس بلا مزاحمة، وهنا يأتى بحث عنوانه (ما هو الانتقاد وما هو مبرره) :

الانتقاد مأخوذ من النقد ونقده المال اذا ألقى اليه قطعة بعد

قطعة من الذهب او الفضة و القاء هذه القطع واحدة بعد واحدة
لتحقيق الحساب أولاً و اختبار الجنس ثانيا هل انه زائف او صحيح
فالانتقاد اذاً معناه فحص المطلب العلمى او الشخصى للوقوف على
ما فيه من غش و سلامة و العلم يحبذ الانتقاد النزيه لانه يخرج غش
المطلب و يرد الانسان الى نصاب الحق اما التردد للانتقاد بداعى
قلب الاعراض و التهريج على الطرف كما يفعله الانتهازيون فباطل عقلا
و حرام شرعا بخلاف الانتقاد النزيه فانه يحيى المطالب العلمية و يلزم
الانسان بالتانى و التثبت و ملازمة طريق الحق وهو السبب الوحيد
لتخليص العلم من الجهل و التزام الانسان لطرف الحق و بناءً على هذا
الملاك لما فهم نسوة المدينة ان زليخا مع كونها ذات بعل يَغْدُ و عليها
و يروح اهابت بها الصبوة الى غلامها فهى تراوده لينال منها ولا اقبح
من هذا شىء لكنها لما كانت تعلم ان هاته المنتقدات اخس حالا
منها لانهن يقلن القول عن بُعدٍ من مجابهة المطلب ولو دُرْنَ حواليه
لبدا منهن ما هو انكر مما بدا منها فدعتهن الى منزلها بعنوان زيارة
او وليمة و هيأت لهن مجلساً شريفاً تعمره المتكئات و الفاكهة و سكاكينها
و كان يوسف عندها بمنزلة الخادم فأمرته ان يخرج الى المكان الذى
أعدته لهن وهو لا يعلم بمكانهن لتهيئة مطلب فلما رأين جمالَه اكبرنه
اى بدا كبيراً فى اعينهن و سُغِلن بجماله عن التوجه الى ما بأيديهن
من فاكهة و سكاكين فاخذت السكاكين لعدم التوجه تحزّ فى ايد يهن
و تدميهن وهن لا يتوجهن حتى وجهتهن زليخا فأظهرت لهن انهن
اصلب منهن عوداً و اشدّ شكيمة و اربط جأشاً و كن يقلن ما هذا بشراً ان
هذا الا ملك كريم وهن لم يكن رأين الملك و انما ارتسم له فى خاطرهن
رسمٌ من حياكة الخيال كيفما اراد من الأبهة و العظمة و الجمال و الكمال

وكذلك يفعل الخيال اذا احبّ او ابغض حينذاك نددت بهن زليخا
وقالت ليس لانتقادكن اذاً محلّ والذى رأيته منكنّ سيكون مبرراً فى
مراودة يوسف ومطاردته حتى انال منه بغيتى ولئن اغدّ بالأستعصاء
على لأحوكنّ له من الدسائس ما يدخله السجن ويلزمه المذلة هناك
لما وقف يوسف على ان جماله المشفوع بالعفة سوف يؤدى به الى مشاق
عظيمة استهون السجن على بقاءه طليقا تراه النساء و يراها وكذلك
تحققت له امنيته فسجن بداعى أنّ سجنه ممّا يقطعه عن زليخا فيبـوخ
اوارها و يتناسى الناس حد يثها و ما يدخل من اجلها على زوجها
واهلها من فضائح .

اسلفنا فى صدر البحث ان النقد العلمى ممّا له اثر فعّال فى
تنقيح المطالب العلمية و بذلك نعقب على اولئك الذين لم يفهموا موارد
النقد و طيّروا انتقاداتهم فى وجه الحقيقة بلا تدبّر فمن ذلك ما قاله
على شريعتى فى كتابه (ياد و ياد آوران ع ١٠) بما خلاصة ترجمته ان
علماء الدين يعتبرون انفسهم اولى مقامات رسمية و انهم فضلا عن ان
المبادئ الاجتماعية او الاقتصادية او السياسية لا تراهم من حاجتها
لأنهم ليسوا من اهل التوليد كالأطباء و الفيزيائيين و الكيماويين تراهم
متحجرين فى مبادئهم فأبدأ تراهم يحرمون شرب الخمر و يلزمون
بالحجاب و يمنعون الرقص و ما الى ذلك ممّا هو موجود فى الشريعة
فهم دائما مستبدون متحجرون لا يسيلون مع الزمان ولا يتطورون بأطواره
ولاشك ان هذا الانسان وهواته اما لا معرفة لهم بكنه الدين و انه ما هو
و اما انهم يعرفونه ولكن يلزمون انفسهم بالتنديد به و التهريج عليه
حتى يُترك و يلغى بين الناس و كلاهما غلط مفتضح و نحن فيما سبق قد
تكلّمنا عن الدين و انه ما هو بكلمة علىّة ندية طرية فاقراها .

* (و دخل معه السجن فتیان قال احدهما انى
 ارانى اعصر خمرا و قال الآخر انى ارانى احمل
 فوق رأسى خبزا يأكل الطير منه نبئنا بتأويله
 انا نراك من المحسنين : قال لا يأتیکما طعام
 ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتیکما ذلكما
 مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله
 وهم بالآخرة هم كافرون : و اتبعت ملة آبائى
 ابراهيم و اسحاق و يعقوب ما كان لنا ان
 نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا
 و على الناس و لكن اكثر الناس لا يشكرون) *

قارن دخول يوسف الى السجن دخول فتیین اليه كان احدهما ساقى
 الملك و الثانى صاحب طعامه فوشى بصاحب الطعام انه يحاول سم الملك
 فحزرا الملك فى نفسه ان الساقى من مقولته وقد يكون الطرفان تماثلا على ذلك
 فسجنهما فرأى الساقى فى منامه ذات ليلة كأن عناقيد ثلاث جناها
 و عصرها للملك و قدّمها له فى كأس و رأى صاحب الطعام كأن على رأسه
 ثلاث سلال من خبز و طعام و كأن الطير تتناول من تلك السلال وهى
 على رأسه فلم يفهم الفتیان معنى ذلك و يوسف اما ان يكون عرف عنه
 العلم و تأويل الحديث و تعبير الرؤيا او كان اكمل الحضار معهما فى
 السجن و كونه محسنا انما تميزاه لما رأيا عليه من شمائل العطف
 بالضعفاء و اللطف بالاصدقاء و عصر الخمر معناه ما يؤل الى الخمر و بعد
 ان قصده لا استعلام ما رأياه احب ان يفهمهما ان الله امتنّ عليه بأكثر
 مما قصده به فقال لهما لا يأتیکما فى هذا السجن طعام ترزقانه من

اهلكما او احبتكما الا نبأتكما عنه قبل ان يصل اليكما فأقول لكما مثلاً
 غذا تكما اليوم كذا وكذا وعشائكما كذا وكذا أفدت ذلك من اللّٰه
 سبحانه تشريفاً انى لست من اولئك الذين يجحدون خالقهم و يكفرون
 بالمعاد عليه و الوقوف بين يديه و اتبعت ملة ابراهيم الحنيف و اسحاق
 و يعقوب وهم آباءى نسباً و حسباً و عقيدة ما كان لنا ان نشرك بالله ما
 هو من مخلوقات اللّٰه ذلك التوجه الى الحق و الألمان بالحقيقة من فضل
 اللّٰه علينا و على الناس ايضاً حيث فطرهم على الحق و معرفته و لكن
 اكثر الناس لا يشكرون نعم من انعم عليهم و يتناسون الواجب و
 يتغافلون عن الوظيفة لكننا لسنا منهم فى ذلك، وهنا يأتى البحث عن
 عنوان (العلم و أثره الفعّال و نتائجه لخير الدنيا و الآخرة) فنقول :
 العلم هو انكشاف الواقع و لا حياة مطمئنة بدونه فى آية النشآت
 يفرض ذلك لان مالا واقعية له لا يثمر وما يرى له من ثمر فأنا هو موقت
 و كذلك برهنت الحياة على ان الذين عاشوا على الخرافات و الانحرافات
 لم يستفيدوا الحياة بسلامة و رخاء بل قضوا اعمارهم مع الارتباك و المدّ
 و الجزر و حسبوا ذلك هو المقدّر عليهم من اللّٰه سبحانه و لكن اللّٰه قد
 ابطل مزاعمهم بقوله و ان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا
 فان الآية تصرّح انهم لو مشوا على النظام الصحيح لاستثمروه و القضاء
 معناه هو ارادة اللّٰه القاطعة و اللّٰه لا يفند ارادة نفسه اذاً فليس ما
 عليه الناس من مسيرات خاطئة عن الواقع من القضاء و القدر بشىء .

ثم الواقع واقعان واقع طبيعى وهو ما تكده العقول فى عالم الطبيعة
 و استخراج منافعها و اقتناص منافعها كما يهبوا كافة هواة المادة
 و يفعلونه و يذيون عليه وجودهم و هذا ليس بعلم تقام عليه الحياة
 فانه مشارفتة و تغالب و اذا جاء التغالب فقدت النفوس و عطّلت

المعامل والأعمال والتهى الناس بالأباطيل وبالتنازع المهلك نعم علوم الطبيعة بمنزلة اعداد لعلوم النفس اذاً فالواقع المعيشى هو واقع سياسة النفوس ورياضتها على النظم الصحيحة القائم بها علم الشريعة والأخلاق ذلك العلم الذى يحرم الضرر والأضرار و به يحزم التسليح لأفناء البشرية او لتعكير الحياة عليها و يحرم الأحتكار و يحرم الأجحاف و يحرم الغش و يمنع من المغريات فاذا حرم الاحتكار و الاجحاف و الغش برزت السلع للراغبين مرغوبة مطلوبة محبوبة من عموم نواحيها و اذا منعت المغريات بطل أى عمل يقوم بذلك و اذا وجب او ندب التساهل فى المعاملة و الأحسان الى المؤمنين و الضعفاء قلّ الضعف والضعيف و كذلك اذا وجب او ندب اشادة المعابد و مراكز الوعظ و الأرشاد قلّت المفاسد و راجت الفضائل و بذاك و هذا تعود الحياة رخيّة سمحة سهلة ليس فيها صراع وعراك و أمّا اذا جاء دور المثالية و الاقبال على الحقّ و الحقيقة و معاينة الواقع و مطالعته و الابتعاد عن المادة شيئاً ما فقد جاء الدور الوضّاء و تشعشع الفكر و زيادة لطف الله بعبده و من جملة ذاك ما افاده يوسف من تأويل الأحاديث و التنبأ عن المستقبل و اصابة تأويله و تنبأه و وصوله من طريقها الى مقامات عالية افاد فيها الاغيار واستفاد لنفسه .

* (يا صاحبي السجن^٤ ارباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار : ماتعدون من دونه الا اسماء سميتوها انتم و آباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امران لاتعبدوا الا آياه ذلك الدين القيم و لكن اكثر الناس لا يعلمون : يا صاحبي السجن اما احدكما فيسقى ربه خمرا و اما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذي فيه تستفتيان : و قال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) *

كان فيما سبق من الآيات صورة استفتاء و استعلام الفتیین من يوسف عما رأيا في منامهما و انجر سياق الحديث بيوسف الى ان بين لهما ما انعم الله عليه به من علم الأحاديث و ان من يخلص لله يؤتته من فضله ما لا حساب له كما اوتى هو و آباؤه الشيء الكثير و على هذا المحور ندد بالشرك و المشركين و عبادة غير الله فقال يا صاحبي السجن ارباب متفرقون من شجر و حجر و شمس و قمر خير ام الله الواحد القهار فان تعدد الأرباب اولاً موجب لفساد النظام الحيوى العام و اما ثانياً فهو بصبغة علمية غير معقول فان خالق الكون و الكائنات واحد ولا يجوز ان يتعدد كما بين مفصل ذلك فى فنّ المعقول ثم الاشياء التى تعبدونها من دون الله مخلوقات مثلكم و ان اطلق عليها اسم الخالق فانه اسم مرتجل لا يشف عن مسمى حقيقى تحته فلا حاكمية اذاً الا لله

و هذا الله هو الذى امر الآ نعبد الآ اياه وعبادة الله وحده هـى
الدين القيم البعيد عن الزيغ و الميلان لكن جهل الناس بالحقائق هو
الذى يوردهم هذه الموارد القذرة و بعد آن آتم الحجة عليهم اجابهم
الى ما استفتياه فقال آما الساقى منكما فانه يعود الى سقايته كما كان
و آما صاحب الطعام فان الملك يعدمه صلبا و يبقى معلقا على خشبته
حتى تأتى الطير فتأكل من لحم رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان
و عنه تستعلمان و كأن ضغطة السجن آثرت فيه اثراً محسوسا فلذلك
اوصى الساقى الذى ظنّ انه ناج من ورطته هذه اوصاه ان يذكره عند
الملك و يقول له هذا الانسان مسجون ظلما فلعلّه يستخلصه لكن
الساقى عندما خرج من السجن و عاد الى وظيفته الأولى انساه
الشیطان ان يذكر الملك فى هذا الشأن فلبث يوسف فى السجن حتى
بعد هذه الحادثة بضع سنين و البضع كلمة تقال على ما دون العشرة -

* (وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع عجاف وسبع سنبلات خضر و آخر يابسات
يا ايها الملائفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا
تعبرون : قالوا اضغات احلام و مانحن بتأويل
الأحلام بعالمين : وقال الذى نجا منهما
و اذكر بعد امة انا انباكم بتأويله فأرسلون :
يوسف ايها الصديق لفتنا فى سبع بقرات
سمان يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات
خضر و آخر يابسات لعلّى ارجع الى الناس
لعلمهم يعلمون : قال تزرعون سبع سنين دأبا
فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون
ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن
ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون : ثم
يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس و فيه
يعصرون) *

تمرّ هذه البضع السنون على يوسف فى السجن و ليس هناك من
يذكر حاله فكان جزء المنسيين و من هنا يستفاد ان السجون السابقة
لم يكن لها نظام محدد انما هى الصدفة تعوم و ترسب و بعد هذا
البضع المجهول العدد رأى ملك مصر فى منامه سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع بقرات آخر عجاف مهازيل حتى دخلت السماء فى بطون المهازيل
تماما و رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها و سبع سنبلات أخضر
يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها

فيا ايها العارفون المحتشدون في المجلس افتونى فى رؤياى ان كنتم من اهل الفتوى فى هذا الفنّ و تخلصا من ثقل الجواب هرعوا الى الخفيف منه بأن قالوا ما رأيتَه من اضغاث الأحلام و سائر الاوهام و انه لا قيمة له ولا تعبير. عنه هذا أولا وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ثانيا ، هذا الموضوع الطارئ اهاب بذاكرة الساقى و بوصية يوسف له و سابقة يوسف معه و مع صاحبه الذى صلب من حينه و الأدكار هوالتذكر و الأمة الردح من الزمن فقال للملك و حاشيته انا انبأكم بتأويل هذا الحكم فأرسلون الى السجن حيث هناك يوسف العلامة بهذا الفن الذى لا يخطأ الواقع فى تعبيره ولا يحدد عنه فأرسلوه اليه فجاءه فقال يا يوسف يا صادق القول و التفسير افتنا فى سبع بقرات و قصّ عليه ما رآه الملك لعلّي ارجع الى الناس بما يزيح علتهم و يبرّد غلتهم قال تزرعون سبع سنين متواليات تدأبون انفسكم فى استحصالها و تأتى زروعكم كما تريدون فكلّما تحصدونه يجب ابقاؤه فى سنبله من دون أن يدأس فان غلاف السنبله الذى عليه يحفظه ما شاء الله من الزمن الا قليلا ممّا تريدون اكله بالفعل فاذا مرّت هذه السنون السبع الخصبة تهجم عليكم سبع سنين شداد فى قحطها يأكلن منكم كلما احرزتموه من السبع السنين المخصبات الا قليلا ممّا ادخرتم فانه يزيد عليها و بعد ان تمرّ هذه السنون السبع الشداد يأتى عام فيه يغاث الناس اى يغيثهم الله بالغيث و نزول الأمطار و فيه تعتصر الفواكه و تروى و هذا التفسير ممّا اقام قيامة الملك من عامة نواحيه فانه فضلا عن تعبير رؤياه استفاد فائدة اقتصادية مهمّة لولا ما جاء عن يوسف لهلكت امته بلا ريب .

ثم العلم علما علم تنال به الرغائب و علم يجر الى المعاطب ذلك لان الذهنية الانسانية تارة تقود الى الخير واخرى تقود الى الشر

فذهنية الخير هي ذهنية الملائكة الذين أئتمروا بأمر المولى لما تميزوه انه لا يأمر ولا ينهى الا عن صالح المكلف ومن هنا سجدوا لطينة آدم ولم يتعللوا وذهنية الشر هي ذهنية الأبالسة الذين اعتدوا بانظارهم في قبال اوامر الحق وقالوا أنسجد لمن خلقت طيناً واما فعلوا ذلك اعتزازا بعقولهم في حال انهم لم يملكوها الا بهبة الله لهم .

اذاً فالعلم الذي تنال به الرغائب هي علوم الدين التي حشوها عطف الانسان على الانسان واحتساب كل فرد في النوع احتساب العضو من الجسد و بذلك تنعم الحياة ولو كانت نزره في ماد ياتها ومن هنا قال رسول الله (ص) المؤمن مرآة اخيه المؤمن يعنى انه يرى فيه حسنه وقبحه و ما يزينه و يشنيه و رؤيه ذلك معناها توجيه المؤمن لأخيه المؤمن توجيه محبة لا توجيه انتقاد و استنقاص وقد وردت آثار كثيرة في حقوق المؤمن على المؤمن .

و اما العلم الذي تجر به المعاطب فهو ترصد الانسان للأطاحة بأخيه الانسان من شتى نواحيه ومن ذلك تكبره عليه و اغتيا به له وحسده آياه و غشه له و الأستئثار عليه و الأعداد لسحقه و محقه كما عليه زافه البشر، ومن الرعيل الأول ما كان عليه يوسف عليه السلام من حفظه لحق اخيه النوعى في الغيب و ترصده لما فيه تحصينه و بعبارة اخرى ترصده لتشكيل مدينة فاضله و حكومة عادله .

* (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فستله ما بال النسوة اللاتى قطعن ايد يهن ان ربى بكيدهنّ عليم : قال ماخطبكّن اذ راودتنّ يوسف عن نفسه قلن حاشى لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرءة العزيز آلان حصص الحقّ انا راودته عن نفسه و انه لمن الصادقين : ذلك ليعلم انى لم اخنه بالغيب و ان الله لا يهدى كيد الخائنين : و ما ابرى نفسى ان النفس لأمارّة بالسوء الاّ ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) *

لما تميّز الملك متانة ما ذكره يوسف علقت نفسه به و وجد فيه بلغنه فى الحياة و سداد ا لعوز المملكة امر باحضاره ليراه من قريب ويستنبطه فلما جاء الرسول الى يوسف ابغىه بخبر خلاصه من السجن و خروجه منه و حضوره عند الملك فقال ذاك يحتاج الى مقدمة و هى انك ترجع الى الملك و تقول له ماجهة سجن هذا الانسان فان كان لتهمه ناموسية فليحضر النسوة اللاتى قطعن ايد يهن فى مجلس زليخا و يسئل منهن عنى و ما كان منى فأمر الملك بأحضارهن و سئلهن عن هذا المطلب و ما هو موقف يوسف منه فقلن ان هذا الانسان برئ من كافة هذه التهم و انما البأس فىنا نحن راودناه عن نفسه لما تداخلنا من حبه و جماله و وجد القوم ان الساتر الوحيد لنواميسهم هو الحكم عليه بالسجن لتترتب التهمة عليه و لتبطل احد وثته فيما بين الناس حينذاك قالت امرءة العزيز التى اكثر النساء كلامهن فى حقها و انها تراود فتاها عن نفسه

قد شغفها حباً الآن وحين اذ اعترفت النسوة بأنهن ابتلين بمثل ما ابتليت انا به ظهر الحق وارتفعت اللائمة عنى حين راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين عندما قال للعزيز لم اقصد عرضك بسوء انها هى التى زاحمتنى وغلقت الأبواب علىّ وسابقتنى الى اغلاقها عندما اردت الهروب منها ، يقول يوسف انما ارجعت رسول الملك اليه وتقاضيت منه احضار النسوة ليعلم الملك وعزيزه انى لم اخنه بالغيب وانّ الله يفضح كيد الخائنين ولو بعد حين على اننى بشر والبشر لا يبرأ نفسه من مغويات الشهوة ان النفس لأماراة بالسوء الاّ ما رحم ربّى ان ربى غفور للتائبين رحيم بعباده المخطأين اذا رجعوا اليه وتضرعوا لده .

* (وقال الملك ءتوني به استخلصه لنفسى فلمّا
كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين : قال
اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم :
وكذ لك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث
يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر
المحسنين : ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا
وكانوا يتقون) *

بعد ان ارجع الملك براءة يوسف اليه وانه سجن ظلما وعدوانا وانه
عفيف شريف من ناحية عالم كامل من ناحية ثانية اراده حثيثا ليستخلصه
لنفسه ويوكل اليه مهام اموره وليكون مكيئا عنده لأصدر الآ عن رأيه وامينا
لعلانتيه وسره فلما حضر يوسف عنده وكلمه وعرف فيه كافة خصال الخير
والفضيلة قال اختر ماترى ان تقوم عليه قال اجعلنى وزيرا لاقتصادك
وما ليّتك انى حفيظ لمالك عليم بأدارة امور الناس وجاءت السنون
الخصبة فتولّى رعاية محاصيلها وتعقبته السنون الجدة فعرف كيف
يد يرها فكان مثالا بارزا لحفظ ارواح الناس وارزاقهم طيلة اربعة عشرة
سنة فذاع له اسم وصيت فى كافة اقطار الأرض يومذاك وبهذه الصورة مكنا
ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء فقد كان عزيزا نافذا حيثما حلّ
وارتحل ، نصيب برحمتنا من نشاء اما اختبارا وامتحانا واما جزاء وفاقا
ولا نضيع اجر المحسنين أمثال يوسف هذا كله حديث الدنيا ولأجر
الآخرة وثوابها خير للذين آمنوا وكانوا يتقون الله ويخافونه لان اجر
الآخرة بعيد عن الآلام والمنغصات دائم خالد لا ينفد ولا يفنى ، وهنا
يجيء بحث عن عنوان (الظواهر والبواطن) فنقول الظواهر لها اثر

فَعَال فِي الْمَجَامِعِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْذَ اقْدَمِ عَهْدِهَا لِأَنَّ نَوْعَ أَفْرَادِ الْبَشَرِ
 مَنُوطُونَ وَمَرْبُوطُونَ بِحَوَاسِّهِمُ الظَّاهِرِيَّةِ حَتَّى لَوْ كَانَتْ لَهُمْ بَوَاطِنٌ
 يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهَا أَحْيَانًا وَيَنْبَعَثُونَ عَنْهَا وَقَلِيلٌ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا يَغْتَرَّبُونَ
 بِالظَّاهِرَةِ لَا بَدَأٌ وَلَا خَتَامٌ وَأَمَّا يَعْبُرُونَ الْحَقِيقَةَ وَالْحَقِيقَةَ لَا مَكْنَ لَهَا
 وَلَا مَكَانَ إِلَّا فِي الْبَاطِنِ نَعْمَ رَأْدَةُ الْحَقَائِقِ يَحْبِذُونَ تَحْسِينَ الظَّاهِرَةِ
 مُضَافًا إِلَى تَحْسِينِ الْبَاطِنِ فَإِنَّ الْبَوَاطِنَ إِذَا شَفَعَتْ بِالظَّوَاهِرِ جَذَبَتْ
 الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ إِلَيْهَا فَكَانَتْ مَهْوَاةَ الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ وَمِنْ
 هُنَا حَبَّبَتِ الشَّرِيعَةُ الْوَقَارَ وَحَسَنَتِ الْبَزَّةَ وَالتَّطْيِبَ وَسَائِرَ الْأَصْلَاحَاتِ
 لِحِفْظِ الْبِنْيَةِ الظَّاهِرِيَّةِ لَكِنْ شَفَعَتْ ذَلِكَ بِالْبَاطِنِ النَّزِيهِ الْمَعْمُورِ بِالْإِيمَانِ
 وَالْمَعْرِفَةِ وَالْإِطْمِئْنَانِ الَّذِي يَكُونُ مَبْدَأً وَمِنْشَأً وَمِفْتَاحًا لِلْجَوَارِحِ فَعَن
 الْبَوَاطِنُ تَتَفَتَّحُ الْعَيُونَ وَتَنْطَبِقُ وَتَنْطَلِقُ الْأَرْجُلُ وَتَقِفُ وَتَتَحَرَّكُ
 الْأَيْدِي وَتَسْكُنُ وَيَنْطَلِقُ اللِّسَانُ وَيَسْكُتُ وَتَثُورُ الشَّهْوَةُ وَتَهْدَأُ وَيُؤَثِّرُ
 الْإِنْسَانُ وَيَتَأَثِّرُ وَبِالْآخِرَةِ قِيَامُ الْمَجْتَمَعَاتِ وَقَوَامُهَا وَتَسْفَلُهَا وَتَعَالِيهَا
 وَكُلُّ شَيْءٍ يَقْوِيهَا وَيُضْعِفُهَا مَنُوطٌ بِالْبَوَاطِنِ خَيْرٌ وَشَرِيرٌ صَحِيحٌ
 وَسَقِيمٌ وَالظَّوَاهِرُ إِذَا انْفَكَّتْ عَنِ الْبَوَاطِنِ كَانَ الْأَثَرُ لِلْبَاطِنِ فَقَطْ وَيَعُودُ
 الظَّاهِرُ ظَاهِرَةً افْتِضَاحًا وَكُذْبًا وَمَهَازِلًا وَسُخْرِيَّاتٍ وَمِنْ هُنَا تَرَى أَنَّ
 الشَّرْقَ لَمَّا عَرَى عَنِ الْحَقَائِقِ الْبِنَاءَ وَكَرَعَ فِي الظَّوَاهِرِ الْمَطْلَاةَ أَصْبَحَ
 مَهْزَلًا وَمَهْزَةً سُخْرِيَّةً وَدَارَ بَوَارٍ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَرَى مِنْ
 الْحَقِيقَةِ بِمَقْدَارٍ مَا اكْتَسَى مِنَ الظَّوَاهِرِ وَالظَّاهِرَةَ أَمَّا تَخَدُّعُ فِي زَمَنِ قَصِيرٍ
 وَسُرْعَانِ مَا تَنْعَكَسُ عَلَيْهَا آثَارُ الْبَاطِنِ السَّيِّئِ فَتَذْهَبُ بَرُونِقُ طَلَاوتِهَا
 وَتَنْكَشِطُ قَشْرَةُ حَلَاوتِهَا وَمَلِكٌ مَصْرٌ لَمَّا وَقَفَ مِنْ غِيَابِ عَلِيِّ عِلْمِ يَوْسُفَ
 وَبِرَآءَتِهِ مِنَ الْهِنَاتِ أَحَبَّ أَنْ يَقِفَ عَلَى ظَاهِرَتِهِ وَأَنَّهَا كَيْفَ هِيَ حَتَّى
 يَتَأَثَّرَ لِذَلِكَ بِمَقْدَارِ قُوَّةِ الْمُؤَثِّرِ فَلَمَّا رَأَاهُ وَضَاءَ الْجَبِينِ حَلُوَ الشَّمَائِلِ حَسَنًا

المنطق قوى الحجة زاده ذلك رغبة فيه وكيف لا يزداد رغبة فيه وهو بحواسه الظاهرة يرى وجهاً وسيما وقواماً رشيداً وعلماً جماً وقاراً مالئاً للبصر وادباً ناضجاً وحسن تفرس وصدق نبوءة وعلى اثر ذلك قال له أنك اليوم لدينا مكين أمين بمعنى ان لك مكانة مرموقة لعامّة نواحى الخير التى فىك فقال له اذا كنت لديك كذلك فاجعلنى على خزائن الأرض ومعنى ذلك انه وزير ماليّة واقتصاد لان هاتين الوزارتين لها اثر قهّار فى حفظ الشعوب وتقديمها الى جانب التحسّن وكذلك مكناً ليوسف اى وكما انجيناها من المعاطب رقيناه فى الدرجة وثبتناه فى مجارى الحياة .

* (و جاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون : و لما جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من ابيكم الا ترون انى اوفى الكيل وانا خير المنزلين : فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون : قالوا سنراود عنه اباہ وانا لفاعلون : و قال لفتيانہ اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلّهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم لعلّهم يرجعون) *

تأتى السنون السبع الشداد فيصيب الناس ما يصبهم من القحط و من جملتهم آل يعقوب فيجمعهم ابوهم و يقول انه يباع طعام بمصر و الناظر عليه رجل صالح فتجهزوا اليه ففعلوا و ساروا حتى وردوا مصر و دخلوا على يوسف فعرفهم و ان طالت الشقة بينه و بينهم لكن الاخوة لم يعرفوه لما تمركز فى اذهانهم اما موته و اما حياته عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء و اين هو و هذا المقام فلما نظر اليهم يوسف و كلموه بالعبرانية قال لهم و من انتم و ما شأنكم قالوا نحن قوم من ارض الشام اصحاب ماشية و قد اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادى فقالوا ما نحن بجواسيس و اما نحن اخوة بنو اب واحد هو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم و لو كانت لك معرفة بأبينا لكرمنا عليك فانه نبي ابن انبياء و انه لمحزون قال و ما الذى احزنه و لعلكم انتم لعدم برّكم به سبب حزنه قالوا لم يأتته الحزن من قبلنا و لكن كان له ابن صغير و خرج معنا يوماً الى الصيد فأكله الذئب فلم يزل بعده حزينا عليه فقال لهم كلکم من اب و امّ قالوا اما ابو نا فواحد و لكن امهاتنا

شئى قال فما حمل أباكم على ان سرحكم كلكم ولم يحبس عنده واحدا منكم يتسلّى به قالوا قد فعل حبس اصغرنا لانه شقيق الذى هلك منا قال فمن يعلم ان الذى تقولونه حقّ قالوا يا ايها الملك انا ببلاد غربة لا يعرفنا احد فقال يوسف ائتوني بأخيكم الذى هو من ابيكم ان كنتم صادقين وانا رضى به قالوا ان ابانا يحزن على فراقه و سنراوده عليه قال فضعوا عندى رهنا على ما تقولون فاقترعوا فأصاب القرعة احد الاخوة و اسمه شمعون فخلفوه عنده ولما كالم لهم و جهّزهم بجهازهم اوعز الى غلمانهم ان يردّوا المال الذى اشتروا الطعام به عليهم من دون ان يشعروا به و ذلك بأن يدّسوا المال فى الطعام لعلهم اذا رجعوا الى اهلهم وقصّوا على ابيهم القصّة و وجدوا بضاعتهم ردت اليهم يحملهم ذلك على العودة اليه سريعا : ولما جهّزهم بجهازهم وهو الطعام الذى امتازوه اذ لا جهاز عندهم غيره قال ائتوني بأخ لكم من ابيكم اشارة الى بنيامين شقيق يوسف فان قيل سلف انهم لأمهات شتى فمن اين يستشعران المراد هو شقيق يوسف قلنا يستشعر ذلك من كلمة ائتوني بأخ لكم من ابيكم - الأخ بوصف الأفراد - فان الباقيين وان كان كل قبيل منهم اخوة من اب لكنهم متعددون و ليسوا فرادى ، ثم اطعمهم بقوله الآ ترون انى اوفى الكيل ولا انقصه خصوصا مع حراجة الوقت و انا خير المنزلين لاضيافى لاأعنت بهم بل أراعيهم و ادا ربيهم و احسن اليهم ما استطعت فان لم تأتوني بمن اردت منكم فلا كيل لكم عندى فيما تستقبلون من ايامكم ولا تقربوا ديارى قالوا سنراود عنه ابائنا و نتلطف معه و انا لفاعلون ما تريد و قال لفتياناه و الفتيان اصطلاح فى الغلمان و الخدم اجعلوا بضاعتهم التى امتازوا بها هذا الطعام فى اوتيتهم لعلهم يعرفون المقصد من ردّها اليهم وهو انى فى غايته

الاحسان معهم و يعلمون بذلك اباهم فيلين لهم اكثر و حتى يسرعوا
فى العودة الى و معهم اخوهم الذى هو طلبتى و رافع و حشتى ، و هنا
يأتى الحديث عن عنوان (حسن المنقلب) فنقول :

قلّما يتاح لانسان ان تكون جميع ادواره متكافئة متساوية و خصوصا
على الخير و الاستقامة و الصلاح فأن ذلك اعزّ من كل عزيز نعم قد يقضى
الانسان عمره على الرذيلة من بدئه الى ختامه و ذلك كثير فى الجوامع
الفاقة للهداه الواقعيين و انما قلّ الفريق الأول و كثر الفريق الثانى
لان الصلاح و الخير لا ينتجان الاّ عن تربية صادقة من مربين لهم
جدارة هذا من ناحية و من ناحية ثانية نفس الرضوخ للتربية و الاستمرار
على طريقتهما يحتاج الى رياضة و مجاهدة و كلتاهما من الامور الصعبة
بخلاف الاستمرار على الرذيلة فانه ابسط من كل بسيط لانه من هوى
النفس الحيوانية فأن النفوس الحيوانية تحب البخل و هو رذيلة و تحب
الانكماش و الجبن و هما رذيلة و تحب الغدر لان فيه عدم مسؤولية تتحمل
الوفاء بالعهود و الوعود و الغدر رذيلة و تحب الاسترسال فى
الشهوات كالزنا و الغنا و الرقص و القمار الى غير ذلك و هو كله رذيلة
و باعتبار انها سهلة المؤنة على النفس بل مرغوبة لها كان الاراذل فى
العالم هم العدد الجمّ و الرقم الضخم فى كل دور و باعتبار ان الفضيلة
ثقيلة على النفس بل هى ممقوتة لديها حتى تنضج بالرياضة الواقعية
الخلقية كان الافاضل فى العالم فى جانب اقلية بل ندرة و عزة وجود .

نعم يحصل فريق هو وسط بين الأراذل و الأفاضل و هذا الفريق
الوسط هو الذى ينشأ على الجهل بادئاً ثم يتوجه الى نقصه فيأخذ فى
تربية نفسه فيصير بعد ان كان رذلا فاضلا و بعد أن كان سيئا يصير
خيّرا فتكون له عاقبة حسنة يغطى بها على ماضيه الاسود هذا فى الامور

التربوية و تارة تتبدل حاله من فقر الى غنى و من خمول الى معروفية و من شقاء فى الحياة الى نعماء فيها فهذا احسن حالا من الذى يعيش فى رخاء بادئا و على معروفية أولا ثم بعد ان يعطى قواه يحيق به زمن ضيق و انخفاض سمعة و ضآله شخصية .

و يوسف بن يعقوب من ناحية السير الحيوى اقترن به حسن المنقلب المادى فصار ملكا مُخَوَّلا بعد أن كان عبداً بيع بثمان بخرس دراهم معدودة ملكاً محسناً الى رعيته قيماً عليهم بجدارة و ذلك ما يُفصل بعضه فى القرآن الكريم .

* (فلما رجعوا الى ابيهم قالوا يا ابانا منعنا

الكيل فأرسل معنا اخانا نكتل وانا لله

لحافظون : قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم

على اخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو ارحم

الراحمين : ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم

ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغى هذه بضاعتنا

ردت الينا ونمير اهلنا و نحفظ اخانا و نزداد

كيل بغير ذلك كيل يسير : قال لن ارسله معكم

حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتتنى به الا ان

يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول

و كيل) *

رجع الأخوة الى مناطقهم اراضى كنعان فدخلوا على ابيهم يعقوب

و سلموا سلاما ضعيفا يشعر باستكانة فقال لهم مالكم تسلمون سلاما

ضعيفا و مالى لا اسمع فى اصواتكم صوت شمعون فقالوا يا ابانا جئناك

من عند اعظم الناس ملكا ولم نرفى الناس مثله حكما وعلما و اتزاناولئبن
كان لك شبيهه فهو يشبهك و لكننا اهل بيت خلقنا للبلاء و المحنة انه
اتهمنا و زعم ان لا يؤمن لنا حتى نجيئه بابنك بنيامين برسالة منك اليه
لتخبره عن حزنك وما الذى احزنك و امسك اخانا شمعون و ثيقه على
ذلك و منعنا الكيل فى المستقبل فارسل معنا اخانا بنيامين نكتل وانا
ان شاء الله له لحافظون فهزّت الذكريات هنا أباهم فقال هل آمنكم
عليه الا كما امنتمك على اخيه من قبل فالله خير حافظا لى وله من حفظكم
و تعهدكم وهو ارحم الراحمين بى لشيخوختى و عجزى و حزنى وبه
لوحدته و صغر سنه و قلة حيلته ولما فتحوا اوعية طعامهم و جدوا اثمانهم
ردت اليهم فسروا غاية السرور و قالوا ماذا نريد يا ابانا كيل وافى بلا
من و لا ثمن هذه بضاعتنا ردت الينا فالبضاعة للكيل المقبل موجودة
لا تجشمننا سعيا فارسل معنا اخانا فلعلّ هذا الانسان يجلنا اكثر مما
سلف منه الينا و ماذا نحاول بعد ذاك ميرهلأهلنا و حفظ لأخينا و زيادة
كيل بعير من اجل بنيامين لان يوسف كان يكيل لكل رجل و قر بعير
و ماجئنا به كيل يسير لا يقوم بحاجتنا ولقد لطفت هذه المقدمات من
عاطفة يعقوب و لكن قال لن ارسله معكم حتى تأتونى موثقا من اللّٰه
بعهدٍ او يمين لتردونه علىّ و ترجعون به الىّ الا ان يحاط بكم فتهلكوا
جميعا فلما آتوه موثقهم الذى اراد منهم قال يعقوب اللّٰه على ما تقول
شاهد و معين و حينذاك ارسل معهم بنيامين ، وهنا يجىء البحث عن
عنوان (ماهو الرصيد لصون البشرية اعمال النفوذ بلا ايمان او الأيمان
وحده) فنقول .

يتصور الرصيد لحفظ البشرية بين ثلاثة امور (١) ايمان بالمبادئ

الحية خارج اطار المادة بلا داع قوة (٢) واعمال النفوذ وحده بلا

ايمان (٣) وايمان مشفوع بقوة .

(١) اما الأيمان ذاته فهو عقيدة بالجنان واطهار باللسان وعمل بالأركان والمؤمن على رسله لسانه واركانه تابعة لجنانه فاذا اعتقد الانسان بشىء كان قريبا من المستحيل عليه ان يخالف ما آمن به و من هنا نعرف ان الفاسقين والعصاة لا ايمان لهم بما يعترفون به الا لفظا و الا فمن المستحيل ان يخالفوا ما آمنوا به عن اختيار من انفسهم فالذى يؤمن بالصدق لا يكذب و الذى يؤمن بالعفة لا يزنى و الذى يؤمن بالقناعة لا يطمع و الذى يؤمن بالوفاء لا يغير و الذى يؤمن بالأباء لا يذل فاذا كان الفرد و المجتمع عالين بالمبادئ لا وحوشاً بهائم لا يعرفون غير الاكتراش و مؤمنين بما سرد عليهما من علم صار المجتمع صالحا بطبيعة الحال يعمل بما يؤمن بدافع عقيدته من دون ان تكون هناك عصا مرفوعة على راسه لان وجود العصا حينذاك يعتبر زائداً بل تعدى على حرمة المؤمن و وقاره و مثال هذه القاعدة المثاليون من بنى آدم فانهم لم يقربوا حقوق الأغيار ولم يريدوا غير حقوقهم ان ارادوها الا بدافع العقيدة المحضة .

(٢) واما اعمال النفوذ وحده بلا ان يكون فى البين علم ناجع و ايمان به فلا يعطى سوى التخريب و التهجم لان الجاهل كالمجنون و كالحيوانة غير المسوسة المرخى لها فانها لا تعرف غير العيث والعبث و كذلك كان الجهلة فى بنى آدم كالحجاج و اضرايه و جنكيز و اخوانه و لينين و عترته و هتلر و من لفّ لفه فقد عانت البشرية فى امثال هذه الأذوار كل اذى و كل محنة دماء بريئة مراقبة و مال منهوب بلا حـق و انسان سجين بلا مدرك و مبعـد عن وطنه و اهله بالرغبة و الشهوة .

(٣) واما الايمان المشفوع بقوة فان القوة مع الايمان كما اسلفنا

لا مجال لها نعم القوة اذا امسكها مؤمن عرف كيف يصرفها في غير المؤمنين و اذا ملكها غير المؤمن اطاح بالمؤمنين و وسع اطار الجهل كما ان الامور كذلك في نوع النافذين .

و يعقوب لما اراد موثقا من بنيه بالنسبة الى بنيامين لم يرد منهم سندا و امضاء و انما اراد التعهد الوجدانى لعلمه ان السند الأجوف من الايمان به قابل لأن يُجَبَّث به و اما التعهد الوجدانى فلا .

* (و قال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد و ادخلوا

من ابواب متفرقة و ما اغنى عنكم من اللّٰه من شىء ان

الحكم الاّ للّٰه عليه توكلت و عليه فليتوكّل

المتوكّلون : و لما دخلوا من حيث امرهم ابوهم

ما كان يغنى عنهم من اللّٰه من شىء الاّ حاجة

فى نفس يعقوب قضاها و انه لذو علم لما علمناه

و لكن اكثر الناس لا يعلمون) *

كان فى الكلمة الوداعية من يعقوب الى بنيه أن امرهم بالأنتشار و التوزع عندما يدخلون ابواب مصر فأن التستر و التخفى عن الناس فى الشؤون الخاصة من اهمّ مؤمنات الراحة و السلامة للحيشية فان الناس الاّ من هذب اخلاقه و طبّقها على اخلاق الشريعة يتسرعون الى التهم و يتقولون من عند انفسهم بلا ان يسمعوا قولا او يعوا حد يثا و يعقوب راعى هذا المعنى فى قافلة بنيه فأنهم اذا دخلوا المدينة اوزاعا لم تعلق بهم الأنظار فلا يتحدث عنهم متحدث بشىء سارّ او مسىء ثم قال اقول ذلك كما يتقاضاه التدبر العقلى منى على ان اللّٰه اذا اراد شيئا كان مفعولا ما لحكم بالسراء و البأساء الاّ للّٰه عليه توكلت

وعلى الله فليتكول كل متوكل فان الله للجميع لا لخصوص انسان ، ولما دخلوا مصر من ابواب متفرقة كما امرهم ابوهم ما اغناهم ذلك من شىء اريد بهم فقد ابتلوا فى هذه السفرة بلاءً حيرهم وازعجهم فى الحياة فقد حجز عنهم بنيامين و اشيع عنهم انهم سرقوا صواع الملك و تعطل كبيرهم عن الرواح معهم الى ديارهم و رجعوا الى ابيهم و كلهم اوجاع و الآم كما قررلهم ابوهم حيث قال وما اغنى عنكم من الله من شىء ان الحكم الآ لله نعم توصيته لهم بما وصاهم به حاجة فى نفسه قضاها و تدبير فعله عن علم و حنكة انه ل ذو علم يضع الهناء مواضع النقب و ذلك لأننا علمناه و لكن اكثر الناس لا يعلمون و لذلك تراهم سادرين فى الغى غرقى فى الجهل بعيدين عن الصواب ، وهنا يأتى التحدث عن عنوان (التكتم فى الحياة) فنقول :

لا شك ان البشرية المنتشرة على اكناف الكرة فى الأعم الأغلب تسود عليها خلال الحيونة من شره و حسد و لؤم فترى الانسان ومهما اوتى من حطام الدنيا غير متوجه الى ما عنده من نعمة لا يستطيع ان يتنعم بها ومهما اوتى مزاجا وقوة بل كل همّه مصروف الى ما عند الناس ولو انه قدّر له و ضمّه الى ما يملك لبقى كما له الخاص به فى حال انه لو كان عاقلا و انسانا كما يدعى لنفسه لتوجه الى من دونه بمراحل حيث يفقد الضرورات الحيوية فيعيّنه من فضول ماله و يريش حاله بالزائد الذى لا يستفيد منه سوى جرّ الحوادث لنفسه و الابتلاآت على روحه و اهله نعم هذه الخلّة هى التى اصرت الشرائع السماوية و خريجوا مدرستها عليها ليعيش الناس با تزان لا يقال ان هذه النزعة موجودة فى برامج الشيعيين قلنا ان كانت هذه النزعة موجودة فبطور مادى فاقد للمعنوية بالمرّة ان الشرائع الحقّة كالاسلام تصرّ على تهذيب الأخلاق حتى انك ترى

المهذب من نفسه يفعل الفعل الحسن و يحمل الأغيار على فعله بالمنطق و الشيوعية ان ادعت تقريب الضعفاء من الأقوياء فبالقول المجرد أولاً بدليل ان أهم و أضخم تمكّنها تصرفه على قادتها و تنمية القوى المدمّرة و المعاملة بها على استعمار الشعوب الضعيفة لتدخلها فى حوزة نفسها و تمتصّ دماؤها أما الشرائع الحقّة فهى بعيدة عن هذه المآثم بالأسرف فلا تخصيص لقادتها بشيء ولا تسويغ لتنمية القوى المدمّرة الا بمقدار ما تصون نفسها و رعاياها من خبط العابثين بها ولا تتاجر باموال الناس لتستعمر الشعوب الضعيفة و يتضح هذا الخلق جلياً فى فى نبي الاسلام و اصحابه العارفين الذين ترسموا خطواته و فى امير المؤمنين على بن ابي طالب و خريجي مدرسته و بعبارة اخرى يتضح هذا فى المسلمين الواقعيين وهم من اشرنا اليهم فلما كان البشر المنتشر بالوصف الذى عرضناه و جب على الانسان ان يتكتم بشؤنه الخاصة عن اعين الناس حتى لا يجرّ لنفسه البلايا و الدواهي من طريق حسد الناس له و حقد هم عليه و ترصد هم للأيقاع به لؤماً و خسة طبع نعم لا يجوز التكتم بالعلم النافع فان السكوت عن هدى البشرية فيها شاعة للجهل فيها و ارباك لحياة الناس فأن الانسان الجاهل فى ضرره على نفسه و على مجتمعه اخسّ و اسوأ من كل سيء و خسيس كما تشهد به بشرية الدنيا فى عصرها المادى الحاضر و على اثر لزوم التكتم فى الشؤون الخاصة اوصى يعقوب بنيه بوصيته التى ذكرتها الآية .

* (و لما دخلوا على يوسف آوى اليه اخاه قال
 انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون : فلما
 جهّزهم بجهّازهم جعل السقاية في رحل أخيه
 ثم اذن مؤذّن ايتها العيرانكم لسارقون : قالوا
 و اقبلوا عليهم ماذا تفقدون : قالوا نفقد صواع
 الملك و لمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم
 : قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى
 الارض و ما كنا سارقين : قالوا فما جزاؤه ان
 كنتم كاذبين : قالوا جزاؤه من وجد فى رحله
 فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين : فبدأ
 بأوعيتهم قبل و عاء أخيه ثم استخرجها من وعاء
 أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان لياخذ اخاه فى
 دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من
 نشاء و فوق كل ذى علم عليم) *

لما دخل اولاد يعقوب على يوسف قالوا هذا اخونا الذى امرتنا
 أن نأتيك به فقال احسنتم فأنزلهم و اكرمهم و أضافهم و قال ليجلس كل
 بنى أم منكم على مائدة فجلسوا كما اراد فبقى بنيامين قائما مفردا فقال
 له يوسف مالك لا تجلس قال انك قلت ليجلس كل بنى أم على مائدة
 و ليس لى فيهم ابن أم فقال يوسف هكذا كنت من الاول قال لابل كذا
 لى شقيق قال فما فعل قال يزعم هو لاء ان الذئب اكله قال فما بلغ من
 حزنك عليه قال ولد لى اولاد كثيرون فاشتقت لكل واحد منهم اسما من
 اسمه فقال له يوسف اراك قد عانقت النساء و شممت الولد من بعده قال

بنيامين ان لى ابا صالحا وهو الذى امرنى بالتزوج و قال لعلّ الله يخرج منك ذرية تثقل الأرض بالتسيح فقال له يوسف تعال فاجلس معى على مائدتى فقال اخوة يوسف لقد فضل الله يوسف و اخاه علينا حتى ان الملك يجلسه معه على مائدته ولم يرد بقوله انا اخوك تعريفه بذلك انه هو يوسف بل كان منظوره انا اخوك على هذه المائدة حيث تفقد الأخ الشقيق فلا يكن عليك بأس بما كان اخوتك يفعلونه معك و مع اخيك فلما جهزهم بالميرة وملأواوعيتهم بالطعام بدأ يعمل لما يلمّ شعثهم من طرف خفى ، وهنا يتوجه سؤال انه ما كان المانع من الأصحار لهم بانه هو يوسف من بدء معرفته لهم و مالداعى لارتكاب هذه المشاق و ادخال هذه الآلام عليهم و على ابيه قيل فى الجواب انه شرعى لا عقلى و انّ الله خطط له هذه الطريقة ليكون اجرهم على قدر مشقتهم و يتوجه سؤال آخر ان آل يعقوب كيف لم يميزوا ان هذا هو يوسف اخوهم بعد ان عرف الملك و ملأه انه ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم لان يوسف نفسه عرفه بنسبه عندما تعرّف عليه ليستخلصه لنفسه فيجاب ان هذه المعرفة مقصورة على الملك و خاصته ولم تتسرب الى الناس حتى يتناقلوا حديثه فيتصل بيعقوب و بنيه و يسأل ايضا ان التوصل الى هدف مشروع هل يبرر ارتكاب القبيح وهو الكذب يجاب بان الكذب الاستلصاحى ينزع عنه قبحه فهو كذب غير قبيح كقول ابراهيم بل فعله كبيرهم هذا وجاء عن ابى عبد الله الصادق انه قال ما سرقوا ولا كذب يوسف، و الذى عمله يوسف للّم شعثه بأهله من طرف خفى هو انه امر بعض فتياته ان يجعل السقاية فى رحل بنيامين و السقاية هى المشربة التى كان يشرب منها الملك ثم جعلت صاعا فى السنين الشداد يكال به الطعام ، فلما فقد اصحاب يوسف صاعهم نادى مناد منهم

يا اصحاب القافلة انكم لسارقون قال اصحاب العير فى حال اقبالهم على اصحاب يوسف ماذا تفقدون ايّتها الجماعة قالوا نفقد صواع الملك و الصواع و الصاع لفظان بمعنى واحد و لمن جاء بالصاع حمل بعير من الطعام يُعطاه مجاناً و انا - اى المنادى - ضامن له الّفت هذا النداء نظر اخوة يوسف من بين اصحاب القافلة فقالوا مقسمين تالله لقد علمتم ايّها القوم ما جئنا من اهلنا الى دياركم بغية الأفساد و التلصص و ماكنّا فيما مرّ علينا من اعمارنا سارقين قد يقال ما الذى صحّ نسبة العلم الى اصحاب يوسف بحال اخوته و انهم اناس امناء فيجاب انهم لاحظوا عليهم انهم لا يحملون ظاهرة اللصوص ولا اوصافهم وقد نقل انهم ردّوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم و قالوا قد يكون وضع ذلك فى رحالنا غفلة و نسيانا فلما تنصلوا من نسبة السرقة اليهم قال اصحاب يوسف فما جزاء السارق ان ظهر فيكم قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه يعنى يكون رقاً جزاء خطيئته هذه فبدأ بالتفتيش لأوعيتهم قبل وعاء بنيامين لئلا تظنّ بيوسف الظنون اذا بدأ بتفتيش وعاء بنيامين و استخراج الصاع منه ثم استخرجها اى السقاية وهى الصاع من وعاء اخيه فأقبل اخوة بنيامين عليه سباً و طعنا و قالوا فضحتنا و سودت و جوهنا متى اخذت هذا الصاع فقال وضع هذا الصاع فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم فعرفنا يوسف بسبب يتصل به الى مقاصده كما تسبب اخوته قبلا بما يهلكه و يُعقم مستقبله و ما كان ليوسف ان يأخذ اخاه لنفسه و يفصله من اخوته فى دين الملك و نظامه السياسى الآن يشاء الله له طريقاً يوفى به على هذا المقصود و الطريق هو ما بيننا و نرفع من نريد رفعه و علّوه درجات بالعلم و النزاهة و النبوة و سائر خلال الخير و فوق كل ذى علم عليهم حتى تنتهى حلقات السلسلة الى الله

خالق الكلّ، و هنا يأتى البحث عن عنوان (حقيقة الكذب وما هو الجائز منه) فنقول :

الكذب هو الأخبار عن الشئ بخلافها هو عليه فى الواقع والهدف منه اضلال الطرف لينتفع به الكاذب أمّا نفعاً مادياً كالكذب فى مقام البيع والشراء و سائر الامور المادية وأمّا نفعاً غير مادى كالكذب فى مقام تجهيل الطرف ليستفاد من جهله فان الجهلاء مطايا الأذكياء كما يرى ذلك فى اغوّات العوام و كلا الكذابين لَمّا كانا بمنزلة الغدروا الختل للأخ فى النوع كانا من الكبائر الموبقة لا يرتكبهما الاّ باعة الضمائر و من هنا ترى الشرع يصّر على التنديد بالكذب .

نعم هناك كذب استصلاحي ولا ضرر فيه على احد جوزه الشرع للفوائد التى تكون عنه كاستصلاح الزوج لزوجته و الوالد لولد هو الأصلح لذات البين و الوصول الى مقصد واقعى لا يتضرر به احد و ذلك ان يعد الزوج زوجته الجاهلة بالماديات ليطامن من عنجهيتها وتنزيها عليه و الوالد من ولده ليمشى على الجادة المعقولة و قول المصلح بين الطرفين اللذين مشت الوشايات بينهما من التمامين وهو من الذين سمع من كلّ منهما قذعاً فى طرفه اننى لم اسمع من طرفك فى حقك الاّ الخير نعم سمعته يعتب عليك ولم اسمعه سابقاً لك وهو بهذه الرياضة يحاول التلاقى و التدانى بينهما وأمّا استصلاح الاوضاع العامة فنظير قول ابراهيم لأقوامه عندما كسر اصنامهم بفأس وجعله على كتف الصنم الكبير الذى ابقاه و سئل من فعل هذا الفعل فأجاب بأن كبيرهم فعله فاسئلوهم ان كانوا ينطقون بوجه من غباوتهم انكم انما تعبدون احجارا ليس بها نفع ولا ضرر و ليس بها ان تخصم او تقنع فمن هذا الجواب استشعر الملاء انهم كانوا ضالين اشدّ الضلال غاوين اشدّ الغواية اذ

قضا اعمارا على عبادة مالا يعقل ولا يتكلم وليس به ان يدفع عن نفسه
 اقل مكروه يوجه اليه و نظير ما فعله ابراهيم ما فعله المتباحثون حول
 العقيدة لأجل التبكيث و الأفحام و كذلك ما فعله يوسف فى دسه الصواع
 فى رحل اخيه ليستبقيه عنده و يكون ذلك فاتحة اجتماع له بأهله جميعا
 و هذه الأنواع التى هى كذب بظاهاها لما كانت فاقدة لسيئة
 استجهال الطرف و الاستفادة من اغوائه كانت بالاسم كذبا لا بالجواهر
 الحقيقية و عاكست الكذب الذى هو من الكبائر بأن كانت هى بحسب
 المنفعة المترتبة عليها من الحسنات و الفضائل .

* (قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شرّ مكانا والله اعلم بما تصفون : قالوا يا أيّها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا فنخذ احدنا مكانه انا نراك من المحسنين : قال معاذ الله ان نأخذ الآ من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون : فلما استئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن ابرح الأرض حتى يأذن لى ابي او يحكم الله وهو خير الحاكمين) *

لما رأى اولاد يعقوب كيف استخرج يوسف سقاية الملك من جهاز اخيه قالوا له تبرءة لساحتهم و تصديقا لما سبق منهم انهم ما جاؤا ليفسدوا فى الأرض ولم يكونوا فيما مضى عليهم من اللصوص ان بنيامين ان يسرق فقد سرق اخ شقيق له من قبل فليست سرقة لصواع الملك عجيبة واصل هذه النسبة كما روى ان عمّة يوسف وكانت اكبر ولد اسحاق تحضنه بعد وفاة امه و تحبّه جدا فلما ترعرع اراد يعقوب ان يسترده منها و كانت عندها منطقة اسحاق فاحتالت و جاءت بالمنطقة و شدتها على وسط يوسف و ادعت انه سرقها و كان من سنتهم استرقاق السارق جزاءً لجريمته فحبسته بهذا السبب عندها ولم تسلمه لأبيه فأسرّ يوسف كلمتهم فقد سرق اخ له من قبل فى نفسه ولم يظهرها لهم و يحملهم على التزوير فى حقه و هكذا لم يبدر قوله انتم شرّ مكانا لانكم

فعلتم بيوسف الافعال الشنيعة و سرقتموه من ابيه بالكذب عليه و اللّٰه اعلم بما تصفونه من نسبة السرقة الى يوسف، فلما اخذ يوسف بنيامين جريا على القاعدة ان السارق يسترق سقط في ايدي القوم و انهم كيف يرجعون الى يعقوب وقد اخذ منهم موثقا بارجاع بنيامين اليه الا ان يحاط بهم جميعا و وجدوا ان لاحيلة الا بالتوجه الى نفس العزيز و التشبث به فقالوا يا ايها العزيز ان له اباً شيخا كبيرا فخذ احدنا مكانه و ارجعه الينا لنرجعه الى ابيه انا نراك محسنا للناس عامّة و لنا خاصة قال اعوذ باللّٰه ان ءاخذ البريء بالمجرم ولو اخذت احدكم مكانه كنت ظالما فلما يئس اولاد يعقوب من اخيهم و انه رهن قد استغلق خالصوا من الناس و انتحوا جانبا لفردهم يجيلون الرأى فيما يفعلون و يتخذون من خطة فقال اكبرهم سنّا او عقلا ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من اللّٰه قالوا فعَل ذلك قال ومن قبل ما فرطتم في يوسف و كنتم قد عاهدتم اباكم في ارجاعه سالما اليه قالوا فعَلنا ذلك قال امّا انا فلن ابرح ارض مصر ولا اخطو عنها شبراً حتى يأذن لى ابي فى الرجوع اليه او يحكم اللّٰه لى بما يراه من فكاك اخى فنرجع جميعا و بموتى فأرتاح من المسؤوليةّ وهو خير الحاكمين و هنا يأتى البحث عن عنوان (مرارة الحق و حلاوة الباطل) فنقول :

قد يستغرب العاقل هذا العنوان فيقول ان الحق الذى هو عصارة البراهين العقلية و الوجدانية و التجريبية و به قوام كل شىء كيف يكون مرّاً و الباطل الذى هو منبوذ العقول و الوجدانات و التجاريد يكون حلوا ، امّا كون الحق هو عصارة البراهين العقلية و الوجدانية و التجريبية و به قوام كل شىء ، فان ذلك يعرف بجلاء حيث يتوسط العاقل بين اثنتين لا يمتان اليه بصلة و ليس بينهما و بينه اقلّ مَبْعَد

و مقرب فيرى احد هما كيف يعتدى على الآخر عامدا قاصدا مختارا فيريق دمّه لا لداع مشروع بل لنزوة نفس لا غير فهناك من غير توقف ان كان يملك قدرة تراه يقدم الجانى و يضرب عنقه و يرى نفسه باقتصاصه من الظالم قد حقق واقعا توفيق لتحقيقه و انه لم يفعل الا ما هو وظيفته العقلية الشرعية الوجدانية و التى بها يحفظ الباقين من ارتكاب هاتى الخطط الوحشية فألى هنا ثبتت للحق حلاوة لا مرارة اما المرارة فتجىء حيث يكون احد هما قريبا لهذا القاضى فان قتل الجانى القريب قصاصا يكون مرّا عليه و تراه يحاول المحاولات الكثيرة لأذابة هذا القصاص و تمويعه و ما اكثر العواطف التى تجعل هذا الحلو مرّا من رشوة و شفاعة و قرابة و محبة الى غير ذلك و الأنسان بدافع الحقيقة يهوى الحق فى المطالب المشكلة عليه لكنه بعد ما يتجلى له افلاسه بحق تراه يكره الحق .

و نسوق لك قصة من قضاء على عليه السلام فقد تخاصم رجلان اليه فقالا يا امير المؤمنين اننى انا فلان و هذا الذى معى فلان انا كان معى ثلاثه ارغفة و الذى معى كان معه خمسة فلما صار موقع الظهر جلسنا للغداء فوضعنا ارغفتنا الثمانية بيننا لنأكل فمر علينا انسان دعونا للغداء فجلس فأكل و أكلنا جميعا و انتهينا من الأكل بانتهاء الارغفة الثمانية فلما قام الرجل اعطانا ثمانية دراهم لكان ما اكل من طعامنا فقال حينذاك صاحب الارغفة الخمسة لك منها ثلاثة دراهم بارغفتك الثلاثة ولى منها خمسة بأرغفتى الخمسة فلم اقبل وقلت لا بد من تنصيفها بينى و بينك فلم يقبل و جئناك لتحكم بيننا فقال له الامام اقنع بما فعله الرجل معك فقال لا اقنع الا بمر الحق (وهو يحسب ان مر الحق) يعطيه نصف الدراهم وهو لهذه الخاطرة اراد الحق ولو علم بمر الحق

لما طلبه فقال له الأمام ليس لك في مَرَّ الحقّ الآ درهم واحد وله سبعة دراهم فاستغرب الرجل ذلك وقال اعطاني ثلاثة فلم اقبل و انت دعوتني الى قبولها فلم اقبل وتقول لي الآن لك درهم فقال عليه السلام انما اعطاك ثلاثة على حساب ارغفتك ولو كان يعلم بوجه الحساب الصحيح لم يعطك الآ ما يخصك وانا انما دعوتك الى القبول لأنني وجدته راضيا بما دفع اليك فلم امنعه عما رضى به فقال له بين لي وجه ذلك حتى اقبل فقال انكم ثلاثة جلستم على هذا الخوان واكلمت ما عليه ولا يعلم الأكثر ولا الأقل أكل منكم فتحملون على التساوي ونحن اذا قسمنا الأربعة كل رغيف ثلاثة اثلث كانت اثلث الأربعة الثمانية ٢٤ ثلثا اكلت انت منها ٨ وصاحب الدراهم ٨ وصاحب الخمسة ٨ وارغفتك انما تساوي ٩ اثلث اكلت منها ٨ فلم يبق لك الا ثلث واحد وارغفته خمسة تساوي ١٥ ثلثا اكل منها ٨ بقي له ٧ اثلث فلك بواحدك واحد وله سبعة فهناك بهت الرجل وتمنى انه لم يسأل وبقي على ما عرض عليه صاحبه فيكون احرز ثلاثة دراهم مكان درهم واحد وعلى هذا المنوال صورة ما كان بين يوسف واخوته بالنسبة الى بنيامين .

* (ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا اباانا ان ابنك سرق
وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب
حافظين : وسئل القرية التى كنا فيها والعيير
التى اقبلنا فيها وانا لصادقون : قال بل
سوّلت لكم انفسكم امراً فصبر جميل عسى الله ان
يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم :
وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت
عيناه من الحزن فهو كظيم : قالوا تالله تفتوء
تذكر يوسف حتى تكون حرصا او تكون من
الهاالكين : قال انما اشكو بثى وحزنى الى
الله واعلم من الله ما لا تعلمون : يا بنى اذهبوا
فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تياسوا من روح
الله انه لا يياس من روح الله الا القوم
الكافرون) *

الذى قال ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا اباانا ان ابنك سرق هو الذى
قال لا ابرح الأرض وهو كبيرهم وانما قال قولوا ان ابنك سرق لينزّه
جانبه و جانب اخوته و انهم ليسوا بسرّاق بخلاف ابنك العزيزين عليك
يوسف و بنيامين و ما شهدنا عليه بالسرقة الا بما رأينا من اخراج صواع
الملك من جهازه و عندما اعطيناك موثقا بأرجاعه اليك لم نكن نعلم ما تكنه
المقدرات لهذا الانسان فنحن انما تعهدنا بحفظه من الطوارىء
القابلة للدفع لا بحفظه من كل شىء و ان تك فى شك من مقالتنا فاسئل
اهل مصر فانه قد شاع عندهم نبأ ابنك و سرقة للصواع او اسئل القافلة

التي كُنّا فيها وانا لصادقون فيما اخبرناك به فلما رجعوا الى ديارهم وقصّوا قصّتهم على ابيهم قال لهم انا اتّهمكم على ما تقولون بل سوّلت لكم انفسكم أمراً و الحقتم الأخ الاصغر بالأكبر وقضيتم على الطرفين فصبر جميل ولا يأس من رحمة الله فعساه يأتيني بهم يوسف و بنيامين و الولد الأكبر الذي بقى فى مصر ولم يرجع مع اخوته خجلاً من ابيه و اعرض يعقوب بعد أن تمّت عليه الحادثة بفراق ثلاثة من اولاده عنّ حضره و هاجت به الذكريات هيجانا منقطع النظير و قال يا أسفا على يوسف كلمة قالها عن عميق حزن وقد أعطيت أمّة محمّد بدل هذه الكلمة ما لم يعط الأسبقون حتى الأنبياء انفسهم مثلها وهى انا لله و انا اليه راجعون فأنها تفيد من التسلية ما لا تفيد تلك فكوننا لله اننا ملك غيرنا و كل مملوك لا بدّ من رجوعه الى مالكة فليس فى البين ما يهتّم له اهتماما زائدا ، و ابيضت عيناه من الحزن بأن غطّى الحدقتين غشاءً فابيضت لكنّه كان كاظما لغيبه لا يشكو الى الناس ما به فقال له ابناؤه تالله لا تنفكّ عن ذكر يوسف حتى تشرف على الموت او تموت قالوا ذلك تبرماً ببيائه و حزنه اذ يرونه منغصاً لحياتهم قال لهم انما اشكو بثى همى و غمى الى ربّى لا الى احد و اعلم من الله فى رأفته ورحمته ما لا تعلمونه انتم و يعقوب بما سبق به من رؤيا يوسف لم يتحقق موته بل نفسه عالقة بحياته ، يا بنى اذهبوا الى مصر فتحسسوا من يوسف و اخيه و انما لم يذكر الثالث لانه تحت اختيار نفسه بخلاف بنيامين فأنّه مقبوض عليه و بخلاف يوسف ايضا ولا تقنطوا من رحمة الله انه لا يقنط من رحمة الآ الجاحد له و هنا يأتى بحث عن عنوان (الرجاء و الأمل و اليأس و القنوط) فنقول : الرجاء و الأمل معناهما مدّ النفس فى مكاتفة الحوادث و الصروف باستطلاع التغلب عليها و متى كان الانسان كذلك حصل فى نفسه عدّة

(١) انه لا ينكسر امام الحياة و مهما اشتدّت و تكالبت بل يتشجع

منتظراً الانتصارَ عليها و التغلبَ على تصاريفها و القدرةَ على دكّها .

(٢) انه يستمرّ مثمراً منتجا .

(٣) انه لا ينهار فان الأنهار مقدّمة الموت .

و اليأس و القنوط معناهما تكبير حجم الحوادث و تكثير آثارها

السّيئة و متى حصلت في الانسان هذه الروح زرعت فيه عدّة عوامل مُردّية .

(١) انه حتى لو كان قوياً صالحاً للمجادلة ترى اعضائه تهن عن

القيام بالوظيفة فيستولى عليه خصمه الرابط الجأش و حتى لو كان مكسوراً

في الواقع مفلساً من القوّة .

(٢) انه يقف عن العمل اذ لا يرى في عمله جدوى له .

(٣) انه ينهار فوراً و يموت عاجلاً .

و يعقوب كان من اهل الرديف الأوّل و لذلك لم يهين و هنا مؤثراً

على عزيمته و ان اثر على جسده و لذلك تراه يستجيب لبارقة الأمل كلما

اريد منه ما به انجاز عمله و نستشعر هذا من قوله فصبر جميل عسى الله

ان يأتيني بهم جميعاً هذا وقد قرّرت الشريعة ان اليأس من روح الله

من مزايا الكفرة بالله على ان الكافر الشهم لا يجوز له أن ييأس ايضاً

فان الصدف في الدنيا لا تكاد تحصي فربما يتفق للإنسان ما به مخرجه

من المشكّلة .

* (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا
 واهلنا الضرو و جئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا
 الكيل و تصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين
 : قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف و اخيه اذا انتم
 جاهلون : قالوا ^٤ أنك لأنت يوسف قال انا يوسف
 و هذا اخى قد من الله علينا انه من يتق
 و يصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين : قالوا
 تالله لقد آثرك الله علينا و ان كنا لخاطئين
 قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم
 الراحمين : اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على
 وجه ابى يأت بصيرا و اتونى بأهلكم اجمعين) *

استجاب اولاد يعقوب لأبيهم فخرجوا الى مصر لما دعاهم ابوهم
 اليه وللميرة ايضا وقد كضت بهم الحال فلما دخلوا على يوسف قالوا له
 يا أيها العزيز مسنا واهلنا الضرو و آثر بنا الجوع و الحاجة و جئناك
 ببضاعة قليلة لا تقوم بواجب ما تكيل لنا من طعام فأوف لنا ما كنت تكيلنا
 أنفا و تصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين ان فى هذه الدار او فى
 الدار الآخرة و جاء عن ابى عبد الله الصادق عليه السلام ان يعقوب
 كتب الى يوسف بسم الله الرحمن الرحيم الى عزيز مصر و مظهر العدل
 و موفى الكيل من يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن أخبرك
 ايها العزيز انا اهل بيت لم يزل البلاء سريعا الينا من الله ليبلونا عند
 السراء و الضراء و ان المصائب تتابعت على طول سنين عديدة أولها
 انه كان لى ابن سميته يوسف و كان سرورى من بين ولدى و ان اخوته

من غير أمه سألوني ان ابعثه معهم يرتع و يلعب فبعثته معهم بكـره
فجاؤنى عشاءً يبكون و جاؤا على قميصه بدم كذب و زعموا ان الذئب قتله
و أكله فاشتد لفقده حزنى و كان له اخ و كنت به معجبا و كان لى انيسا
و كنت اذا ذكرت يوسف ضمته الى صدرى فسكن بعض ما اجد وان اخوته
ذكروا لى انك سألتهم عنه و امرتهم ان يأتوك به والاّ منعتهن الميـرة
فبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحا فرجعوا الىّ و ليس هو معهم و ذكروا انه
سرق صواع الملك و نحن اهل بيت لانسرق وقد حبسته عنى و فجعتنى
به فمنّ علىّ بتخليه سبيله و اوف لنا الكيل و عجل سراح آل ابراهيم
فمضوا بكتابه الى يوسف و قالوا يا أيها العزيز مسنا و اهلنا الضـر
_ الآيه _ فأخذ يوسف كتاب يعقوب و قبله و وضعه على عينيه و بكى حتى
بلّت دموعه قميصه ثم اقبل عليهم و قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف و اخيه
بهذا الاستفهام أعلمهم انه هو يوسف و ان الذى اخذه بتهمة السرقة
اخوه شقيقه وفى هذه الآيه مصداق لقوله تعالى لتنبأنهم بأمرهم هذا
وهم لا يشعرون ، وقوله اذ انتم جاهلون استدراك حسن دفع عنه خجل
المقابلة بأنهم كانوا فيما مضى جهّالا اما الآن فليسوا كذلك و قالوا له
٤ انك لأنت يوسف فلم يقل فى جوابهم انا هو بل قال انا يوسف ليترتب
على هذا الاسم فى خاطرتهن ما رتبوه على مسماه من ذى قبل و هذا
بنيامين اخى و قد تحمّل نظيرا ممّا تحمّلت فكما حبست عن غير جرم كذلك
هو قد منّ الله علينا بالاجتماع بعد طويل الأفتراق انه من يتق الله
و يصبر يجعل له مخرجا و الله لا يضيع اجر من احسن الى نفسه و غيره
قالوا قسما بالله لقد فضلك الله علينا و اننا كنا خاطئين فقال لهم
يوسف لا تثريب ولا لوم عليكم اليوم و بعد ما مضت شقق و فواصل من الزمان
و وصلت بنا القضايا الى هذه الحدود المحمودّة يغفر الله لكم وهو

ارحم الراحمين ثم قال لهم اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه ابي يرتد بصيرا و يذهب بياض عينيه و اتوني بأهلكم جميعا حتى يجتمع شملنا و تذهب عنا و حشتنا و نعود كما كنا أَلْفَا ، وهنا يأتي الحديث عن عنوان (الصبر و حسن الصنيع) فنقول :

لاشك ان للحوادث الجسمية اثرا فعّالا على ظاهرة الجسم و قرارة الروح فأن تأثرهما بذلك امر طبيعي لا تمكن الحيلولة عنه نعم العاقل المتزن يلزمه ان يتلهّى عن تلك الآثار بما يصرف عنها لانه اذا التهى بها لاعنها اخذه الجزع و ملكه فظهر على لسانه فشمت به الشامت و تأثر له المحبّ و ذلّ بدنه بذلّة نفسه ولم يُحَصِّل من كل ذلك الاّ على الضرر الواضح و التأثير الفاضح اما اذا التهى عنها بغيرها فقد حفظ متانته و امسك بدنه عن الأنهيّار و نفسه عن الذوبان و بقي هو و الصدف المساعدة فاذا كان للحادثة تلافٍ تلافاه و الاّ تناساها و التناسى يثمر النسيان هذا من وجهة طبيعية واما من وجهه شرعية فان للصابر اجر الشهيد كما ورد في آثار عديدة واما حسن الصنيع فان السيئة الصادرة عن توجه من لازمها العقليّ التأديب قصاصا من المتجرم بغير حقّ و حسما لتنزيهه على الباقيين هذا لون القضية في مزاجها النوعي نعم هناك مناسبات و خصوصيات تقتضى خرق هذا النظام (منها) ان يقتدر الإنسان بعد الضعة فيكون باستطاعته العفو عن شرف و قدرة جلبابا للمنحرف الى الطاعة هو و من كان على غراره فهناك يتنزّل عن حقه الشخصي كما تنزّل نبيّ الاسلام عن مشركي مكة (و منها) بعدُ زمة الجريمة بما اوجب محوها فان تجددها فيه إهاجة للنائم واطاحة بالقائم وهو امر غير مستحسن (و منها) ما يكون صلة للرحم و جلبابا لمرضاة الله كما فعل ذلك يوسف فيما تحدّث عنه القرآن .

* (و لما فَصَلَت العيرُ قال ابوهم اَنى لأجد ريح
يوسف لولا ان تفندون : قالوا تالله اَنك لفى
ضلالك القديم : فلما أن جاء البشير ألقاه على
وجهه فارتد بصيرا قال ألم اقل لكم اَنى اعلم
من الله ما لاتعلمون : قالوا يا ابانا استغفرلنا
ذنوبنا انا كنا خاطئين : قال سوف استغفرلكم
ربى انه هو الغفور الرحيم) *

استجابةً لأمر يوسف حيث قال اذهبوا بقميصى ساقوا قافلتهم بجدّ
وعندما شارفوا اوطانهم قال يعقوب لحضّاره من احفاده انى لأحسّ
بريح يوسف لولا ان تسفهونى قالوا تالله اَنك لفى اغراقك السابق فى
يوسف فى حال ان الفاصلة الزمنية بينك و بينه سنون طوال فحضّاره انما
فندّوه فى تلهجّه بيوسف بعد أن تصرّمت الليالى و الأيام و انه فى زعمهم
هالك و تالف لافى انه كيف يشم ريح شىء ليس بازائه فان الشمّ القوىّ
قد يلقف الرائحة عن مسافة فلما ان جاء البشير يبشره بحياة يوسف وانه
هو عزيز مصر جاء معه بقميص يوسف فألقاه على وجهه كما امر بذلك
فنشطت قوّته و استعاد بصره و قال لأولاده ألم اقل لكم عندما امرتكم
بالتحسس عن يوسف و اخيه انى أعلم من لطف الله و رحمته ما لاتعلمون
قالوا يا ابانا سلف منّا ما سلف فاستغفر لنا ذنوبنا انا بلا ريب كنّا
خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى و انما سوف بالاستغفار لتقرّ نفسه
و يتناسى بدخول السرور عليه غمومه و همومه السالفة ان ربى هو الغفور
فى مظانّ المغفرة الرحيم فى مواقع الرحمة، وهنا يأتى الحديث عن
عنوان (المؤمن ينظر بنور الله) فنقول :

شمّ القضايا و التنبأ فيها و الحكم عليها يكون على نحوين (١) متمحض بالمجاري الطبيعية (٢) مشوب بالتطلعات الغيبية والاول شأن المنقطعين للطبيعة وان اعترفوا بوجود الخالق لها و الثانى شأن المعتقدين بالله الذين يرون ان تصريف الطبيعة ليس الى ناموس علمى لا يزول ولا يتخلف دائما و الفريق الاول اكثر افراد البشرية عددا فيسأل لم قلّ الفريق الثانى و كثر رقم الفريق الاول فيجاب بأن صانع الكون مع كونه اول منظور اليه بالفكر عند التساؤل النفسى عن علة عجائب هذا الكون و غرائبه فانه آخر ملتجأ اليه عند الانسان لان سير الاسباب و المسببات الظاهرية لا يلتقى معه تعالى فى عرض الطريق مثلا الانسان المعوز بمجرد ان تقع عينه و تعلق نفسه بالواجد لا يفكر فى الاتصال بموجوديه الا من طريق القوة بالنهب و السلب او بالسرقة و الغيلة فيراه يؤمن بالمائة مائة ان اعمال القوة او الحيلة قد لا يتصل بمقصده كما لا يفكر بطريق آخر انه يوفى به على التيسر و الخروج من مأزم التعسر لا من هذا الثرى ولا من اى منبع آخر و تراه عندما يتسائل مع نفسه او يطرح حديثه بين اخوانه و اترابه يعود مأيوسا من نفسه و من حد يث الناس معه بأنه كيف تتسير مقاصده من جهة لا يتصورها فهناك تراه يزداد يقينا بأن الدرب الوحيد للمعوز هو درب السلب او السرقة ويرى ان هذه العقيدة لا تتنافى مع عقيدته بان هناك صانعا صنعه و صنع الكائنات كلها .

و اما الذين يؤمنون بأن تصريف الطبيعة ليس على اطلاقه منوط بالعلل الطبيعية الظاهرة لما يقفون على نتائج فى ضمن مجارى الحياة لا ترتبط بالسير الطبيعى مثلا زراعان متلاصقان فى المزرع فان الوضع الطبيعى فيهما قاض بأنهما متكافئان اما فى غزارة العائد او فى قلتها

و لا يحسبان ان زحّة مطر تصيب احد يهما ولا تصيب الأخرى او زحّة برّد تصيب احد يهما دون الأخرى و صاحب اللباقة و الذكاء و الحيلة يرى له الناس انه موفق على كل حال و البسيط الساذج انه محروم و صاحب الأخدان و الاعوان انه مصون و من لا احد عنده انه مهان محروم لكن المجارى الانحرافية عن سير الطبيعة الكثيرة حقيقة تبرهن بوقوعها على انها ممّا تشل حركة الاسباب الطبيعية و تعقمها عن الانتاج و شواهد التاريخ لذلك بلا حساب و لا يحصيها محصّ انصافاً .

و ليس معنى التدين الصحيح هو انكار تسلسل الاسباب و المسببات و فوضوية العوامل فى الحياة فان ذلك ممّا يورث ازعاجا فى كل المسيرات و تبلبلا فى كافة الاوضاع كما انه ليس من الحقّ التمسك فقط و فقط بالظاهرة الطبيعية و ان كل امر لا يناط على مجاريها لا يمكن و لا يكون فان ذلك كفر بالصانع قطعاً و مناقض لما تراه الحاسّة اخيراً فالرسم الصحيح هو ان الانسان اذا رأى ان السير الطبيعى ليس الى جانبه بحسب التسلسل السببى و المسببى و ان حيلته بحسب الظاهرة اللائحة منحصرة بالأنهيار على الاسباب و المسببات المعقولة أن لا يعود مأيوسا من منفذٍ لا سلب فيه و لا سرقة فاذا آمنّ نفسه بذلك الذى لا يتصور سببه فعلا متأثراً بنظائره فان نفسه تقرّ به عن ان يكون سلاباً سارقاً و تبقى نفسه عالقة بحسن الظن بالله و تتوقع مندوحة ليس منها الآن عيّن و لا اثر و كذلك كان المؤمنون يصنعون و من جملتهم يعقوب بن اسحاق .

* (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه ابويه وقال
ادخلوا مصر ان شاء الله آمين : ورفع ابويه
على العرش وخرّوا له سجّدا وقال يا اباست
هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا
وقد أحسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء
بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بينى
وبين اخوتى انّ ربى لطيف لما يشاء انه هو
العليم الحكيم : ربّ قد آتيتنى من الملك
وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات
والارض انت وليّ فى الدنيا والآخرة توفنى
مسلمًا والحقنى بالصالحين : ذلك من انباء
الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا
امرهم وهم يمكرون) *

على اثر رجوع اولاد يعقوب اليه برسالة يوسف امرهم ان يجمعوا
رجالهم من يومهم ويسيروا مجدّين فوصلوا الى مصر بعد مرور تسعة
ايام فلما دخلوا على يوسف اعتنق اياه ورفعاه ورفع خالته على سريّر
الملك والأيواء هو الضمّ والأنزال وانما قال آمين لانهم ماكانوا
يدخلون مصر الا بخفير وخرّوا له سجّدا اى من اجله فهو العلة فى
السجود لله وهناك قال يوسف لأبيه يا اباست هذا تأويل رؤياى التى مرّ
عليها عشرات من السنين قد جعلها ربى حقا اى حقّها وطبقها على
الخارج والنزغ هو الأفساد وجاء فى الأثر عن الصادق عليه السلام ان
يوسف دخل السجن وهو شاب ومكث فيه بضع سنين وبقي بعد خروجه

عمرا طويلا منعما مكرما و تاقت نفسه حينذاك الى آباءه فتمنى الموت فقال و الحقنى بالصالحين فتوفى فدفن فى مصر و اخرجته موسى معه حين خرج من مصر ذلك الذى قصصناه عليك من قصة يوسف بتفاصيلها من انباء ما غاب عنك نُوحِيه اليك لتأخذه بعبرة و تتسلى به و ماكنت يا محمد عند اولاد يعقوب عندما عزموا على تنفيذ ما برّوه لأخيهم يوسف تأمينا لأهوائهم و معنى ذلك ان الحسد يدعو الى ما لا يحمد ، هنا يأتى البحث عن عنوان (النعمة و المحرومية بين المؤمن و فاقد الايمان) فنقول :

الحالات التى تعتور حياة الفرد يمكن تصويرها على انحاء فمرة يعيش منعما على مدى الحياة و اخرى يقضى عمره على الشقاء مدى الحياة ايضا و ثالثة ينعم فى اول عمره و ينغص فى باقيه و رابعة ينغص فى اوله و ينعش فى آخره و خامسة ينهض و يسقط و يقوم و يطيح على طول الخط .

و النعماء و البأساء تارة يكونان بتسبيب و سعى من نفس الانسان و اخرى يكونان بالقدر الخالص و ثالثة بالأشتراك من القدر المحض و السعى الكادح بحسب الظاهر و هذه الحالات تارة تصادف ايماننا قويا و اخرى لا تصادف ذلك فأما المؤمن فانك تراه يشكر الله على كل حال لا تبطره النعمة ولا تقبضه الشقوة نعماء له و لغيره و مأساته لا يبدىها للباقيين أما غير المؤمن فان النعمة تبطره فتفسده و البأساء تأسره حتى يعود من باعة الضمير و اعوان الظلمة و الحالات المتبادلة خيرها للفرد العادى نعيم العاقبة حيث يصادف و هنا فى الجسم و رذالة فى العمر بخلاف زمن الشبيبة فان الشباب بنفسه بضاعة يحتمل معه الجوع و العطش و العراء و الكد هذا كله لو كان التبادل بقضاء

محض و ان جهته كشف قيمة النعمة و شدة وقع النعمة واما اذا كان
البؤس بسبب الاسراف و الافساد و سوء الاختيار فأن فيه اثما تكليفيًا
بتضييع المال و جريمة و ضعية بضيق خناق المعيشة و كدورة الحياة
و يوسف عليه السلام و ابوه كانا من اهل الايمان فقد كُتِفَاهُذِهِ الْمَشْكَلاتِ
بِالطَّمَأْنِينَةِ وَ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَ لَمَّا حَصَّلَا عَلَى النِّعْمَةِ جَاهًا وَمَالًا صَرَفَاهُمَا
فِي عِبَادَةِ اللَّهِ شُكْرًا لِلَّهِ وَ قِيَامًا بِالْوِظَيفَةِ وَلَمْ تَبْطُرْهُمَا النِّعْمَةُ حَتَّى يَتَّخِذَاهَا
وَ سِيلَةَ اضْلالٍ وَ اغْوَاءٍ وَ اسْتِعْمَارٍ وَ اسْتِثْمَارٍ كَمَا انْهَمَا حِينَ ابْتَلِيَا لَمْ
يَتَذَمَّرَا وَ لَمْ يَشْكُوا إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

اذا فالإنسان القابل للصلاح و الإصلاح هو الانسان المؤمن
لاغيره و ماهاجت الدنيا و ماجت الآل لفقدان بذه البذرة فان فاقد ها
جزوع اذا افتقر، متملق اذا اعوز، لصّ اذا اعسر، بائع ضمير و دلال مظلمة
إِذْ أَقْصَرَتْ بِهِ الْأُمُورُ، لَا يَعْرِفُ الشَّرْفَ وَلَا يَزِنُ الْكِرَامَةَ، وَ لَيْسَ إِنْسَانًا بِالْمَرَّةِ
وَ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَأَنَّهُ الشَّرِيفُ الْعَفِيفُ النَّزِيهُ الطَّاهِرُ الْعَالِي النَّظَرُ فِي كَافَةِ
حَالَاتِهِ فَإِذَا اسْتَعْنَى لَمْ يَبْطُرْ وَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ حُدُودِ الْإِنْسَانِ إِلَى ضِرَاوَةِ
الْحَيَوَانِ، وَ شَاطِرٌ بِنِعْمَتِهِ الْمَعُوزِينَ، وَ وَاسِي الْفَاقِدِينَ، وَ إِذَا افْتَقَرَ صَبَرَ
وَ زَادَ تَعَزُّزًا وَ قَنَاعَةً وَ لَمْ تَتَلَوْ بِهِ الْحَاجَةُ إِلَى أَنْ يَكُونَ دَلَالًا مَظْلَمَةً أَوْ
بَائِعَ ضَمِيرٍ أَوْ لَصًّا شَحَاذًا فَهَذِهِ الْآيَاتُ يَسْتَفَادُ مِنْهَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا
أَيْسَرَ أُنْعَشَ وَ غَيْرَ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَيْسَرَ بَطَشَ وَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَعْسَرَ شَرَفَ وَ
تَعَفَّفَ وَ غَيْرَ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَعْسَرَ سَخَفَ وَ تَسَوَّلَ وَ أَنَّ تَعَثَّرَ الْعَالَمُ دَائِمًا
نَتِيجَةً لِسَيْطَرَةِ الْأَوْغَادِ عَلَيْهِ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ يَبْطُرُهُمُ النِّعْمُ وَ يَعْجِزُهُمُ
الْبُؤْسُ وَ أَمَّا كَانَ الْإِيمَانُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَرْبِيَةٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَوَازِينِ الْمَبَادِيءِ
الصَّحِيحَةِ وَ أَمَّا كَانَ غَيْرَ الْإِيمَانِ بِالْوَصْفِ الْآنْفِ لِأَنَّهُ إِفْلَاتٌ لِلنَّفْسِ فِي
أَوْدِيَةِ الشَّهْوَةِ وَ غَمَسٌ لَهَا فِي تِيهِ الضَّلَالَةِ .

ونريد بالأيمان التربية الصحيحة القائمة على أسس المبادئ
الحية المنظور بها سعادة الانسان لا تأمين شهوته تلك الأسس التي
من اجلها كانت الهجرة من ديار الشرك الى ديار الايمان من افضل
الأعمال و كان المهاجر له قيمته فان نبي الاسلام (ص) لما شاهد ما عليه
عقلاء الجاهلية فضلا عن جهالها من عادات ساقطات كابتزاز حقوق
الضعفاء بالقهر والتكبر من غير رصيد يدعو الى ابراز التكبر والتعنت
فى الجهل إدعاءً لحفظ الكيان والعزة واستعلاءً على الحق دعاهم
الى ان يهجروا ما استطاعوا سكنى البادية العارية من الكمال واذا لم
يستطيعوا هجرها ان يتناوبوا على المدن لأجل الاستفادة من اهل
الكمال لتخف وحشيتهم وتتطامن عنجهيتهم ولما كان هو (ص) رصيد
المدينة و استاذها خرج من مدرسته افضل من غمار بشر الجاهلية
لا عديل لهم ولا بديل اولئك الذين تلمذ عليهم مثاليوا اعصار الاسلام
حتى اصبح الواحد منهم مضرباً للمثل فى الشهامة والكرامة وعلو النظر
و بعد الهمة فهذا هو المنظور بالهجرة لا ما عليه قرى اليوم و مدنها
فان قراها ان التاثر بشيء من الوحشية والخسونة فقد ارتطمت مدنها
بكل قدر حيث اصبحت العفة فيها مفقودة و الأمان مهدداً و العلم
رهن الماديات و العمل محض الشهوات ولا ريب ان القرى فى حاضرنا
خير من المدن التى نعانى مشاكلها .

فالمؤمن كما يريد الله و العلم الصحيح سواء هو فى نفسه منعماً
كان ام محروماً فان تنعم لم يبطل ولم يتخذ نعمته سلاحاً للفساد و
الأفساد و لاجاهه حربة لأشاعة الظلم و لا قوته آلة لهدم القائم و الأطاحة
بالعامر و التهجم على الناس و ان حرم لم يجزع ولم يتملق ولم يصبر
شحاذاً او دلال مظلمة او آلة مسخرة ينبعث الى كل ما يراد منه و أما

غير المؤمن فهو لفقدانه روح الايمان يعيش في النعمة و المحرومية بين
روحين متناقضتين فانه اذا و اتته النعمة كان من طريقها مجنوناً في آرائه
و تطبيقاته يعبث و يعيث بصورة سمجة و اذا حرم استخذي و باع ضميره
لأقلّ اجر يتناوله وقد شاهد الناس كل ذلك بأعينهم أما يوسف ويعقوب
فهما ملاك المؤمن الواقعي فأنهما في سنّي البلاء و المحنة صبرا و لسم
يشكوا ما بهما الا الى ربهما و في زمان الرخاء أسديا كل جميل و فعلا
كل حسن و صانا انفسهما كما صانا غيرهما و عفوا عن آذاهما بالعفو
الجميل .

* (و ما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين : و ما

تسألهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعالمين

: و كآين من آية في السموات و الأرض يـمـرون

عليها وهم عنها معرضون : و ما يؤمن اكثرهم

بالله الا وهم مشركون : أفأمنوا أن تأتيهم

غاشية من عذاب الله او تأتيهم الساعة بغتة

وهم لا يشعرون) *

الحرص هو طلب الشيء بأصرار و كآين بمعنى كم و الغاشية هي
المغطية المجللة للشيء و البغتة هي الفجأة أبان تعالى لنبيّه ان
اكثر الناس مصروفون لحواسهم الظاهرة و شهواتهم الهائجة و لذلك
لا يعيرون المعنويات طرفا حتى يتميزوا خيرا و يتذوقوا طعمها
و الايمان من مبادء المعنويات و لا ربط له بالماديات لهذا يجب عليك ان
لا تستكثر عليهم ما فيهم من نهم الى الشهوة هذا و انت لا تطلب منهم في
قبال تعليمك لهم اجرا على التعليم و انما تريد تغذية عقولهم بما

تكبر به شخصياتهم و تصلح حياتهم هم هو ءلاء كم من آية في السموات و العوالم العلوية و الارض و المناطق السفلية لو امعنوا النظر فيها لاستحصلوا من طريقها كل عبرة لكنهم يَمرون عليها و كأنهم لم يشاهدوها ولا هي واقعة نصب اعينهم ولذلك ترى وجودها بخصائصها العظيمة كعدمها في انظارهم لا تحرك منهم ساكناً ولا تُلغى منهم خاطراً ولوانهم آمنوا بالله و اعتقدوا به لم يبعد بهم ايمانهم عن الكفر به لانهم سرعان ما يتخذون له شركاء بسعة ما توحى اليهم او هامهم او يوحى به طرار يريد ان يعيش على اكتافهم بالخرافات يلقيها اليهم و الخيالات يجسمها لهم أفامن هو ءلاء ان تأتيهم من الله غاشية من عذاب تجلّل جميع وجودهم فلا تبقى عليهم ولا تذر او تقوم قيامتهم من دون أن يشعروا بمقداماتها ، و هنا يأتي بحث عن عنوان (السير في الآفاق و الأنفس) او (التقديمية و الرجعية) فنقول :

المنظور بالآفاق هنا ما يقابل النفس من نام و جامد و متحرك و هامد و انسان و حيوان و المنظور بالسير المادّي هو كثرة التطلع الى الاشياء و بالسير المعنوي هو التدقيق في المطالعة و البحث و الفحص لأجل درك الواقع الذي هو الغاية المتوخاة لعقلاء الناس لان كل شيء منوط بالواقع سواء كان واقعه ملذودا للنفس ام غير ملذود مثل لا تروق الحمية للشهوة النفسية ولكن واقع بقاء الحياة منوط بها لا بالشهوة فانه لا يأتي عن الشهوة الآ الموت العاجل و هكذا البناء المحكم المتمركز على اساس رصينة هو واقع المحافظة على النفس في الأعاصير و الأهوية المزعجة و الطوافين ولو كان لا منظر له ولا طلاوة فيه لا البناء الملون في ظاهره الأجوف في باطنه اذاً فالمعيار في الحياة الصحيحة هو مراعاة واقع الأشياء فلا الذهاب الى الأمام سعادة كما تطلق على ذلك كلمة

التقدمية و لا الرجوع الى الوراء شقاء كما تطلق على ذاك كلمة الرجعية فالذى يضحى ويحكم بنيانه من الطين لأجل حفظه من الطوارئ فى عصر اعتيد فيه التزويق بلا إحكام لا يقال له رجعى لانه اختار لنفسه خلاف ما عليه ظاهرة المجتمع هذا أولا و اما ثانيا فليس كل جديد هو عصارة عقل ولا كل قديم هو نتيجة جهل فكم من جيل متقدم فى الزمان هو انضر و افضل من الاجيال المتأخرة عنه مثلا نحن اذا نظرنا الى مدينه الرسول إبان ازدهارها بالرسول و الصحابة الاماجد و قسناه الى المدينه فى حاضرها و جدنا هناك من الفروق ما لا يعد ولا يحصى و هكذا لوقسنا العراق زمان ازدهاره بعلمائه فى ازهى عصور العباسيين بأزمته المتأخرة كالمعاصرة للعثمانيين لوجدنا من الفروق الشئ الكثير و اما ثالثا فان التقدم الذى يُعنى فى هذه الأزمنة فأنما هو بنسيان القيم و فقدان الاخلاق و فساد الآداب و الضغط بأقسى صورته و الفتك بالناس و الاستخفاف بهم و بكراماتهم و لا ينجع فى عرض ذلك شيعوس الوسائل المادية فتقدم الناس اليوم تقدم فى الأسفاف و القشور و تأخر فى الحقيقة و الانتاج و هذا ما اشارت اليه الآية بقوله تعالى يمررون عليها وهم عنها معرضون يعنى ان اكثر الأفراد يمررون على الحقيقة و يدركونها ولكنهم على عمد يعرضون عنها و لازم ذلك وقوعهم فى المآزم و المهوى أفامنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله او تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون .

* (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة آنا
ومن اتبعنى و سبحان الله و ما انا من المشركين
: وما ارسلنا من قبلك الا رجالاً نوحى اليهم من
اهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف
كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير
للذين اتقوا أفلا تعقلون) *

قل يا محمّد للناس بلسان جاهر سبيلى و طريقى هى الدعوة
للحقّ و بيان الحقيقة و نبذ مفاصد المادة و تعديل جوانب الحياة كل
دعوتى الى الله علة العلل و ماقرّره من نظام للمعيشة ادعو الى ذلك
على معرفة به و تحقّق منه ولسان كل من اتبعنى يصدّق لسانى و يقول
بقولى و سبحان الله عن كل ما يشين بقدسه و ما انا ولا من اتبعنى
بصدق ممن نشرك بالله بعد العقيدة به و الدعوة اليه و سلفك يا محمّد
من الرسل مثلك فى الهدف و الدعوة الى الحق الصراح ولم نرسل الا
رجلا لان المرأة تقلّ عن الرجل فى الخصائص الطبيعية و الذهنية و من
الحضر دون البدو لأنّ الحاضرة اثقف من البادية أفلم يسر اولئك
المذبذبون عن الحقيقة فى الآفاق لينظروا مواقع رحمة الله من غضبه
بالنسبة الى من عاش قبلهم من مؤمن و ملحد هذا من ناحية الدنيا
و لدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون يا اولى الألباب، وهنا يأتى
البحث عن عنوان (الحياة الفاضلة و الحياة الفاشلة) فنقول :

يجب علينا هنا ان نلقى نظرة مثبتة فى الأنسان و انه ما هو فى
ما هيته معروف من اهل المعقول انهم يعرفون الأنسان بأنه حيوان
ناطق و يرون ان الحيوانية جنسه اى هى الجزء المشترك بينه و بين

غيره من الحيوانات وان الناطقية بمعنى الإدراك العقلانى فصله اى
 انه المائز الذاتى الذى يميّزه عما عداه من كل شىء على الأخص انواع
 الحيوان التى تشترك معه فى الحيوانية و دليلها على ذلك فى جنسه و
 فصله انه من ناحية الجنس جسم نامى متحرك بالارادة حسّاس ومن
 ناحية الفصل اشعاعات عقله فى الخير لافى الشرفان دواعى الشر
 حيوانية محضه نعم اشعاعات العقل هى التى قامت بالفلسفات العالية
 والحكمة الراقية والآراء الثاقبة و درّبت اناسا كانوا فى بادئهم وبيئتهم
 سواسية مع الوحوش فى الأنحطاط و التسفل و التخلق بأخلاق الذئاب
 و الكلاب حتى احوالت منهم جبارين فى عقولهم عظماء فى آرائهم قهارين
 فى اخلاقهم العملية بعيدين كلّ البعد عما تتقاضاه الحيوانية حتى
 كأنهم ليسوا من الحيوان فى قليل ولا كثير على انه جزئهم الذاتى و حجر
 كيانهم الاساسى و ذلك فيما تجلّى للعوالم من ناحية المثاليين الذين
 لا يجد النقد النزيه اليهم سبيلا ، لافى طائل ولا فى غير طائل .

كما انه معروف بين اجيال البشرية اللاحقة التنديد بالعهدود
 الحجرية و ان ناسها كانوا كالسعالى و الغيلان فى صور بشعة و نزعات
 قدرة و انهم اخسّ من كل خسيس فلا صور جميلة ولا سِيرٌ محموده
 ولا مجتمعات منظمة ولا حكومات مسيطرة ولا قوانين صحيحة ولا فضل
 ولا فاضل ولا تمجيد بالأفاضل ولو كانوا قليلين فى الوجود الخارجى او
 فى الكيان الذهنى و يلوون عن ذلك جانبا و يقولون د ع ذاك عنك فانه
 ليس محطة لحدث المتحدث من البشر و يأتون الى القرون الوسطى
 و يسمونها على ما فيها من صنعة و ثقافة تلائمان تلك الأزمنة بانها
 عهود استبداد و احتكار و تفرعن القوى بالضعيف فلا انتخاب فيها للزعيم
 ولا انتداب فيها عن الأمة و لا انتقاد فيها على لسان صحيفة او مجلة او

أية وسيلة أخرى إلا للحكام المستبدين يقتلون الناس عن غير محاكمة و ينهبون اموال الناس من دون مشاورة و ليس لديهم قانون اشرفت على تقنينه الأمة و كل ما هناك إعنات و إرهاق و تلصص و اختناق و مثل هذا لا يقال له ولا يحقّ فيه إلا كلمة الموت و الفناء بأبشع صورهما و اردل مفاهيمهما كما لا يقال لأهله اناس و بشر بل وحش كاسر و حيوان هامل و مجتمعات مفككة و ادوار سمجة ، فأين الحياة اذا ، قالوا، في هذه العهود التي لفت بساط الاستبداد و التفلتات و الآراء الفردية و تحكّم البعض بالبعض بميزان النفوذ و القوّة فما زعيمها إلا بانتخاب من الأمة و حرّية في الآراء و ذلك لأمد محدود ايضاً على ان تكون خطاه في تلك المدة محدّدة بنواب الأمة و شيوخها فلا يرفع قدما عن قدم الآ بعد عرضه عليهم و أخذ رأيهم فيه اولئك الذين انتخبهم الناس باختيار منهم فكانوا ممثلين عنهم هم الذين يدوّنون القوانين باكثرية الآراء او باجماعها وهم الذين تعرض عليهم هيئة الدولة فان رضوا بها ثبتت و الا انهزمت تلك الحياة التي هيأتها القضائية تنتخب من اهل الصلاحيات ولا تقع تحت تأثير احد، ذلك القضاء الذي يحاكم حتى زعماء الممالك الى نظير ذلك في كل اشياء الناس من اصغر بلدية فانها لا تكون إلا بالانتخاب الصادق الى اعظم كانون يلى امور الناس هذا من حيث السياسة و أما من حيث العلم فحياة اليوم هي الفاقدة للأمية الواجدة لشتى انواع الفنون و العلوم و المعاهد و المدارس كل ذلك مشفوع بالاحترام و الجدارة و التوقير و الحرّية في القلم و اللسان و التدريس و اعطاء الشهادات و ماذا يتطلب البشر بعد هذا من حياة مفهومية مصداقية هكذا يقول العصر الحاضر و نحن بعد ان ضرستنا التجاريب لا يجوز لنا ان نكون اشباحا بلا ارواح و اصحاب ابصار تهزّها المناظر بدون بصائر

تمخض هذه الظواهر واولى اسماع تسمع الألفاظ المعسولة ولا تذوق معانيها العسلية طبعاً لا يجوز ان نكون قشريين حتى لا نؤكل للذئاب و نكون طعمة للكلاب و آلة مسخرة يعيث بنا العايب اذا فأول فحص لما نقوم به هو ان نقسم العالم الى شرق و غرب ثم بعد ذلك الى شيوعية و رأسمالية ثم الى دول اسلامية و غير اسلامية اما الغرب الرأسمالى فالظاهرة فيه اليوم لأمرىكا و تتبعها على ذلك بريطانيا و فرنسا و ألمانيا و دول تلف لقفها و تملك مثل الظاهرة التى تسود عليها و اما الغرب الشيوعى فروسية و زافتها فى الشرق و الغرب و اما الممالك الاسلامية فكثيرة و فيرة و ان كانت كل مملكة منها اما للشرق و اما للغرب فى النزعات السياسية و الاستلحاق الدولى ، اما الدول الشيوعية و محورها روسيا فهى و ان استطالت بألياتها الحربية و كمالياتها الحيوية فأنها مشفوعة باختناق و كبت تمجّجها النفس ولا تهواها و تتأثر منها العاطفة و تنكمش عنها و انما حكمت هذه النزعة الناس بالقهر الذى لا يغالب و اعمال النفوذ الذى لا يبارز من اى فرد او اية جماعه و كل مملكة اسلامية انضوت تحت سماء الشيوعية فأنها رأّت و ترى من الوان الأضطهاد و الاختناق و العبث و العيث ما لا يوصف بلسان ولا بيان و تفقد هذه الحكومات كل حرّية فى كل شىء و انما هى آلات مسخرة لا تملك من نفسها حولاً ولا رأياً ولا موتاً ولا حياة و ان يوجد شىء من التنعم فأنما هو لمد يرى حركاتها و مدبرى حكوماتها كلاً بحسبه من الشأن و المقام فهذه الدول فى توحشها و ظلمها و طغيانها اشدّ و اوجع و انكى من عهد الحجر و من القرون الوسطى و من كل وقت لانها تملك من وسائل التخريب و التدمير و التنكيل و التعذيب ما لم تره العيون و لم تسمع به الآذان و لم تقف على مثله ادوار البشرية كلها فالانسان فيها لا مفهوم له ولا مصداق

ولاحقاً ولا اى شىء يفرض ومع هذا الاختناق فلتبلغ الكماليات اى مبلغ، واما الدول الرأسمالية التى فى طبيعتها اليوم امريكا فهى على انها ذات طول فى المعدّات الحربية و الكمالات الحيوية بحيث اصبحت تمون العالم الاّ انها تملك لافرادها و شعوبها شيئاً من الحريات الصحيحة ففيها انتخابات تقرب من الصحة لرؤساء جماهيرها ونوابها و شيوخها و رؤساء بلديتها و فيها احترام الرؤساء للمندوبين واخذ الحذر منهم لقد رتهم على اسقاطهم بالاسباب المجيزة لذلك لكن الكلام كله فى الطرفين الرأسماليين و الشيوعيين فى استغوائهم لقادة الشعوب الضعيفة فى القارتين الآسوية و الافريقية و عبثهم بكرامات هذه الشعوب و استغلالهم لأتعايبهم و استنفاد قواهم و تحكيم الساقطين فيهم تحكيماً لا يتفاوت عن العهود الحجرية فضلا عن القرون الوسطى فقد عانت و تعانى شعوب هاتين القارتين البالغ عددها حد الأقلّ نصف سكنة الكرة ما لا يستطيع و اصف ان يصفه من قتل و غارة و سجن و تبعيد و عبث و انهيار و توج و تحكّم الأرانل المأجورين بهم و كل ناشئة تنشأ فيها فانها لا تنشأ الاّ مغمورة بالاستعمار و الاستبداد و العبث بكرامتها و العبث بحريتها و اما الهمج الرعاغ منها فلا عدّ يأتى عليهم ولا حساب ينهيههم ولا بارقة أمل فى استصلاحهم لليأس من استصلاح زعمائهم فالشرق اذا كانون الاوهام و الخرافات و الاستبداد و الاختناق و التلصص و العامية و الجهل و الأنتحار و الأندحار فى حال ان الشرق يملك ثروة طائلة من دعوات الانبياء و روحانيين واقعيين وان كانوا فى قلة و حالة ذلّة لانهم مطاردون من صنفين مهمين من الغوغاء الذين يملأون البلاد عدداً و من العملاء الذين يملكون الحول و القوة ولا يدري الى متى تندفع هذه الشقّة فى بطون الازمنة، نعم لا يجوز اليأس من

روح المستقبل فان تسفل الدنيا لا بد له من واحدة اما الفناء العلم واما السعادة العامة التي اشير اليها في اولى هاته الآيات قل هذه سبيلي ادعو الى الله رمز كل فضيلة على بصيرة و تعقل و تدبر و تثبت انا و من اتبعنى فان التابع لى المتذوق لدعوتى مثلى فى معرفة الدرب و مثلى فى سلوكه و مثلى فى الانتصار على الحوادث بالصبر و الشجاعة و العلم و الأخلاص فى العمل و قيادة الجماهير من كان من الفقهاء صائنا لنفسه مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه فلم يكتف الامام بالفقه وحده لعلمه بان العلم من دون تقوى يكون ذريعة للفساد اكثر من كونه ذريعة للصالح لانه يعود وسيلة انتهاز كما لم يكتف بمخالفة الهوى و حدها لان العامى غير الفقيه يستدرجه كل مشعوز و يهيمن عليه كل شيطان مضافا الى انه ان يستوح شيئا فانما يستوحه عن وهم و خرافة و ما اضر الخرافات بالناس .

و فى نهاية المطاف فان الاسلام دين تربية و فضيلة لامرام حزبى فليس هو بداع الى الرأسمالية بمعناها الشائع بين الناس بل الى كل عمل مباح و مكسب محلل يفقد الأجحاف و التدليس ولا يجيز اغتصاب حق الانسان الناتج عن فنه و زحماته ، و من الخطوب التى دكت الدين فى عصوره الحاضرة هو اندفاع فريق باسم الاسلام و باسم احياء دور الوضأ على حياة رسوله الاكرم و المخلصين من خريجى مدرسته كالامام على عليه السلام الى بربرية لم يسبق لها مثال الا فى عهد الخوارج و القرامطة و الزنج و السلابيين من طغمة الناس فلم يحترم الد الحرام و لاسلب الحرية و الكرامة و الحيثية ولا كد اليمين من طريق العمل فراح باسم الاسلام يصادر حتى اموال العمال الفقراء و يريق الدماء بالشهوة و الشبهة و يسجن الناس آمادا بعيدة على حساب

العاطفة الفاسدة و يخيف الناس و يرهب العوام و يمارس اعمالا قد تتحاشى عنها الوحوش حتى اخذ الناس يخرجون من دين الله افواجا فى فترات قصيرة جدا .

* (حتى اذا استئس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا
جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن
القوم المجرمين : لقد كان فى قصصهم عبـرة
لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن
تصدىق الذى بين يديه و تفصيل كل شىء
و هدى و رحمة لقوم يؤمنون) *

يقول تعالى ان سخطنا انما يحيق بمن يستحقه بعد ان يحصل اليأس من عودته الى الحق و رجوعه الى الله و حلم الله عن مخلوقاته فى الايقاع بهم مما لا تتسع له حوصلة الرسل فانهم و ان تخلقوا بأخلاق الله بشر اذا طال عليه المقام يئس من المتماذى فى غيبه وقد يظن الظنون بالمؤمن به اذ يحدث نفسه ان الايمان اذا كان ذا نتيجة حاسمة فلم اتسع الميدان للكفرة و طال بهم الأمد، حين ذلك اليأس و هذا الظن جاءهم نصرنا فنجى من هو اهل للنجاة و نهلك المجرم المتهجم، لقد كان فى قصص آل يعقوب و غيرهم من أسر الانبياء عبـرة يعتبر بها ذو اللب و يأخذ منها نصيبه للحياة التى يعيشها ما كان هذا القرآن حديثا يفترى و انما هو الواقع يتجسم و الحديث الذى توصل به حلقات الربط بينه و بين كتب السماء و السابقة النزول عليه و التفصيل القائم ببيان كل شىء و الهدى لمن اراد الأهداء و الرحمة لمن يحاول ان تغمره رحمة ربه .

الى هنا تمّ الجزء الرابع من كتاب التفسير

وقد تكفل البحث عن تفسير سور الأنفال

والتوبة و يونس و هود و يوسف

و يتلوه الجزء الخامس واوله

تفسير سورة الرعد على يد

مؤلفه محمد بن محمد

طه الحويزي الكرمي

فلنحمد الله

شاكرين

...

..

.



* (فهرست الجزء الرابع من كتاب التفسير) *

العنوان	الصفحة
سورة الانفال - ما هي الانفال و لمن هي	١
من علامات المؤمنين	٣
طرف من واقعة بدر	٦
بدر و ما تعقبها	١٥
المعرض عن الحق بهيمة	١٦
الاستجابة لله و للرسول امر لازم	١٧
الجاهل المشرك في أسوأ حال	٢٠
قضايا بنى قريظة	٢٢
قصة الدار	٢٤
تمرد المشركين عن الأصاخة للقرآن	٢٥
حقد الكفرة على الدين يحملهم على كل شىء	٢٧
تصوير ادوار الانسان	٢٩
موارد الخمس	٣١
لزوم ثبات المؤمن امام الكافر	٣٤
نقض العهد ليس من شيم الانسان	٣٩
الدعائم الثلاث لحياة الأمم	٤٢
اخذ الحذر من الحيل و الخدع	٤٦
من لازم المؤمن مراعاة المعنويات اكثر	٥٠
تعرض لفضل المهاجرين و الانصار	٥٢
في جملة مما يلزم المهاجر و الانصارى غيرهما	٥٥

العنوان	الصفحة
اقسام المكلفين الثلاثة	٥٧
سورة التوبة - حلّ المعاهدة بين المشركين و المسلمين	٥٩
وجوب المشادة مع المشركين	٦٢
احترام العهود الموفى بها	٦٤
لا احترام للناكثين	٦٦
انما يعمر مساجد الله من آمن بالله	٦٨
اهمية الايمان بالله	٧٠
ثقيف و هوازن	٧٣
المشركون نجس	٧٦
الايمان و الشرك	٧٧
نور الله لا يطفأ	٧٩
كنز المال	٨١
هواة المادة بظاهرة المعنى	٨٣
الاشهر الحرم	٨٥
الله فى عون عبده	٨٧
المداجون و الواقعيون	٩١
انما الصدقات للفقراء	٩٦
المؤمنون و المؤمنات	١٠٢
التلوى على الحق	١٠٤
الايمان الضعيف	١٠٧
منع الله نبيه عن مجاملة المنافقين	١٠٩
الرسول و ضعفاء الايمان	١١١

العنوان	الصفحة
الجهاد و الأعدار فيه	١١٢
انواع الجهاد العلمى و الاعذار فيه	١١٤
الايمان و الكفر و اثرهما	١١٥
البداءة و الحضارة	١١٧
المهاجرون و الانصار	١١٩
خذ من اموالهم صدقة	١٢١
مسجد ضرار	١٢٤
التدليس و اثره	١٢٦
المعاملة مع الله	١٢٨
موعدة ابراهيم لأبيه	١٣١
ابو طالب دعامة الاسلام	١٣٣
النبي و المهاجرون و الانصار	١٣٥
حرمة التخلف عن الرسول	١٣٩
التفقه فى الدين	١٤٢
نزول الآيات يزيد فى ايمان المؤمن	١٤٥
رسالة الاسلام و رسوله	١٤٦
سورة يونس - ارسال البشر للبشر هو اللازم لانه عجيب	١٤٩
نكات الآية	١٥١
اختلاف الليل و النهار حكمة	١٥٥
عالم التكليف فيه استدرج	١٥٨
الافتراء على الله من اظلم الظلم	١٦١
الانسان متلون	١٦٣

العنوان	الصفحة
الفطرة و الانشمار عنها	١٦٦
مثل الدنيا عند الله	١٦٨
نظام الاسلام	١٧٠
اثبات الصانع و توحيد ه	١٧٣
التلون و الحقد من شر الآ خلاق	١٧٩
ندامة المكذبين بمواعيد الله	١٨٢
الله يعلم كل شىء	١٨٦
تسلية الله لنبيه	١٨٨
قول نوح لقومه و جوابهم له	١٩٠
موسى و هارون	١٩٢
اهل الكتاب و محمد	١٩٨
الايمان لا قسرفيه	١٩٩
الدعوة الى العبرة	٢٠٠
النظر الى ما فى السموات و الأرض	٢٠٢
سورة هود - احكام آيات الكتاب	٢٠٧
الغش و الصراحة	٢١١
كل مخلوق منوط بالله	٢١٤
تلون الأنسان	٢١٨
الدعوة الى الحق فى حاجة الى صبر	٢١٩
ماهى الحياة	٢٢١
اعمال العاملين محفوظة	٢٢٤
الصاد عن سبيل الله ملعون	٢٢٨

العنوان	الصفحة
الايان الواقعى	٢٣٣
ارسال نوح الى قومه	٢٣٦
انحطاط الجوامع و طرق علاجها	٢٣٧
النزاهة و المداجاة	٢٤١
اليأس و الرجاء	٢٤٥
مجرى السفينة و مرساها	٢٤٧
النجاة و الهلكة	٢٤٨
الأصرار و الثبات	٢٥١
ابن نوح	٢٥٣
عاد قوم هود	٢٥٦
ثمود قوم صالح	٢٦١
عالم الخلقه	٢٦٣
ابراهيم و لوط	٢٦٥
التكوين و التكليف	٢٦٧
لوط وقومه	٢٧١
ما هو الدين	٢٧٢
شعيب اخو مد ين	٢٧٤
الطمع و آفاته	٢٧٧
موسى و هارون	٢٨٠
اصحاب النار و اصحاب الجنة	٢٨٤
حرمة الركون الى الظالم	٢٨٦
فضل الصلوات الخمسة	٢٨٧

العنوان	الصفحة
العدل و الظلم	٢٨٨
التكوين و التكليف	٢٩١
سورة يوسف - قصص القرآن	٢٩٤
رؤيا يوسف	٢٩٨
كيد اخوة يوسف	٣٠١
المنطق الغلط و تبعاته	٣٠٢
الميزان فى معاشره الناس	٣٠٣
مؤامرة اخوة يوسف به	٣٠٦
ماذا تصنع الرذيلة	٣٠٨
الطمع و حب الأثرة	٣٠٩
تنازع البقاء و انتخاب الأصلح	٣١٢
المادة و المعنى	٣١٥
الدين و اللآ ابا ليه	٣١٧
الانتقاد و مبرراته	٣٢١
تعبير المنام	٣٢٥
خلاص يوسف من السجن	٣٣٣
استخلاص الملك ليوسف	٣٣٥
الظاهر و الباطن	٣٣٦
مجيء اخوة يوسف	٣٣٨
حسن المنقلب	٣٤٠
طلب يوسف لشقيقه	٣٤١
اخذ الحذر امر معقول	٣٤٤

العنوان	الصفحة
التكتم في الحياة	٣٤٥
دخول بنيامين على يوسف	٣٤٧
في الكذب	٣٥٠
سرقة الصواع	٣٥٢
الحقّ و الباطل	٣٥٤
صواع الملك	٣٥٦
الأمل و اليأس	٣٥٧
دخول اخوة يوسف عليه	٣٥٩
الصبر و حسن الصنيع	٣٦١
المؤمن ينظر بنور الله	٣٦٢
اجتماع يوسف بأهله	٣٦٥
النعمة و المحرومية	٣٦٦
السير في الآفاق و الأنفس	٣٦٩
الحياة الفاضلة و الفاشلة	٣٧٢
في قصص الانبياء عبرة	٣٧٨



WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY - AUG 1994
We're Quality Bound

Princeton University Library



32101 057496968